تاريخ الجزائر

في

القديم والحديث

الجزء الثالث

تأليف

مبارك بن محمد الهلالي الميلي

الناشر

مكتبة النهضة الجزائرية

٣٧ شارع عمر القاما

٢ شارع العربي بن مهيدي

الجزائر

تاريخ الجزائر

٣

تأليف مبارك بن محمد الهلالي الميلي

الناشر مكتبة النهضة الجزائرية

تاريخ الجزائر ــ الجزء الثالث

تاريخ الجزائر

في

القديم والحديث

الجزء الثالث

تأليف

مبارك بن محمد الهلالي الميلي

الناشر

مكتبة النهضة الجزائرية

٣٧ شارع عمر القامًا

٢ شارع العربي بن مهيدي

الجزائر

هذا الجزء الثالث

يمثل تاريخ الجزائر في العصر التركي الفترة المجهولة من تاريخنا ، هي فترة يزيـــد في غموضها ان المراجع العربية بشأنها نادرة ، وهــذه الصعوبة الاساسية هي التي اصطدم بها والدي رحمه الله عندما حاول كتابة الجزء الثالث ، فلم يكتب إلا حوالى العشرين صفحة، توقف بعدها ذلك أنه وجد ان معظم وأهم المراجع مكتوبة بالفرنسية . وقد وجدت من خلال تصفحي للاوراق التي تركها انه سلك طريقة متعبة وطويلة في التعرف على ما كتب باللغة الفرنسية : فكان يأخذ النص الواحــد بالفرنسية ويكلف به اثنين منه اصدقائه أو معارفه ، لا يكون بينهما أدنى اتصال، ليترجما نفس النص ؛ وكان هدفه من كل ذلك هو ان يتعرف على محتوى النص الفرنسي ، من خلال ترجمتين لا من خلال ترجمة واحدة قــد يكون بها خلل أو تحريف . والسبب في البحث بدقة عن معاني النص الفرنسي هو أن محاولة والدي لم تكن – كما يستطيع القارىء أن يتبين ذلك من خلال الجزئين السابقين – عبارة عن سرد للوقائع ، بقدر ما كانت محـــاولة للتدليل على وجود الجزائر في التاريخ وابراز معالم الشخصية الجزائرية .

اما عن الدافع الذي دفعني الى كتابة هذا الجزء ، فقد كان في بدايته نوعاً من الشعور بضرورة أداء دين علي ، فمنذ وفاة والدي وانا اسمع هــــذا السؤال : متى تكمل الجزء الثالث ؟ لكنني عندما شرعت في البحث عن المراجع استهواني العمل ، واكتشفتُ آفاقاً جديدة في البحث عن الشخصية الجزائرية .

وقد حاولت في كتابة هذا الجزء الثالث ، ان أقتصر على التعريف العام بتاريخ هذه الفترة ، دون التوغل في ذكر كل الوقائع والاحداث وتحليلها كلها ، باعتبار أن ذلك يجب ان يكون موضوع دراسات خاصة ، وليس موضوعه هو كتاب مهمته التعريف العـــام بالجزائر في هذه الفترة . وسوف يجد القارىء اني اهملت التعرض للحياة الأدبية في هــذا

العصر ، لأني اعتبر أن هذا العمل يجب أن يتوفر على جمهرة من الباحثين في الأدب ليوفوه حقه، ولهذا اقتصرت على التعرض بقدر المستطاع لتحليل النواحي الاقتصادية والاجتماعية باعتبارها مرتبطة ارتباطاً عضوياً متيناً بالناحية السياسية .

على ان هذه النواحي الاجتماعية والاقتصادية تتطلب تحليلاً اكثر تبسيطاً وأبعد غوراً لكن ذلك يتطلب دراسات مركزة لا تتسع لها محاولة من هذا النوع هدفها هو التعريف العام بهذه الفترة . وسوف احاول التوفر عليّ دراسة جوانب هامة من تاريخنا في هـــذه الفترة ، لانها تعين على القاء أضواء كاشفة على فترة المقاومة ضد الاحتلال الفرنسي وعـلى فترة الاحتلال نفسه وعلى بعض المشاكل التي خلفها الاستعمار .

محمد إبراهيمي الميلي

توطئة

كثيرة هي التعاليق التي كتبت عن الحكم التركي بالجزائر لكن اغلب هذه التعاليق تعتمد في الاحكام التي تصدرها على جزئيات هنــــا او هناك اكثر ممــا على الاستقراء والنظرة الشمولية .

والواقع ان اصدار حكم قاطع بشأن الحكم التركي في الجزائر يتطلب دراسة متعمقة لذلك العهد وتفاصيل وقائعه . وليس في امكان محاولة مثل هذه هدفها هو التعريف العام بجزائر العهد التركي ، ان تشتمل على التفاصيل التي تُعْتَمَدُ في اصدار الاحكام العلمية . لكن ذلك لم يمنعنا من التنصيص على خطوط التطور التي يستشعرها القارىء من خــلال بعض الحوادث او الوقائع التي تصلح ان تكون علامات ودلائل يستطيع الباحث ان يهتدي على ضوئها الى الوجهة التي ينبغي ان يركز عليها أبحاثه ودراسته وتحليله والحقيقة التي يلمسها الانسان عند بحثه في تاريخ هذه الفترة هي ان دراسة هذه الفترة لا يمكن ان تكون منفصلة عما قبلها من الفترات والعهود التاريخية في حياة وطننا . ان فهم كثير من الوقائع والاحداث في هذه الفترة يتطلب من الباحث ان يرجع الى أغوار الماضي ؛ ذلك ان تفهم كثير من الوقائع والاحداث في العهد التركي يتطلب فهماً عميقاً للخصائــــص المميزة للشخصية الجزائرية ، والخصائص المميزة التي تتشكل منهــــا الشخصية الجزائرية تتطلب دراسات تتناول حتى العهود الــــتي سبقت دخول العرب واستقرار الإسلام بالجزائر . كما اشار الى ذلك بحق رئيس الجمهورية والامين العام للمكتب السياسي لجبهـــة التحرير الوطني في التقرير الادبي الذي قدمه الى اول مؤتمر للجبهة انعقد فوق ارض الوطن بعد الاستقلال .

وفعلاً فان الذي يبحث كل العهود التاريخية الماضية يجد أن هناك وقائع لا تفسرهــا إلا خطوط مستمرة تمثل المعالم المميزة للشخصية الجزائرية ، وهـــذه الخطوط المميزة للشخصية الجزائرية نجدها دائماً واحدة لا تتغير سواء في العهد الفينيقي او فـــيما تلاه من العهود ؛ وهذا لا يعني أننا نريد التقليل من أهمية العنصر العربي الاسلامي ومبلغ تأثيره

في تركيب الشخصية الجزائرية ، ولكنه يعني أن الشخصية الجزائرية سابقة في تكوينها لظهور الاسلام والحضارة التي انبثقت عنه .

ان التذكير بهذه الحقيقة ضروري في نظرنا ، لأن تذكر هذه الحقيقة واستحضارها باستمرار، هو الذي يعيننا في بنائنا للجزائر الجديدة ، على الانطلاق من منطلق جزائري ويحول دون ان يتحول التفتح الذي اشتهر بـه الجزائري الى ذوبان او انكار للشخصية الجزائرية .

من أجل هذا نعتقد ان هناك عملاً ضخماً ينتظر مثقفينا، وهو توضيح معالم الشخصية الجزائرية عبر التاريخ القديم والوسيط والحديث ، وهو عمل ضخم لانه يتطلب ادوات تاريخية وفلسفية نفسية ، ويتطلب استقراء دقيقـاً لحوادث التاريخ ودراسة متعمقة للشخصية الجزائرية من خلال التراث الشعبي .

***

هذا هو النطاق الذي يجب ان نضع فيه بحثنا لفترة الحكم التركي بالجزائر ، واذا وضعنا البحث في هذا النطاق تصبح الاحكام التي نصدرها على الحكم التركي في حـد ذاته ثانوية بعض الشيء . ولهذا تجنبنا بقدر الامكان اصدار الاحكام القاطعة نظراً الى انه لا يمكن فصل هذه الفترة عما قبلها او بعدها من الفترات التاريخية .

وعلى هذا الاساس نجد ان الجوانب الايجابية التي يشيد بها بعضهم في التاريخ للعهد التركي لم تظل ايجابية بل لقد تطورت تطوراً سلبياً قضى عليها في نهاية الامر .

مثلاً : ان الاتراك مكنوا الجزائر من ان تكون لها قوة بحرية واسطول بحري هام ، لكن اتجاه الحكم التركي الى خوض المعارك البحرية مع البلدان الاوربية بحكم الظروف الموضوعية التي كانت قائمة ، حال دون تكوين جيش نظامي بري الذي كان هو الميدان المفضل للجزائريين وبعبارة اخرى ان تحول المعركة من البر إلى البحر ، بالاضافة الى مخاوف الاتراك من الجزائريين صرفت الحكم التركي عن تكوين جيش بري نظامي من الجزائريين ، واعتمدت كلية على القوة البحرية المتمثلة في الاسطول . وقد اسفر هـذا التطور عن وجود فراغ عسكري في الجزائر بحيث لم يصطدم الفرنسيون بالمقاومـة

الرسمية القوية التي كان يجب ان يصطدموا بها اثر نزولهم بسيدي فرج ، الذي جاء بدوره عقب ضعف الاسطول الجزائري . وبما ان الجيش التركي البري الذي كان موجوداً بالجزائر كان موجهاً اساساً لقمع السكان وجلب المغارم فهو لم يتمكن من الصمود في وجه العدو الخارجي .

ان هذا الجانب الايجابي ، وهو تكوين الاسطول الجزائري كان هو الثمن الذي دفعه الاتراك مقابل انتصابهم بالجزائر ، لان عدم امتلاك الامارات الجزائرية في القرن الخامس عشر الميلادي ، لاسطول بحري قوي اوجد بالجزائر الظروف الموضوعية التي هيأت لاستقبال الجزائريين لهذه القوة التي لم تكن موجودة عندهم حينذاك .

على ان هذه القوة البحرية التي جاء بها الاتراك أدت الى لا قوة . وهذا الجانب الايجابي انعَدمَ مع طول الزمن . لماذا ؟ ان معظم الكوارث التي لحقت الاسطول الجزائري ، قد لحقته بسبب الدولة العثمانية : ذلك ان الاسطول الجزائري في العهد التركي كان مثل خطيئة آدم في المفهوم المسيحي : لقد كان قوة خارجية جعلتها ظروف معينة تنتمي الى الجزائر ، فكان محكوم عليها دوماً أن تخدم الاصل ، الى ان انقرضت بسبب الاصل وسحبت معها في تدهورها كامل الجزائر . والعبرة المستخرجة من ذلك هي ضرورة الاعتماد على البناء الاصيل المنبثق من الشعب .

وهناك ظاهرة اخرى تستحق البحث ، لانها تلقي بعض الضوء على السهولة النسبية التي استقر بها الاتراك في مدينة الجزائر من جهة ، وتفسر من جهة اخرى الى حد ما الطابع الذي اكتسبه الحكم التركي بكامل الجزائر ، من جهة اخرى .

هذه الظاهرة تتصل بالجو النفسي لمدينة الجزائر في تلك الفترة : لقد كان جواً ناعماً جلب الى مدينة الجزائر اخلاطاً من السكان ، في وقت كانت فيه الرابطة العصبية تلعب دوراً هاماً في قيام الحكم ، فهذا الجو الناعم جعل سكان مدينة الجزائر في ذلك العهد يتفرغون الى الكسب دون ان يهتموا كثيراً بلون الحكم السياسي . وقد أعطى هذا الجو صورة خاطئة للحكام الاتراك عن حقيقة الجزائر كوطن .

وفي نطاق تلك الصورة جرت محاولات عديدة لابراز الشخصية الجزائرية بكامل

معالمها وابرز تلك المحاولات ، محاولتان فشلت كل منهما .

المحاولة الاولى هي محاولة صالح باي الذي كان مقتله فشلاً كحركة تطورية أرادت العمل داخل النطاق الاداري القائم . والمحاولة الثانية محاولة انطلقت من القاعدة ، وهي التي تتمثل في حركة ابن الاحرش وحلفائه ، وهي حركة ثورية شعبية انطلقت من القاعدة ضد شرعية النظام التركي .

وليس من محض الصدفة ان تتم المحاولة الثانية بعد قليل من فشل المحاولة الاولى : انها تعبير عن يأس الجماهير من العمل من داخل النظام ومن داخل الشرعية .

ولو نجحت احدى تينيك المحاولتين لكانت النتيجة هي الاستقلال الكامل عن القسطنطينية وضبط سياسة على أساس المصلحة الوطنية .

نعم لا ننكر ان الطبقة التركية الحاكمة حاولت الاستقلال بالجزائر عن القسطنطينية، واستقلت بها فعلاً إذ لم تُبْقِ إلا على علاقة واهية مرتخية ، لكنها حققت الاستقلال لفائدة الطبقة الحاكمة دون مراعاة مصلحة مجموع الشعب ، وليس في هذا أدنى غرابة ، فالتاريخ الحديث يشتمل على أمثلة من هذا النوع : محاولة جنوب أفريقيا التي تمت ، وما حاولته السيقان السوداء في الجزائر وفشلت في تحقيقه . لكن الذي يجعل محاولة الطبقة التركية متميزة هو أن أبرز وأقوى العوامل السياسية في ذلك العهد، وهو العامل الديني، كان يلعب لفائدة الأتراك . وكان من الممكن أن يؤدي هذا العامل وذلك التطور الى الذوبان الكلي لتلك الطبقة في الجزائر ، لكن مجيء الاحتلال الفرنسي حال دون اكتمال تطور هذا الخط . لان قوة النزعة الاستقلالية عند الجزائريين كانت ستؤدي حتماً الى احدى نتيجتين: رفض الطبقة التركية أو ذوبانها . والعلامات التي لمسناها في عهد الدايات يدل على ان الطبقة الحاكمة بدأت تسير في طريق الذوبان .

***

ان هذه النزعة الاستقلالية للجزائر تؤكدها الثورات العديدة التي قامت في العهد التركي وفي هذا المجال يجب ان نلفت النظر الى حقيقة حاول غير واحد من المفكرين الغربيين تشويهها ، فالمفكرون الغربيون الذين وضعوا أنفسهم في خدمة الاستعمار ، وحتى

بعض المفكرين الذين يتوهمون انهم تخلصوا من العقليـــة الاستعمارية ، يستدلون بكـثرة الثورات في العهد التركي ، وقلتها النسبية في العهد الفرنسي ليقولوا ان الاستعمار مفيـد وان الشعوب قد استشعرت هذه الفائدة ، ولتوضيح هـذه الفكرة والرد عليها ، نسوق مـا قاله في هـــذا الصدد المفكر الفرنسي جاك بيرك ، الذي كتب يقول في كتابه : Depessesion de monde ما يلي: « والاغرب من هذا في العلاقات التي فرضها الاستعمار إبان ازدهاره لا يتمثل في كونـه (أي الاستعمار) استفاد من تواطىء كبـــار المساهمين في الاحتلال ، ولكنه استفاد الى حد ما من قبول الضحايا بهذا الوضع . وهذا التذكير قد يكون محرجاً أو غريباً ، لكنه يسجل مع ذلك بداية ظاهرة تاريخية » .

والتفسير الذي يخطر على الذهن لتعليل هذه الظاهرة بالاضافة الى الارهاب الاستعماري وخيبة الآمـــال ، هو التفسير النفسي الذي يتمثل في لجوء الشعب المستعمر (بالفتح) الى الخداع ، لانه يعتبر ان الحرب مستمرة بينه وبين المحتلين ، والحرب خداع . فهو يميـل باستمرار الى مخادعة المحتلين وايهامهم انه قبِـلَ نهائياً بالوضع الاستعماري . اما الاشخاص الذين يقدمون شواهد الاخلاص للحكم الاستعماري والذين يستشهد بهم جاك بيرك ، فيمكن أن نعتبرهم من زاوية تفسير نفسي — جماعي للتاريخ — بأنهم كانوا مجرد أدوات تستعملهم الجماعة المضطهدة لتضليل المحتل . وليس الوعي ضرورياً هنا ، أي ليس من اللازم أن يكون هناك تفاهم بين الجماعــة وبين الشخص الذي يقـــدم شواهد الاخلاص للمستعمر (بالكسر) على تمثيل هـــذا الدور . ولكن يكفي ان تفرز الجمـــاعة بعيداً عنها العناصر غير السليمة كي يتم ما تم من دفاع الجماعة عن نفسها ضد المحتل بسلاح الخداع .

وهذا التفسير النفسي يكمله تفسير آخر يتلخص في أن الشعب المضطهد يشعر في أعماقه بأن التطور الذي حدث في البـلاد التي استعمرته ، قد مكـّن البلاد الاستعمارية من أداة للسيطرة لا قِبَل له بمقاومتها . ولذلك يفضل أن يمر بمرحلة خُمُولٍ ظاهري يُحـــاول خلالها أن يهضم ويتمثّل التطور الذي حدث في البـــلاد التي استعمرته ، وان يتكيف حسب الظروف الجديدة التي حققها هذا التطور ، حتى يصهر أسلحة جديدة مادية ومعنوية يستطيع بها أن يواجه المحتل مواجهة ناجحة .

وفي الوقت الذي يطمئن فيه المحتل الاجنبي ويأمن جانب الثورة ، يحمل بعض اساليبه

الفنية الى البلاد التي استعمرها لتكون في خدمته هُوَ أي في خدمة الاستعمار . لكن التطور الفني لا يمكن تجزئته ، والتقدم الفني الذي تستعمله الدولة المحتلة لتأييد سيطرتها سيخدم في نفس الوقت ميادين اخرى غير الميادين التي يريدها الاستعمار . وهذا التقدم في امتداده الى ميادين اخرى سيمكن الشعب المضطهد من تحقيق بعض الظروف الموضوعية التي يبحث عنها ليصهر فيها سلاحه الجديد .

ان هذا التفسير لا ينكره جاك بيرك ، لكنه يسوقه في قالب آخر وبكيفية اخرى تظهر مزايا الاستعمار اكثر مما تبرز نضالية الشعب المضطهد واستمرار عزمه على التخلص من الاحتلال الاجنبي فيقول في الكتاب الآنف الذكر :

« ان التجديد (الذي يدخله الاستعمار) ليس على قدر التخريب (الذي يحدثه نفس الاستعمار) أو بعبارة أدق ان نصيب الخلق والابداع الذي يدخله الاستعمار يستلزم لكي يزدهر ، زوال النظام الاستعماري . ان الامبريالية تستغل البلاد التي احتلتها وتغرس فيها نباتات لا تؤتي ثمارها الا بعد تغيب الاستعمار وزواله ، وهي ثمار يقطفها آخرون . والايجابية التي يولدها (الاستعمار) لا تظهر الا ضده بواسطة التجديد الذي يدخله . وهكذا نجد انالاستعمار الذي يريد لنفسه ان يكون واقعياً وكاسباً يسير في خط مستقيم نحو الافلاس . ان الاستعمار القادم من مكان آخر والذاهب الى مكان آخر المستغل (بالكسر) أكثر مما يقول ولكن أقلّ بكثير مما يعتقد ، هذا المؤرخ رغم نفسه (اي الاستعمار) يترك لنا درساً هو : لا يمكن أن يوجد ابداع الا في اتجاه عمودي لا سطحي . »

واضح من صيغة جاك بيرك هذه انه يُغفِل عنصر الايجابية الكامن في طاقة الشعوب المضطهدة وفي عزمها على التخلص من الاستعمار ، ويهمل عنصراً اساسياً من عناصر التطور الدياليكتيكي في المستعمرات ، وهو العنصر الذي شرحناه والذي يتمثل في بحث الشعب المضطهد من صهر سلاح جديد بواسطة الاستفادة من الاساليب الفنية الحديثة التي يدخلها الاستعمار والتي لا تقبل التجزئة .

اما الايجابية التي يتحدث عنها الاستاذ جاك بيرك ، فكانت تستظل سلباً مطلقاً لولا ذلك التصميم السابق من طرف الشعب المضطهد .

ان تحليل الاستاذ بيرك لا يكون كاملاً وسليماً الا اذا اعتبر التصميم الشعبي على التخلص من الاستعمار ، سابقاً للتطور والتجديد الذي حمله الاستعمار ، لكن المفكر جاك بيرك يسكت عن ترتيب هذا التصميم بالنسبة للتطور ، بل ويمكن ان يفهم من كلامه ان التصميم على التخلص من الاستعمار متولد عن التطور الذي أدخله الاستعمار ، وهو ما لا يمكن ان نوافقه عليه .

هذا الاستطراد دفعنا اليه ابراز حقيقة طالما حاول المفكرون الذين خدموا الاستعمار تشويهها عن قصد ، كما حاول تشويهها عن غير قصد بعض المفكرين بحكم انتمائهم الى الحضارة الغربية التي يعد الاستعمار احد مظاهرها الاساسية .

* * *

ان استقلال الجزائر يجعلنا نتجاوز الآن النقاش الذي كان قائماً عندما كانت تخوض الجزائر غمار حرب التحرير ، وهذه المجاوزة لا تزيل ذلك النقاش جملة واحدة ولكنها تغير طبيعته تغييراً أساسياً فلم نعد الآن نشعر بالحاجة الى الدفاع عن فكرة الدولة الجزائرية والشعب الجزائري وتكونهما قبل الاحتلال الفرنسي . ان الاستعراض البسيط لاحداث الفترة التركية — وهذه التسمية للتعريف فقط وليس لهـا أي مدلول سياسي يكفي في الكشف عن حقيقة وجود الدولة الجزائرية قبل الاحتلال الفرنسي .

لكن الذي يحتاج الآن الى الدرس والتمحيص ، ويتطلب من مثقفينا العناية هو الكشف عن طبيعة المعركة بين الطبقات التي كانت قائمة بالجزائر قبل الاحتلال الفرنسي ، وهي معركة لا يمكن ان يحدد مداها وابعادها الا بالاستقراء الشامل للثورات والحركات التي قامت في العهد التركي ، فذلك الاستقراء هو وحده الذي يجعلنا نميز بين ما هو تقدمي من تلك الحركات وما هو مدفوع منها بدافع رجعي .

والنتيجة التي نستخلصها بسرعة من تلك الحركات والثورات هي حيوية الشعب الجزائري .

* * *

والخلاصة هي التحليل العميق للعهد التركي بالجزائر لا يسفر عن النتيجة التي كان ينادي بها سدنة الاستعمار ، وهي ان الجزائر كانت دائماً تحت السيطرة الاستعمارية ، ولكنه

يؤدي الى الكشف عن وجود متميز للشخصية الجزائرية التي نجدها موجودة من قبل ذلك بخصائصها المميزة ، كما يسفر عن حقيقة هامة ، هي ان انتصاب الطبقة العسكرية التركية بالجزائر كان نتيجة ظروف جزائرية ، ولم يكن نتيجة خارجية عن الجزائر ، وهـذا هو السبب في ان هذه الطبقة بالرغم من اخذها بزمام الحكم وكل مظـاهر السلطة ، وقعت تحت ضغط الظروف الجزائرية الى درجـة ان انفصلت عن القسطنطينيـة ، وأصبحت منطلقاتها في التخطيط السياسي هي الاعتبارات الجزائرية الصرفـة ، وليس اعتبارات الامبراطورية العثمانية ، بحيث يمكن ان نقول ان الثورات وردود الفعل ضدهـا في العهد التركي كانت تجسيماً لتناقضات تندرج كلها في الواقع الجزائري ولم تكن جذباً ودفعاً بين قوة داخلية واخرى خارجية .

* * *

وبعد فان التاريخ والبحث في العصر التركي ، مثله في ذلـك مثل البحث في العصر الحديث يتطلب من الدارس يقظة كبيرة حتى يستطيع أن يتخلص من تأثـير التفكير الغربي الذي يتخذ لبوس الموضوعية والنزاهة ، ويتفطن لانواع الخداع والتضليل الفكري الذي عمد اليه عن قصد أو غير قصد سدنة الاستعمار ومن تربوا في احضانه ، وفي الاخير أرجو أن أكون قد قدمت بهـذا العمل بعض ما تطلبه أجيالنا الصاعـدة من مثقفي الجزائر اليوم .

محمد ابراهيمي الميلي

الباب الاول

الاسبان في الجزائر

- طبيعة الاعتداءات الاسبانية على شواطىء المغرب العربي .
- طبيعة الاحتلال الاسباني لوهران .
- عروج وخير الدين .
- الاتصال بمأساة الاندلس .

الاسبان في الجزائر

كانت محاولات وغزوات الأسبان ضد الجزائر، من بين الأسباب المباشرة التي مهدت لاستقرار الحكم التركي بالجزائر .

لذلك نعتقد أنه لا بد أن نقدم صورة لما كان عليه الوضع قبيل مجيء عروج وخيرالدين الى الجزائر .

كان سقوط غرناطة في يد الاسبان يوم ٢ جانفي ١٤٩٢ م . بدء مرحلة جديدة في برنامج التوسع الاسباني .

وقد خشي الكاردينال كسيماناس — المشهور بتعصبه الديني والذي كان أبرز الدعاة الى مواصلة الحرب ضد المسلمين في شمال افريقيا — خشي أن يكون سقوط غرناطة وفرار فلول العرب والمسلمين من الأندلس، ايذانا بتوقف الهجومات ضد العرب والمسلمين .

لذلك أثار مخاوف اليزابيت — التي كان يعرف أنها أشد تعصبا من الملك فرديناند — أثار مخاوفها من المسلمين الذين فروا الى المغرب والجزائر وتونس، واستعمل اللهجة التي كان يعرف أنها ستكون مسموعة ولا شك من طرف الماسكين بزمام الحكم في أسبانيا المسيحية .

والواقع انه لم يكن صعباً على الكاردينال كسيماناس أن يثير هذه المخاوف : فقد كان يكفيه التذكير ببعض الحقائق، وكان يكفيه ابداء بعض الملاحظات، ثم الجمع بين تلك الحقائق والملاحظات ليستخلص منها النتيجة الوحيدة التي تهم في نظره، وهي ضرورة نقل الحرب ضد المسلمين من الأندلس الى شواطىء المغرب العربي .

وليس غريباً من كسيماناس ان يستعمل هذه اللهجة كما انه ليس غريباً أن تجد عنده

ذلك التعصب وذلك الحنق ضد الاسلام والعرب ، ولكن الغريب هو أن نجد اللهجة والحجج التي قدمها لتبرير مواصلة الحرب ضد العرب في شمال افريقيا ، هي نفس اللهجة ونفس الحجج التي يبرر بها معظم المؤرخين الغربيين لتلك الحروب والهجومات نفسها بعد ذلك بخمسة قرون ويمكن تلخيص هذه الحجج والمخاوف فيما يلي :

ان العرب والمسلمين لا يعتبرون خروجهم من الاندلس هزيمة نهائية ، لقد أخفوا سلاحهم ، ومعظم رؤسائهم تظاهروا فقط بالانهزام في انتظار الفرصة المؤاتية لينقضوا من جديد على الأندلس ويشهروا الحرب مرة أخرى على المسيحية ؛ وأنه لا بد من القضاء على أوكار « القراصنة » المسلمين في الشمال الافريقي .

واستجابت الملكة اليزابيت بسرعة الى « نصائح » الكاردينال كسيماناس ، فكلفت — فور سقوط غرناطة — حاكم القلعة (الأندلسية) « لورا نزودي باديا » بمهمة التجسس على مملكة تلمسان التي قررت ان تكون أول اهدافها .

فتنكر « لورا نزودي باديا » في زي تاجر عربي ومكث بتلمسان أكثر من عام ، وقضى كل هذه المدة في جمع المعلومات اللازمة التي تعين على نجاح خطط المعتدين .

وفي نفس الوقت وقع اختيار الكاردينال كسيماناس على « جيرونيمو فينيالي » — وهو ايطالي من البندقية — ليكون الى جانبه يعينه على حبك خطط الغزو ، وقد خبر جيرو نيمو هذا عدة مهن وتقلب بين مهام عديدة : فقد كان بحاراً ومهندساً واشتغل محاربا بايطاليا تحت قيادة « كونزالف » قرطبة ، وكانت له معرفة جيدة وخبرة واسعة بشواطىء الشمال الافريقي التي عرفها وتنقل بينها بحاراً وتاجراً .

وبعد ان تجمعت المعلومات اللازمة لدى الملكة اليزابيت ، قررت أن يقع البدء بمهاجمة مملكة تلمسان ، وجمعت لذلك اثني عشر ألف جندي جعلتهم تحت قيادة « الكونت دي تانديلا » الذي كان قبل ذلك حاكماً لغرناطة .

لكن الملكة اليزابيت توفيت في عام ١٥٠٤ م . فتوقفت مؤقتاً — الاعدادات لهذا الهجوم الذي كان أعز احلامها ، وعندما فتحت وصيتها بعد وفاتها وُجِدَ فيها الالحاح

على وجوب مواصلة الاعداد لغزو الشمال الافريقي والاستمرار في الحرب ضد المسلمين .

* * *

وقبل ان نواصل الحديث عن الاعدادات الاسبانية لغزو شواطىء الشمال الافريقي ، يجب أن نقف وقفة قصيرة عند القالب الذي يقدم فيه معظم المؤرخين الغربيين رواية الهجومات الأسبانية .

فدي غرامون لا يتردد في كتابه « الجزائر تحت السيطرة التركية » أن يبرر الهجوم الأسباني كما يلي :

« في ربيع سنة ١٥٠٥ ، كما قال سواريز مرنتانيز ، نظم القراصنة المور (أي عرب أسبانيا) القاطنون بمرسي الكبير هجوماً على شاطىء فالاناس، واستغلوا ظلام ليلة ليلاء فخربوا ضواحي « الش » وأليكانتي » ورجعوا من هذا الهجوم محملين بالأسرى والغنائم . وبعد ذلك بأيام قلائل ، عندما سمعوا بأن مدينة جيجل هوجمت من طرف بواخر من مالقة، تجرأ القراصنة على الدخول ليلاً الى ميناء مالقة وأضرموا النار في البواخر التجارية التي وجدوها بها ، فكانت الخسائر فادحة ، وعم الاستياء ، واضطر الملك فرديناند الى أن يصمم على تحطيم هذا الوكر من أوكار القراصنة » .

هكذا يبرر دي غرامون الهجوم الأسباني على مرسي الكبير .

في حين ان تسلسل الاحداث يبرهن على عكس ما أراد دي غرامون أن يبرهن عنه .

ذلك أن تسلل المسلمين الى شواطىء الأندلس يجب أن يوضع في نطاقه الصحيح .

فبعد سقوط غرناطة ، بادرت اليزابيت وزوجها فرديناند بخرق المواثيق والعهود التي اعطيت للمسلمين . وعندما شكا المسلمون الذين بقوا بالاندلس ، خرق تلك العهود ، لم يكن جواب الحاكمين المسيحيين إلا تتبع المشتكين ، وتحجير عبادة الله حسب تراتيب الديانة الاسلامية . وبدأ الاضطهاد الديني ينصب على المسلمين .

وجاءت هجرة المسلمين من الأندلس فراراً بعقيدتهم نتيجة طبيعية لهذه الحملات

العنصرية . لكن الهجرة من الاندلس الى شواطىء المغرب العربي لا يقدر عليها الا الذين يملكون من المال ما يمكنهم من عبور البحر واستئجار السفن أو شراء ذمم الأسبان المكلفين بمراقبتهم .

ونقل المهاجرون أنباء الاضطهاد الديني الى اخوانهم في المغرب العربي، وبدأت حملات التضامن تنتظم في المغرب العربي لانقاذ من بقي بالاندلس من العرب والمسلمين على الفرار منها . (وفي حملات التضامن والانقاذ هذه لمع اسم بابا عروج وخير الدين اللذين سنعرض لهما بتفصيل أكثر في الفصول القادمة .)

فتسللات المسلمين الى موانىء وشواطىء الأندلس كانت تهدف الى استخلاص المسلمين الذين بقوا هناك من براثن الاضطهاد الديني ومقاصل محاكم التفتيش .

هذا هو النطاق الصحيح الذي يجب أن نضع فيه تسلسل المسلمين الى شواطىء الأندلس .

ان هذا التسلسل يدخل في نطاق احداث متسلسلة يوجد رأسها في الأندلس لا في الشواطىء الافريقية . ومن هنا يتبين بوضوح ان المبرر الذي استعمله الأسبان ليس صحيحاً كل الصحة .

نعم لا ننكر أن الأمداد والموجات التي انطلقت من شمال افريقيا الى الأندلس في عهد ابن تاشفين وبعده ، قد خلفت عند الأسبان عقدة من سكان وممالك المغرب العربي . لكن هذه العقدة لم تقف عند حدود خلق رد فعل دفاعي ، بل تجاوزته الى ردود فعل هجومية واعتداءات صارخة .

اذن فقد صمم فرديناند على تنفيذ وصية اليزابيت . ووقع اختياره على « دون دييغوفيرنا نديز » قائداً عاماً للحملة ، ووضع تحت قيادته جيشاً ينيف على العشرة آلاف . وكانت العمارة أو الاسطول الذي وضع تحت قيادة « دون رامون دي كاردونا » يتركب من سبع بواخر حربية ومائة وأربعين زورقاً مختلفة الأحجام .

وستعدت القيادة الاسبانية لمغادرة مالقة في أواخر أوت ١٥٠٥ (٩١١ ﻫ) — لكن

رياحاً مضادة اضطرتها الى تأجيل الرحيل ، فتجمعت في ميناء الميريا الذي مكثت به طيلة الاسبوع الاول من شهر سبتمبر ، ولم تغادره الا مساء يوم ٩ سبتمبر .

وقد أفاد هذا التأخر الاسبان من غير أن يقصدوا الى ذلك : فقد سمع سكان مرسي الكبير ببوادر الحملة واستعدوا لمواجهتها . لكن تأخرها من يوم لآخر حملهم على الاعتقاد بأن الأسبان تخلوا عن خطتهم في مهاجمة واحتلال مرسي الكبير أو انهم كانوا يقصدون هدفاً آخر .

وشرع الأسبان يهاجمون مرسي الكبير صباح يوم ١٠ ايلول وفي الوقت الذي كانت فيه البواخر الحربية ترسل قذائفها المدوية على الميناء ، كانت بواخر النقل تنزل الجنود . ونظراً للمفاجأة ، لم يجد الاسبان أمامهم عدداً كبيراً من المدافعين ، أما العدد القليل الذي كان في الميناء أثناء الهجوم ، فلم يتمكنوا من رد الهجوم رغم استبسالهم الذي شهد به الأعداء أنفسهم ، وكانت الغلبة للقوة وكثرة العدد ، لكن المعارك استمرت رغم ذلك طيلة النهار وكامل الليل وتواصلت في اليوم الثاني ، وفي اليوم الثالث — وكان يوم جمعة — ازدادت المعارك عنفاً وحدة ، بسبب توافد السكان من الداخل بعد أن سمعوا بأنباء المعارك .

لكن استشهاد قائد حامية مرسي الكبير في اليوم الأول للمعركة والحصار الذي وقعت فيه الحامية ، وانقطاعها عن الماء بالاضافة الى العدد الضخم الذي يتركب منه جيش المهاجمين الأسبان ، كل ذلك اضطر الحامية الى أن تستسلم بعد حصار دام خمسين يوماً حسبما أكده هنري غارو وقد قرر دون دييغو ، فور انتصاره ، أن يحول جامع مرسي الكبير الى كنيسة ، وشرع ، يعزز مواقعه ، ويرسل الطلائع الى داخل البلاد لتمونه بالقوة . ذلك انه لم يجد داخل المواقع التي احتلها ما يمون به جنوده ، كما أن ملك تلمسان سارع الى مهاجمة الأسبان فور سماعه بالنبأ .

وعندما سمعت أسبانيا بأنباء الاستيلاء على مرسي الكبير قررت اعلان الأفراح لمدة ثمانية أيام . وطلب الملك من دون دييغو أن يقدم الى أسبانيا ليهنئه ، فرحل هذا الاخير

الى أسبانيا وترك مكانه دون روي روكسا .

* * *

عندما أقلع الأسطول الأسباني الذي قـاد الهجوم على مرسي الكبير ، عائداً الى أسبانيا ، ترك بالميناء الجزائري نحو ثمانمائة جندي انصرفوا الى تحصين مواقعهم وتوسيع شبكات اتصالاتهم خارج الحصن: فاستولى «دون روي رياز » على المنابع المائية الموجودة في الطريق المؤدي الى وهران ، وبنى حصناً وضع فيه فرقة عسكرية لا تغادره أبداً ، وحاول أن يستميل اليه سكان المناطق المحيطة ، لأنه كان يعرف أهمية التموين ، وفتح لهذا الغرض سوقاً حرة لا تبعد عن الحصن إلا قليلاً .

لكن السكان رفضوا عروض واغراءات المحتلين ، وراحو يغتنمون كل فرصة لتسديد ضربات يفاجئون بها العدو ، بحيث يمكن القول ان قصة احتلال مرسي الكبير ليست إلا قصة حصار دائم .

هذه الوضعية ، من هجومات متكررة وحصار دائم ، لم يكن فيها ما يرضي زهو الحاكم الأسباني. لذلك ما فتىء يطالب ملكه بتمكينه من قوات كافية يهجم بها على مدينة وهران . وعاد دون دييغو مرة ثانية الى اسبانيا في سنة ١٥٠٧ م . (٩١٣ هـ) ، وتمكن من اقناع الملكة « جوانا » بسداد مطلبه ، فأرسلت له جيشاً يتألف من خمسة آلاف محارب .

* * *

وضع دون دييغو هذه القوات الجديدة في مرسي الكبير ، وقرر أن يستولي على وهران بطريقة مفاجئة ، وقد فضل أن يدرب جنوده على مواجهة السكان في معارك جزئية ومناوشات تمكنهم من درس أساليب الجزائريين في الحرب والتعرف على طرقهم وأساليبهم في النزال .

في تلك الأثناء بلغ الى علمه أن هناك دواراً كبيراً « مسوغين » لا يبعد عنه الا قليلاً ، يقع وراء الجبل. فقرر دون دييغو أن يهاجم هذا الدوار تحقيقاً لبرنامجه في تدريب جنوده

على مواجهة المسلمين ، بالاضافة الى ما سيدره عليه هذا الهجوم المفاجىء من غنائم هو أحوج ما يكون اليها : فالحصار المتوالي الذي نصبه حوله السكان جعله لا يتحصل على ما يلزم لتموين جيشه الا بمشقة وعناء كبيرين .

وفي مساء يوم ٦ جوان ١٥٠٧ م (صفر ٩١٣ هـ) على الساعة التاسعة ليلا ، شرع دون ديغو يسير على رأس جيشه ، تاركاً بالحصن عدداً قليلا من رجاله تحت قيادة روي دياز دي روكساس .

وقد كان هناك طريقان يؤديان من مرسي الكبير الى مسوغين : أحدهما يحاذي البحر ويكون المار منه في متناول مدافع وهران وتحت رحمتها ، وثانيهما يخترق الجبل . واختار دون ديغو هذا الطريق الثاني حتى لا يكشفه المسلمون ولا يقطعوا عليه حملته وهي ما تزال بعد في بدايتها .

وما كان الفجر يشرق من الغد حتى كان الدوار المقصود محاصراً من كل ناحية ، ورغم وقع المفاجأة على السكان فقد واجهوا المعركة باستبسال انتزع اعجاب أعدائهم . لكن الغلبة كانت للقوة وكثرة العدد مرة اخرى . وانتهت الجولة الأولى من المعركة بنجاح دون ديغو .

لكن دون ديغو كان قد ارتكب خطأ عسكريا فادحاً دفع بعد ذلك ثمنه غالياً : فهو لم يقرأ حساباً لتقهقره بعد الانتصار ، ولم يترك وراء ظهره قسماً من الجيش يحميه . لذلك ما ان بدأ دون ديغو سيره في طريق العودة محملاً بالأغنام حتى هوجم من طرف السكان الوافدين من الداخل الذين أسرعوا فور سماعهم بالنبأ الى اللحاق بالجيش الاسباني وأجبروه على خوض المعركة من جديد .

ولعب عنصر المفاجأة هذه المرة لصالح الجزائريين ، وفي نفس الوقت خرجت حامية وهران فقطعت الطريق على مقدمة الجيش الاسباني وأخذت منه بسهولة الأغنام والأسرى الذين كان يريد استصحابهم الى مرسي الكبير . واستولى الهلع على الجنود الأسبان الذين أطبق عليهم الهجوم من أمام ومن خلف ، وحاقت به الهزيمة ، وخسر الأسبان في هذه

المعركة ثلاثة آلاف جندي .

وما كان دون دييغو لينجو لولا انه اختفى صحبة خمسة من جنوده ، اما الباقون فقد وقعوا أسرى في أيدي الجزائريين .

ورجع دون دييغو بعد هذه الهزيمة الى أسبانيا مرة ثالثة ليقدم تقريره عما حدث .

وفي هذه الأثناء كان الكاردينال كسيماناس يتم الاستعدادات للهجوم على مدينة وهران الذي كان يرغب أن يقوده بنفسه . وتم له ما أراد : ففي ٢٠ أوت ١٥٠٨ عينـــه الملك فرديناند قائداً عاماً للحملة الموجهة ضد وهران .

غادر كسيماناس قرطاجنة (بالأندلس) يوم ١٦ ايار ١٥٠٩ (محرم ٩١٥ هـ) على رأس ثلاث وثلاثين باخرة حربية وواحد وخمسين زورقاً صغيراً ، ونزل بمرسي الكبير يوم ١٨ ، وهاجم وهران يوم ١٩ .

ولا يستبعد بعض المؤرخين في هذا الصدد – ومن بينهم شارل أندري جوليان – ان تكون وهران قد سقطت نتيجة لخيانة واحد من سكان المدينة . وفعلاً فـــلم يتمكن الاسبان من احتلال المدينة الا بعد ان تفاهموا مع « ستورا » اليهودي ورجلين من المسلمين أدخلوا بعض الاسبان الى المدينة فتولوا فتحها في وجه اخوانهم (راجع الجزء الثاني من تاريخ الجزائر . ص ٣٨٢ .) .

وقد وجد الـكاردينال كسيماناس الفرصة متاحة ليشبع تعطشه الى دمـاء المسلمين ، فأمر بتقتيل أكبر عدد ممكن من المسلمين . ويعـترف الشهود الاسبان انفسهم بان جنود كسيماناس راحوا يقتلون سكان المدينة بكل وحشية ، بحيث لم تمر ساعات قلائل حتى تم تقتيل أربعة آلاف شخص عدا النهب والسرقات ، وقد قدرت غنائم الاسبان بأكثر من اربـع وعشرين مليوناً . وغادر كسيماناس وهران بعد أن حول مساجدها الى كنائس .

وترك الـكاردينال كسيماناس قيادة الجيش وحامية وهران الى دون بيد رونافاري دي اوليفتو الذي خلفه في هذا المنصب ، روي دياز في أواخر شهر نوفمبر . وروي دياز لم يحتل هذا المنصب إلا مؤقتاً في انتظار عودة دون دييغو الذي عينه « قائدا عاماً لمدينـة

وهران ، وحامية مرسى الكبير ، ومملكة تلمسان » .

طبيعة الاحتلال الاسباني لوهران :

ان هذه التسمية التي منحت « لدون ديغو » تكشف عن حقيقة المشاريع والنوايا الاسبانية بالنسبة لشمال افريقيا . فهي تدل على أن احتلال وهران ومرسي الكبير لم يكن إلا مقدمة للاستيلاء على مملكة تلمسان ، كما ان احتلال بجاية وعنابة وغيرهما من المدن كان في اعتبار الاسبان مفتاحاً فقط للنفاذ الى داخل البلاد .

وهنا يحق ان نتساءل : ما الذي حال دون نفاذ الأسبان الى داخل المغرب العربي وسطه وجناحيه ؟

يحاول المؤرخ شارل أندري جوليان ان ينفي وجود نية التوسع الى داخل البلاد عند المحتلين الأسبان ويقول في هذا الصدد ما يلي :

« لئن كانت اسبانيا قد تخلت رغم تفوقها في الأسلحة عن تمديد وتوسيع نطاق احتلالها فلان المسألة الافريقية كانت تحتل المرتبة الثانية من اهتماماتها ، ان فرديناند الكاثوليكي الذي كان ملك ارغون قبل كل شيء ، كان يتوجه على الاخص ناحية جبال البيريني (فرنسا) وايطاليا : وتدخله العنيف في شواطيء افريقيا خلال مرحلة قصيرة (١٥٠٩ – ١٥١٠) يفسرها نوم المسائل الايطالية ، وقد كان عليه ان يقرأ في كل وقت حسابا للوضعية المالية الضعيفة التي تمنعه من القيام بحملات لا ترجع بالفائدة العاجلة .

ان السياسة الافريقية لاسبانيا ، لم تكن ابداً مستقلة منذ بداية القرن السادس عشر ولا يمكن فهمها ان لم تربط بالسياسة العامة لأسبانيا .

ان الاسبان قد اكتفوا ، منذ توالي فرديناند الكاثوليكي للحكم بأسلوب الاحتلال المحدود ، فحولوا الموانىء المحتلة الى مواقع محصنة تحتلها حاميات عسكرية ، تاركين الضواحي للسكان الاهالي .

ان هذا التحليل الذي يقدمه شارل اندري جوليان يعد في الواقع ملاحظة لأمر واقع ، ولا يقوم بمفرده تفسيراً لهذا الأمر الواقع .

فنحن لا نرى مانعاً من التسليم بأن السياسة الاسبانية تعتبر كلا لا يتجزأ ، لكن ذلك لا يكفي في تفسير توقف الأسبان عند حدود الموانىء وعدم توغلهم الى داخل البلاد .

صحيح ان العامل الاقتصادي – فقر الخزينة وعدم وجود أرباح تعوض – الى حد بعيد في تسيير سياسة الاحتلال ، لكننا نرى أن هذه الملاحظة تحاذي التفسير الصحيح وليست هي التفسير الصحيح . أي انها تلازمه وليست هي هو .

ان تحليل شارل اندري جوليان غير كاف لأنه يترك المجال لنقط استفهام عديدة تبقى بدون جواب ان نحن اكتفينا بتفسيره .

فهو يلاحظ ان المسألة الافريقية تحتل المرتبة الثانية من اهتمامات السياسة الاسبانية ، وهذه الملاحظة وجيهة في حد ذاتها لكنها تترك المجال مفتوحاً لسؤال ذي بال وهو : لماذا كانت المسألة الافريقية تحتل المرتبة الثانية رغم وجود عدة عوامل قد تدفع الاسبان الى وضعها في المرتبة الاولى ؟

كما ان ملاحظة الوضعية المالية التي لا تسمح بنفقات لا ترجى من ورائها فائدة عاجلة لا تستطيع أن تمنعنا من مواجهة سؤال معين وهو : لماذا لا يجد الاسبان فائدة عاجلة من وراء تمديد احتلالهم داخل الأرض الافريقية ؟

الجواب عن ذلك ، وهو يمثل في نفس الوقت التفسير الصحيح الكامل لاكتفاء الاسبان باحتلال بعض الموانىء ، نجد عند شارل أندري جوليان نفسه وعند غيره من الذين ارخوا لهذه الحقبة . يقول شارل اندري جوليان في كتابه « تاريخ شمال افريقيا » :

« عاش الاسبان طيلة فترة الاحتلال في حالة حصار ، وكان الجنود الاسبان يعانون حياة شاقة للغاية ، فأكلهم رديء ولا يقبضون مرتباتهم بانتظام . ان حامية وهران كانت تتمون بواسطة المور الحلفاء ، وكانت هذه الحامية كثيراً ما تنهب أغنام القبائل المجاورة . ورغم ذلك فهذه الحامية الاسبانية كانت كثيرا ما تتعرض للمجاعة » .

« وقد اثبت تحقيق رسمي اجرى في عنابة سنة ١٥٤٠ أن الجنود (الاسبان) كانوا

يريدون الدخول في الاسلام نظراً لحالة اليأس التي كانوا عليها » .

ويقول دي غرامون في وصف حالة الجنود الأسبان في المناطق الساحلية التي احلوها:

« كان الجنود يموتون جوعاً في وهران ، وفي عنابة لم يجد الجنود ما يشترون به سمكة سردين في حين أن السمك كان موجوداً بكثرة ، وفي بجاية لم يجدوا ما يأكلونه ، .. وقد أصبح الجنود يفرون من الجندية ليلتحقوا بالهند ، .. والتموين الذي يوزع على الجنود كان من الرداءة ، بحيث تسبب في مرض الجيش كله ... وتدل رسائل ووثائق رسمية على أن الحصون الأسبانية في تلك المواقع قد تخربت » .

« وكانت بجاية هي أكثر الموانىء تعرضاً للمحنة ، وهي أول ميناء استرجعه السكان من الأسبان .. فمنذ الأيام الأولى من الاحتلال حاصر القبائل المدينة حصاراً دائماً . ولم يغادر الاسبان المدينة إلا مرات قلائل ، وسرعان ما تخلوا عن محاولة الخروج لأن تلك المحاولات كانت تكلفهم غالياً . »

هـذا هو التفسير الصحيح الكامل . انه يتمثل في عنف المقاومة التي اصطدم بها الأسبان عندما حاولوا التوغل الى الداخل .

والعجب ان دي غرامون مثلاً بعد ان يسجل هذه الشهادات التي تؤكد ما نقول ، يحاول أن يرفع عدم مواصلة الأسبان تسربهم الى الداخل الى محض اختيارهم فهو يقول :

« ان حكومة اسبانيا التي كانت مشغولة بشؤون اخرى لم تواصل انتصاراتها . ، وكانت النتيجة التي لم تكن متوقعة لهـذا التخلي هي استقرار القوة التركية على الضفة الافريقية من البحر الأبيض المتوسط. » ونفس التناقض نلاحظ عند شارل أندري جوليان في شكل آخر .

في حين انه كان من الأسهل تسمية الأمور بأسمائها . ويقول « بول روف » في كتابه « السيطرة الأسبانية على وهران » .

« نعرف أسماء عائلات كبيرة مثل أولاد عبد الله ، وأولاد موسى ، وأولاد براهن أو براهيم ، وعائلة عبد الرحمن بن أسرور ، فهذه العائلات من النبلاء كانت تشتمل على

عدد كبير من الرعايا والخدم ، وكانت هذه العائلات الحليفة ، تزود سكان وهران بالمواد الغذائية ، وبالمواشي وبالفحم لكن الاعتماد عليها غير ممكن ، فقد كانت المواد التي تحتاجها الحامية أو حتى السكان المدينون (الأسبان) تستورد كلها تقريباً من أسبانيا » . (ص ١٥ و ١٦) .

ويقول المؤلف نفسه في مكان آخر من نفس الكتاب « وبما أن السلم لم تكن أبداً متينة ، والملك (أي حليف الاسبان ، الجزائري) لم يَفِ بالتزاماته بكيفية انتظامية ، وبما انه لم يكن في الامكان الاعتماد على المعونين العرب ، ولا على المحاصيل غير المنتظمة ، فقد كانت اسبانيا هي التي تواجه وتدفع حاجات المستعمرة ورسائل الحكام (الأسبان) مليئة بالمطالب المتعلقة بهذا الموضوع » . (ص – ٢٩) .

ان هذه الشهادة واضحة في تسجيل عنف وعمق المقاومة الشعبية التي اصطدم بها الأسبان في الجزائر ، وقد استمرت هذه المقاومة الشعبية التلقائية أزمنة طويلة بالرغم من أنها لم تجد من ينظمها ، بل كان الامراء والملوك يستغلون هذه المقاومة في خدمة مآربهم الخاصة . ولهذا لم تسفر هذه المقاومة عن نتيجة حاسمة ، الا يوم صمم باي الغرب ، بعد ذلك بأجيال عديدة ، على قذف الأسبان الى البحر ، وبعد أن فقد الأسبان تعاون بعض العملاء في المغرب العربي .

* * *

ان التاريخ يسجل بوضوح عنف العامل الديني في تصرفات الأسبان ، وقد كان رد الفعل الطبيعي للاسبان بعد انتصارهم على المسلمين في شبه الجزيرة هو مواصلة الغزو داخل تراب شمال افريقيا والقيام بحركة مد حقيقي داخل المغرب العربي .

ولا شك ان الأسبان كانت توجد عندهم هذه النية ، وانما ردهم عنها مقاومة الجزائريين وليس أي اعتبار آخر .

أما استقرار الاتراك في السواحل الجزائرية فلم يكن نتيجة لتخلي الأسبان عن مواصلة الزحف داخل الجزائر ، خلافاً لما يقوله دي غرامون وجوليان ، بل كان نتيجة لمحاولة

الأسبان التسرب الى الداخل .

لان الجزائريين في مقاوماتهم العنيفة للاسبان فضلوا الاستعانة بالاتراك لسد الطريق في وجه التسرب الأسباني .

* * *

هذا التفسير يعترف به فيكتور بيكي في كتابه حضارات شمال افريقيا فهو يقول ص ٢٠٥ ما يلي :

« ... ولعلهم لم يكونوا (أي العثمانيون) يفكرون في الاستيلاء على الممالك البربرية ، لو أن جرأة قراصنتهم لم تقدهم الى ذلك ، ولولا ان الظروف خدمت هؤلاء القراصنة الذين تمكنوا من الاستيلاء على بلد شاسع اشتهر بقوته في القديم . ذلك ان الفوضى التي طبعت الممالك البربرية الكبرى ، حكمت على تلك البلاد بالخنوع . ومن المؤكد أن القوات المسيحية وخصوصاً أسبانيا كانت ستستقر نهائياً في تلك السواحل التي كانت تطمع فيها من زمان بعيد لولا أنها اصطدمت بالقراصنة الأتراك » . فما يقوله بيكي واضح في تأكيد ما قدمناه ، وكل ما هناك هو أن فيكتور بيكي أغفل العنصر الشعبي في تفسير فشل محاولات الأسبان ، ذلك ان الأتراك لم يكونوا ليستقروا بالجزائر لولا تأييد السكان الجزائريين لهم وترحيبهم بهم ، مدفوعين الى ذلك بدافع العامل الديني المشترك الذي كان حينذاك من القوة بحيث غطى مؤقتاً على مساوىء الحكم التركي .

على ان القوات المسيحية لم تنقطع طيلة العهد التركي عن التفكير في الاستيلاء على بلاد المغرب العربي، وعلى هذا الأساس يعد الاحتلال الفرنسي بعد ذلك بثلاثة قرون استمراراً للمحاولات الاسبانية ثم الفرنسية الفاشلة كما يعترف بذلك بيكي عندما يقول :

« ان السيطرة التركية ستؤخر بثلاثة قرون فتح بلاد البربر في وجه التجارة (أي الغربية) » .

عروج وخير الدين

قرر محمد الفاتح بعد الاستيلاء على بيزنطة ، أن يضم تحت سلطنته جزر بحر ايجه التي

كانت بأيدي المسيحيين والتي كان يخشى أن تستعمل لعرقلة تحركات أساطيله .

ومن بين الجزر التي استولى عليها الأتراك في حملتهم ببحر إيجه ، جزيرة مدلي في سنة ١٤٥٧ م. ولكي يثبت قدم الأتراك في تلك المنطقة ، أمر السلطان العثماني طائفة من جنده بأن تستقر نهائياً في جزيرة مدلي . وعندما اعترض الجنود بأنهم لا يمكن أن يستقروا هناك بدون زواج ، أذن لهم في التزوج من المسيحيات .

من بين هؤلاء الجنود كان يوجد جندي اسمه يعقوب وهو شاب من الرُّوميلي .

وتذكر الجندي يعقوب أن مهنته قبل الدخول في الجندية كانت تتمثل في صنع أواني الخزف . فاستأنف هذه المهنة ، وأثناء مباشرته لها تعرف على أيم مسيحية تدعى كاتالينا فتزوجها وكان له منها أبناء أربع هم : الياس وإسحاق وعروج والخضر . كبر الأولاد الأربع على شاطىء البحر ، فتدربوا على ألعابه ولا شك أنهم كانوا يمارسون ألعاب القرصنة التي كانت تمثل الشكل الشائع من أشكال البطولة في منطقة يحيط بها البحر من كل ناحية .

ولمع الخضر بين رفاقه واشتهر بحب البحر وبدأ منذ الصغر يتوق الى المغامرات ، كما كان يظهر ذلك من خلال نهمه الى استماع أقاصيص الحرب ، وحكايات المعارك التي تدور بين القراصنة وسط البحار ، ولم يكن عروج – وهو أكبر منه– يقل عنه تعلقاً بأحاديث المغامرات وحكايات القرصنة .

* * *

ازدهرت صناعة يعقوب الخزفية ، فرأى ان يتوسع فيها بشراء سفينة تحمل الأواني التي يصنعها إلى الجزر القريبة من جزيرة مدلي ، وأسند مهمة قيادة السفينة إلى اثنين من أبنائه ، هما عروج والياس ، وكلف الخضر واسحاق بالتفرغ لصناعة الخزف ، وقد تعمد يعقوب هذا التقسيم تنفيذاً للحكمة القديمة التي تعلمها في الجيش والقائلة بوجوب الجمع بين الاندفاع والتروي ، ولما كان كل من عروج والخضر قد اشتهروا بالاندفاع ، فقد فصل بينهما ووضع بجنب كل منهما أخاه الذي اشتهر بالتروي ، (وعندما لمع اسم الأخوين

اشتهر الخضر باسم خير الدين) واستمر الاخوة يعملون حسب النظام الذي خطه أبوهم : عروج والياس يتوليان قيادة السفينة التي تحمل البضاعة إلى الشواطىء القريبة، بينما يتفرغ خير الدين واسحاق لصنع الفخار .

ومع مرور الأيام ازدهرت صناعة أبنـاء يعقوب ، وراجت بضاعتهم مما أثار الغيرة منهم .

وذات يوم رأى خير الدين السفينة وقد عادت في حـالة يرثى لها كما شاهد أثار تحطيم البضاعة ، أما أخواه فقد كانا مثخنين بالجروح : لقد تعرضا لهجوم .

وكان عروج يغـلي من الغضب وأقسم أن لا يقر له قرار إلا يوم ينتقم من أعدائه ، وبمجرد ما انتهى عروج من اصلاح سفينته ركب البحر صحبـة الياس ورفاق له آخرين واشتبك مع أعدائه في معركتين انتصر في كليهما ، وهـدأ غضب عروج بما ذاقه من طعم الانتصار ، لكن حب المغامرة ازداد عنده قوة بما تحصل عليه من غنائم .

وفي مرة ثالثة واجه عروج عدداً أقوى من الاعـداء تمكنوا من قتل أخيه الياس ، وجرح عروج الذي وقع في الأسر وبيع في جزيرة رودس عبداً لاثنين من عظماء المدينة .

أثر هذا النبأ في قلب خير الدين تأثيراً بالغاً، وقرر أن يجمع بأسرع ما يمكن قدراً من المال يستطيع به أن يشتري حرية أخيه .

وجمع بالفعل مبلغاً هاماً من المال ، وكلف تاجراً من الافرنج بدفع المبلغ الى مالـكي أخيه واستخلاصه منها . ولئن كان أحد المالكين قد أظهر استعداداً وتفهماً لعتقـه في مقابل ، فان المالك الآخر كابر في الأمر ، واشترى النصف الآخر من صـاحبه ، وأصبح عروج ملكاً لشخص واحـد فقط ، وكان هذا المالك يطمع أن يستخلص من أخيه مبلغاً من المال أهم وأضخم ، ولذلك كبله في القيد وقذف به في ظلمات السجن ، ثم عينه مع الأسرى المكلفين بتجذيف سفينة كانت تقل جمعاً من الأسرى المسلمين افتداهم قرقود أخو السلطان سليم الأول، واغتنم عروج فرصة قيام رياح عاتية ففر من السفينة ، واستقر

في مدينة اضالية حيث تعرف على رجل اسمه « علي رايس » له جفن فجعله رفيقاً له ، وذهب معه الى مصر ، حيث أسندت لهم مهمة قيادة مراكب بحرية مخصصة لنقل الخشب اللازم لصنع السفن ، لكن اصطدم بقراصنة جنوة الذين أحرقوا مراكبه ، فعاد الى اضالية حيث استقبله قرقود خان وأعطاه مركباً .

وفي تلك الاثناء كان خير الدين يتحين الفرصة المؤاتية لهجرة صناعة الفخار والارتماء في أحضان المغامرة ، ووجدت هذه الفرصة عندما اندلعت نار الحرب بين السلطان سليم الأول وأخيه قرقود خان ، فالتحق خير الدين بصفوف سليم الأول . وبعد ذلك التقى بأخيه في جزيرة « جربة » (تونس) . وهناك أدرك الأخوان أن بلاد المغرب تشبع نهمها إلى المغامرات ، بأكثر مما تستطيعه بلاد المشرق ، فالتحقا بتونس ووضعا أنفسهما تحت تصرف السلطان محمد الحفصي .

* * *

الاتصال بمأساة الأندلس

في تونس استطاع عروج وخير الدين أن يتعرفا على مظهر من المظاهر الفاجعة التي خلفها ضياع الأندلس : جموع المسلمين الفارين من شبه الجزيرة بأنفسهم ودينهم ، وما ينقلونه لأبناء المغرب من مآسي وفواجع ، وفي هذا الصدد يقول أكرم رشيد في كتابه عن خير الدين انه التقى ذات ليلة بفتاة جاءت من ضواحي غرناطة ، روت له كيف هجم عليهم الاسبان ، وكيف ذبحوا أباها وقتلوا الصغار ، وكيف نجت هي بأعجوبة بسبب أمها التي حملتها إلى أقرب شاطىء الخ ... وليس المهم أن تكون جزئيات هذه الحكاية صحيحة ، ولكن المهم هو أنها تكشف عن شيء ممكن حدوثه ، بل الغريب أن لا يكون قد حدث ، فالفارون من الأندلس إلى بلاد المغرب العربي في ذلك العهد كثر لا يحصون عداً ، وكل منهم يحمل معه حكاية مأساة وقصة فاجعة ، فليس من المستبعد أن تكون هذه الحكايات المتواردة عن الأعمال الوحشية التي يرتكبها الاسبان ضد المسلمين ، قد أعانت على رسم الطريق التي اختارها عروج وخير الدين فيما بعد ، وشكلت حب المغامرة عندهما بشكل معين يتمثل في العمل على إنقاذ من بقي من المسلمين في شبه

الجزيرة ، واستخلاصهم من براثن النصارى .

وفعلاً فان الأعمال التي قام بها عروج وخير الدين فيهذا الميدان أكسبتهما سمعة كبيرة، ولم يمر وقت طويل على استقرارهما بأرض المغرب العربي ، حتى أصبح اسمهما يتردد في سواحل وموانىء البحر الأبيض المتوسط ، ممزوجاً بشيء من الخوف والاعجاب. وبلغت هذه الشهرة ذروتها عندما تمكن الشقيقان من الاستيلاء على مركب ضخم كان يوجد فوقه ثلاثمائة رجل ، من بينهم أميران اسبانيان كانا في طريقهما إلى اسبانيا عائدين من نابولي ، وكانت معركة رهيبة جرح فيها عروج وخرج منها منتصراً .

ورغم أن الروايات التاريخيــــة تختلف في تقدير عدد المسلمين الذين تمكن عروج وخير الدين من انقاذهم من براثن الاسبان ، فأن أكثر الروايات اعتدالاً تقدر هذا العدد بستة آلاف ، ومن الروايات من ترتفع به إلى عشرة آلاف .

* * *

سبقت هذه السمعة عروج وخير الدين إلى غير مكان واحد من أنحاء المغرب العربي .

ولذلك فكر أبناء بجاية في الاستنجاد بهما ليعيناهم على طرد الجيش الاسباني المحتل ، وكان ذلك في سنة ١٥١٢ م. التحق عروج وخير الدين بنواحي بجاية واستقرا قريباً منها ليحصلا على المعلومات الكافية التي تمكنهما من اعداد خطة محكمة لطرد الاسبان .

وعندما اقترب عروج وخير الدين من بجاية ظهرت أمامهما خمس عشرة باخرة حربيــة اسبانية فتظاهر خير الدين بالفرار فأسرعت المراكب الاسبانية وراءه تريد اللحاق بــه . وعندما ابتعد خير الدين عن الميناء وتوغل في البحر ، حــدد من سرعة مراكبه الى ان ادركته الأسبانية التي لم تتمكن الا من توجيه الطلقات الاولى من مدفعيتهـــا : ذلك ان عروج وخير الدين لم يتركا لها الفرصة الكافية لتوجيه الموجة الثانيـــة من الطلقات : فقد تمكن عروج من اغراق باخرة من بواخر العدو ، في الوقت الذي كان فيه خير الدين يحتل باخرة أخرى .. وسقط في يده بقية البواخر وسادها الفزع وعادت مسرعة الى بجاية .

هنا تقول احدى الروايات التاريخية ، وهي من مصدر تركي – ان خير الدين وعروج

اختلفا في الخطة التي يجب اتباعها بعد ذلك . فقد كان خير الدين يرى التوقف عند هـذا الحد ، والاكتفاء ببث الهلع في صفوف الاسبان ، وتحين فرصة اخرى لطردهم نهائياً من بجاية ، بينما كان يرى عروج ضرورة مواصلة المعركة الى مداها . وواصلها بالفعل ، لكنه — أي عروج — عندما اقترب من مدينة بجاية أصيب من ذراعه برميـة وجهت له من أعلى الحصن الذي أراد احتلاله ، فأرسل له خـير الدين جمعاً من رجاله أتوا به فاقـد الادراك . وعندما شاهده الأطباء حكموا بقطع ذراعه ، وقطعوها بالفعل .

تمكن عروج وخير الدين من بناء خمسة مراكب خلال العامين اللذين انقضيا على هزيمة بجاية وكانا يفكران في هذه الآونة في ايجاد مركز تكون لهما السيادة فيه ، لانهما استشعرا ان سلطان تونس بدأ يضيق ذرعاً بشهرتهما التي خشي منها ان تهدد سلطانـه ، مما حمل خير الدين على التفكير في خوض معركة جديدة من اجل استرجاع احدى مدن الساحل تكون فيها السيادة خالصة له ولأخيه ، ووقع الاختيار على مدينة جيجل التي كانت تحت نير أهل جينوة الايطاليين .

وقد استخلص خير الدين العبرة من فشل هجومه على بجاية ، فأعد لهذا الهجوم عدته واتخذ احتياطه فراسل أعيان مدينة جيجل وطلب منهم أن يكونوا على استعداد لاعانته عندما يهاجم الحصن . وتناقل الأعيان ومسؤولو القبائل قرب جيجل هذا النبأ واستعدوا لخوض معركة فاصلة ضد الاجنبي المحتل .

وتقدم خير الدين في اليوم المعين على رأس فرقة تضخمت على الأخص بعرب الجزائر ، وما كادت هذه الفرق تقترب حتى انسحب الحاكم الأجنبي ، مـا شأن دي فانتيرا الى الحصن واستعد لمواجهة الحصار ، ونصب مدفعيته لرد الهجوم ، لكن الفرق الجزائريـة التي هبت من كل ناحية لاعانة خير الدين جعلت دي فانتـيرا ييأس من امكانية الثبات في وجه هذا الهجوم : وفعلاً فلم يمر يومان على بدء الحصار حتى دخلت الفرق على رأسهـا خير الدين الى مدينة جيجل .

ويبدو حسب الرواية التركية أن عروج لم يتعظ من فشل الهجوم الأول على بجـاية ، فطالب بالهجوم عاجلاً عليها مرة ثانية فور الدخول الى جيجـل وبعد مبايعة قبيلة كنامة

له أميراً عليها ، يحدوه في ذلك دافع الانتقام من الفشل السابق ويقال ان خير الدين نزل عند رغبة أخيه لأنه كان أيضاً يرغب في مسح عـار الهزيمة السابقة ، من جهة ، ولأنه من جهة ثانية كان مجبراً على ذلك لتشغيل الجماهير التي أيدته والتي كانت تطالب بمزيـــد من المعارك لتطهير الأرض من الاجانب المسيحيين .

وسار عروج على رأس عشرين الف من كتامة إلى بجاية وحاصرها ، لكنه لم يستطع فتحها ، وكان ذلـك في شهر أوت ١٥١٤ م . وفي ربيـع ١٥١٥ أعاد عليها الهجوم مرة ثالثة مستعيناً بوحدات من أسطوله البحري سارت في خط موازٍ لمسير الجيش الـبري ، عن طريق الوادي الكبير ، أي القسم الصالح للملاحة منه ، وأمده في هذه المرة أمـير قلعة بني عباس عبد العزيز الحفصي وأحمد بن القاضي الملقب «بفطوش » الذي كان قبل ذلك قاضياً ببجاية ، ثم أسس في سنة ١٥١٥ م. بجبل « كوكو » من جبال زواوة .

ودام حصار بجاية ثلاثة أشهر،وتقول رواية تركية انه دام أربعة وعشرين يوماً فقط ، ونحن نرجح الرواية الأولى لما سنراه بعد .

وفي هذه المدة فرغ البارود على المسلمين فوجهوا رسلاً إلى سلطان تونس يطلبون اعانة، لكن سلطان تونس – حسب الرواية التركية – رفض إعانة خير الدين وأخيه فقـد بدأ يتضايق من اتساع نطاق شهرتهما ، وخشي ان هما استوليا على بجاية بعـد جيجل أن يدفعهما ذلك إلى التفكير في الاستيلاء على تونس ، وليس من المستغرب أن يحسب سلطان تونس هذا الحساب بناء على النزعات السابقة بين مناطق الشرق الجزائري وتونس ، بـــل ان سلطان تونس رآها فرصة سانحة للتخلص من خير الدين وأخيه عروج ، وظن انهـــا النهاية بالنسبة لهما . وبلغ هذا النبأ الجموع التي كانت تحاصر بجاية ، فأثر في معنوياتهـــا وحدث في الوقت نفسه ان وجه الاسبان مدداً قوياً لفك الحصار عن حاميتهم ، فلم يجد خير الدين بدا من رفع الحصار ، لكن ماء الواد الكبير كان قد جف عما كان عليه قبـلا نظرا لنقص الامطار ، فلم يتمكن من استصحاب سفنه ، فأحرقها ، وعاد خير الدين الى حلق الواد في تونس بينما استقر عروج في مدينة جيجل . وقد رجحنا ان يكون الحصار على بجاية قد دام هذه المرة ثلاثة أشهر ، لأن كل الروايات تجمع على ان ماء النهر قد جف بالنسبة لما كان عليه قبلا ، بحيث لم يتمكن خير الدين من استصحاب سفنه فأحرقهـا ،

ويبدو ان مدة اربعة وعشرين يوماً غير كافية لأن تخـف فيها مياه النهر بهذا القدر الكبير .

بعد ان رجع عروج الى مدينة جيجل ارسل له السلطان سليم الاول اربـع عشرة باخرة مشحونة بالبحريين ، فأخذ عروج يهاجم المراكب في سواحل الاندلس وايطاليـا التابعة لدولة اسبانيا . ولم تمض مدة يسيرة حتى اصبحت قوافـل كثيرة من مراكب الاسبانيين والايطاليين تحت قبضة عروج يعزز بها اسطوله وهيمنته على قسم من حوض البحر الابيض المتوسط .

وشرع عروج يفكر في الذهاب الى مصر واستلامهـا من ايدي المماليك ، لكن استنفاراً تلقاه من اهل مدينـة الجزائر الذين استغاثوه على الاسبانيـين جعله يغير تفكيره .

ويمكن القول بأن ذلك كان بداية مرحلة جديدة في تاريخ الجزائر وفي تاريـخ عروج وخير الدين .

الباب الثاني

الاتراك في الجزائر

- مدينة الجزائر .
- فشل أول هجوم اسباني على مدينة الجزائر.
- التوجه الى تلمسان .
- مقتل عروج .
- ستراتيجية خير الدين .
- سقوط برج الفنار .
- المسيرة إلى تونس .
- تدخل شارلكان في تونس .

الاتراك في مدينة الجزائر

كانت مدينة الجزائر تدعى في عهد البربر باسم « أرجيل » ومعناها المكان المغطى او العميق ، وقد عرفت في عهد اليونان باسم يوناني هو « اقسيون » وهي كلمة مشتقة من الكلمة اليونانية « ايقوسي » وهي تعني « عشرين » وقد اطلق عليها اليونانيون هذا الاسم بسبب الجزر والصخور العشرين التي كانت موجودة عند مدخلها .

وتقول اسطورة يونانية ان اسم « اقسيون » مرجعه الى ان عشرين من رفاق هرقل انفصلوا عنه عندما اراد ان يمتطي البحر عائداً الى اليونان ، واستقروا في هذه المنطقة التي ابحر منها هرقل ، وهي مكان مدينة الجزائر ، ولما لم ينجح أي احد منهم في اقناع الآخرين باطلاق اسمه على هذا المكان سموه برقم عشرين الذي هو عددهم .

وبعد ذلك حول الرومان هذا الاسم الى « اقسيوم » حسبما تقتضيه اللهجة اللاتينية .

وفي هذا المكان استقرت خلال القرن الثامن الميلادي قبيلة مزغنة المتفرعة عن صنهاجة التي كانت تحتل المناطق البحرية الممتدة من القبائل الكبرى الى مصب نهر الشلف .

وتطور العمران شيئاً فشيئاً بمدينة اقسيوم التي اصبحت بعد استيطان قبيلة مزغنة بها تدعى « جزائر بني مزغنة » وتطورت التسمية بعد ذلك الى أن اصبحت تدعى « الجزائر » .

ومع تطور العمران بمدينة الجزائر اصبحت لها علاقات تجارية مع مختلف النقط الساحلية القريبة الى اسبانيا .

وقد بدأت مدينة الجزائر تشتهر في عهد بلقين بن زيري الذي عمل على تجميلها فبنى بها عدة مبان ذات هندسة جميلة نجد وصفها عند المؤرخ « البكري » الذي اعجب بها أي اعجاب .

وقد تردد اسم الجزائر مع الاحداث والتطورات السياسية التي توالت على الجزائر في عهود مختلفة ، كما يستطيع أن يتبين القارىء ذلك من مطالعة الجزئين السابقين .

* * *

لسنا في حاجة الى التفكير بما سلف في الجزء الثاني من تقهقر الممالك البربرية مما مكن الاجانب من الاستيلاء على بعض النقاط الساحلية ، وجعل الاسبان يطمعون في القيام بحركة مد حقيقية الى داخل بلاد المغرب . ففي تلك الفترة كان المغرب الاوسط (الجزائر) قد خرج عن طاعة ملوك تلمسان فلم يبق تحت ايديهم الا العاصمة تلمسان ، وشطر الجزائر الغربي ، على ان هذا الذي تبقى من مملكة تلمسان قد تسرب اليه الخلل واصبح عرضة للمطامع الاجنبية .

اما باقي القطر الجزائري فقد تجزأ الى دويلات وامارات صغيرة ، وأصبح عبارة عن مجموعات من الدويلات المستقلة لا تفصل بينها حدود متميزة قارة ، ولا تربط بينها وحدة نظامية تجعل منها قوة سياسية وعسكرية ذات بال .

وقد لعب انتشار الطرق الصوفية وما حازوه من أراض أصبحت تحت نوع من الحكم السياسي المستقل، دوراً كبيراً في التمهيد لهذه التجربة فقد تجمعت واحات فيقيق وكونت دولة مستقلة ، ودبرت قبائل الونشريس أمرها كما أرادت ، وخضعت أراضي زواوة للملك كوكو (وهي قرية تبعد ٨ كيلومترات شرقي ميشلي) وبسط شيخ قسنطينة الحفصي نفوذه على المنطقة الواقعة بين عنابة والقل ، وأصبح الزاب والحضنة حصناً للذواودة ، وتأسست بتقرت مملكة بسطت سلطانها على وادي ريغ .

أما الموانىء فأصبحت نقط انطلاق للغزاة يهجمون منها على المراكز المسيحية والاسبانية على الأخص بعد ضياع الأندلس : فلم يكن مقصد القراصنة الذين استقروا في الجزائر وتونس وبنزرت ووهران وحنينه هو السلب والنهب ، ولكن هو الجهاد الديني، فمدينة بجاية مثلاً كانت تطلب فدية مقابل اطلاق سراح النصارى، يستحيل على المأسورين أو على عائلاتهم أداؤها نظراً لارتفاعها الفاحش .

وقد تغير ميزان القوى بعض الشيء في حوض البحر الأبيض المتوسط بعد سلسلة

الانتصارات التي احرز عليها الاسبان عندما احتلوا مرسي الكبير في ١٥٠٥م . ثم وهران سنة ١٥٠٩ ثم بجاية في جانفي ١٥١٠ م وطرابلس في جويليـه ١٥١٠ ، أما الموانىء التي لم يحتلها الأسبان مثل تنس وشرشال ودللس ومستغانم ، فان سلطاتهـا قد عرضت عـلى الأسبان أن تدفع لهم ضريبة اتقاء لشرهم .

أما مدينة الجزائر فقد سلمت الى الاسبان أحد جزرها الواقعة في مدخل الميناء ، وفي هذه الجزيرة بنى « بيدرونافارو » أحد القراصنة الأسبان حصناً نصب به المدافع الموجهة أفواهها الى المدينة الواقعة على بعد ثلاثمائة متر ، وكان هـذا الحصن مصدر اعتداءات مستمرة ضد سكان المدينة ، كما كان بمثابة سيف ديموقليس يتهددها في كل آونة .

ولتفسير قصة تسليم هذه الجزيرة إلى بيدرونافارو يجب أن نرجع قليلاً إلى الوراء إلى سنة ١٤٣٨ م ، عندما اغتال سكان الجزائر ملكهم الجديد ، ووضعوا أنفسهم تحت حماية الثعالبة الذين كانوا يحتلون القسم الاكبر من سهول المتيجة . ففي ذلك الحين أقامت مدينة الجزائر نوعاً من الادارة البلدية ، أو نظام الجماعة ، وكان أول رئيس جماعة باشر تسيير شؤون المدينة هو الشيخ عبد الرحمن الثعالبي .

لكن بعد موت الشيخ عبدالرحمن الثعالبي ، انتقلت السلطة من الثعالبية الى منافسيهم أولاد سالم ، وقد كانت ادارة أولاد سالم شديدة الوطأة على سكان مدينـة الجزائر الى درجة أنهم فكروا في استجلاب الأسبان على أمل أن يقف الاسبان عند حدود الجزيرة ، فيتقوا بذلك شرهم ويتجنبوا احتلالهم للمدينة ، وعلى أمل أن يكون ذلك كافياً في تخفيف وطأة حكم أولاد سالم المتمثل في الشيخ سالم التومي الذي كان يحكم مدينة الجزائر حكماً استبدادياً قاسياً .

لكن هذا الأمل لم يتحقق : فقد استمر الشيخ سالم التومي يقبض على المدينة بيد من حديد . بل لقد انضاف الى حكمه القاسي ، تهديد مستمر للمدينـة من طرف الحصن الاسباني المواجه للميناء .

حينذاك فكر سكان الجزائر في حيلة للتخلص من الشيخ سالم التومي فراسلوا عروج يستنجدونه ويعلنون له عزمهم على تسليمه قيادة الجهاد ، لكن سالم التومي عارضهم في

ذلك ، لأنه كان يعرف أن ذلك يعني نهاية حكمه ، إلا أنه اضطر الى القبول في نهاية الأمر تحت ضغط الرأي العام الذي كان يطالب بطرد المسيحيين وتخليص المدينة من تهديد الاسبان .

* * *

كان عروج في مدينة جيجل عندما بلغه طلب سكان الجزائر ؛ آنذاك تحول بتفكيره عن احتلال مصر ، ورأى أن الفرصة سنحت وأن الظروف تهيأت لاقامة حكم جديد في الجزائر يكون خالصاً له ولأخيه . فراسل في الحين أخاه خير الدين الذي كان يتجول في البحار على رأس اسطوله الذي يشتمل على ثمانية عشر جفناً وثلاث بواخر حربية ، وطلب منه أن يلحق به إلى مدينة الجزائر ، وتوجه عروج عن طريق البر مع ثمانمائة تركي ، وراح يجند في طريقه القبائل الجزائرية التي أمده بها عبد العزيز وأحمد بن القاضي ، وكان عدد هؤلاء الجنود حوالي الخمسة آلاف حسبما أكده دي غرامون .

توجه عروج الى ميناء شرشال أولاً ، وكان بها يومئذ تركي اسمه قارة حسن يشتغل بالقرصنة مع طائفة من مهاجري مسلمي الأندلس ، وعندما سمع قارة حسن بمسيرة عروج قصد اليه وعرض عليه الاعتراف بسلطنته ، لكن عروج لم يكن يتحمل وجود منافس إلى جانبه فقطع رأسه .

وبدأت خطة عروج تتضح شيئاً فشيئاً : انه يود التخلص من كل من يشك في مقدرته على الوقوف في وجهه كما يؤكد ذلك تخلصه من قارة حسن بعد تخلصه من سلطان كوكو ونجاحه في الحيلولة دون أن تتفق ضده كلمة سلطان كوكو مع كلمة سلطان بني عباس ، وكما تؤكد ذلك الحوادث التي سنوردها فيما بعد .

* * *

عندما دخل عروج الى الجزائر استقبله الشيخ سالم التومي وسكان المدينة استقبال الفاتحين ، وسارع عروج بنصب عدد من المدافع تجاه المعقل الاسباني ، وبعث إلى قائد الحامية الاسبانية يأمره بالاستسلام ، لكن القائد الاسباني رفض الاستسلام ، فأطلق

عروج نيران مدفعيته على المعقل الاسباني ، إلا أن ضعف مدفعيته لم تمكنه من تحقيق الانتصار المنتظر .

وقد أدى هذا الفشل غير المتوقع إلى النيل من سمعة عروج والأتراك، فسقطت هيبتهم في أعين سكان الجزائر ، يضاف إلى ذلك أن سكان ميناء الجزائر بدأوا يتضجرون من تصرفات الأتراك الذين كانوا يعاملون الجزائريين معاملة فضة . وبدأت تظهر بوادر التمرد ضد عروج والجند التركي ، وكاد أن يتحقق الحلف بين الثعالبة وبين الشيخ سالم التومي وبين سكان الجزائر وبين المعقل الأسباني للتخلص من الأتراك . إلا أن عروج استروح رياح التمرد ، فبادر بخنقه في المهد ، وذهب بنفسه الى منزل سالم التومي وقتله بيده في الحمام حيث وجده ، وخرج على جنده وأعلن نفسه سلطاناً على الجزائر .

وانتشر الجنود الأتراك في المدينة يعيثون فساداً ، كما هجموا على الأرباض والأحواز المحيطة بالمدينة ، مما ضاعف سخط السكان ضد عروج ، ففكروا في الاستنجاد بالأسبان عن طريق حاكم معقل الجزيرة المواجهة لمدينة الجزائر ؛ وفي ذلك الحين ذهب ابن الأمير المقتول إلى اسبانيا يستنجدها ضد عروج الذي يعتبره مغتصباً للعرش وأيد سكان الجزائر في المطلب كل من شيخ تنس وحاكم وهران . وفي هذه الأثناء كان عروج يوالي قصف معقل الجزيرة بمدفعيته ، لكن من غير أن يجبره على الاستسلام ، لأن المعقل رغم انقطاع التموين عنه من مدينة الجزائر ، كان يتزود من جزر الباليار .

فشل أول هجوم اسباني على مدينة الجزائر

وفي سبتمبر ١٥١٦ قرر الكاردينال كسيماناس ارسال قوة بحرية إلى ميناء الجزائر ، مؤلفة من خمسة وثلاثين مركباً تحمل ثلاثة آلاف رجل بقيادة دييغودي فيرا . ونزل جنود اسبانيا يوم ٣٠ ديسمبر بناحية باب الواد شرقي وادي مغاسل قريباً من المكان الذي بني فيه حصن باب عزون بعد ذلك .

وقرر الجنرال نيقولا دي كان أن يقذف بكامل جنده في المعركة ، واحتل خطاً هجومياً طويلاً يمتد من الساحل إلى المكان الذي ارتفع فوقه بعد ذلك حصن القصبة .

ولم يرد عروج أن يقابلهم في اليوم الأول ، ولم يمر يومان على نزول الأسبان حتى تغير مجرى الريح إلى الناحية الشرقيـــة ، فأصبح أسطول اسبانيا في خطر ، فلم يجد دييغو دي فيرا بدأ من اصدار الأمر بالعودة الى الأسطول. لكن ما كاد الأميرال الاسباني يعطي الأمر بالانسحاب الى الأسطول ، حتى فتح عروج أبواب المدينة وخرج منها مهاجماً الاسبان . وفي نفس الوقت قرر أعراب بني سالم الذين كان الاسبان معتمدين على إعانتهم ، قرروا تعزيز صف عروج فهاجموا الأسبان بدورهم وفتكوا بهم ، ولم ينج من الاسبان إلا نحو الألف جندي ، أما المراكب البحرية فقد أتلفت الزوبعة نصفها .

ويبدو ان عدة عوامل اجتمعت على فشل هـــذا الهجوم الاسباني ، وان الفضل في انتصار عروج لا يرجع فقط الى خبرته الحربية وحنكته كما تصور ذلك الرواية التركيـة ذلك أن الاسبان كانوا يعتمدون على اعانة أعراب سالم داخل مديـنة الجزائر ، وعلى إعانة شيخ تنس مولاي أبو عبد الله الذي كان قـد اتصل بحاكم وهران الأسباني وقطع له عهداً بأن يمده باعانة فعالة . لكن لا أعراب سالم ولا شيخ تنس بذلوا للاسبان الاعانـة التي كانوا ينتظرونها . ومن هنا سهل على عروج ان يلحق الهزيمة بالاسبان .

أما خير الدين فقد كان بمدينة جيجل عندما بلغه نبأ هذا الانتصار ، فسار على رأس عشرة مراكب إلى مدينة الجزائر ، وانضمت قواتـه الى أخيه ، وعزما على مهاجمة تنس انتقاماً من شيخها الذي وعد باعانة الاسبان .

وفعلاً ســار عروج في جوان ١٥١٧ على رأس الف وخمسمائـــة جندي من الاتراك ومهاجري غرناطة وبلنسية وعدد هام من الجنود البرابرة ، وترك اخـــاه خير الدين في مدينة الجزائر .

واستولى عروج على المدية ومليانة ، وبينما استولى أخوه خير الدين على دللس ونواحيها. وبالقرب من البليدة لقي عروج شيخ تنس على رأس قوات كبيرة فنشبت بينهما معركة حامية الوطيس كان النصر فيها إلى جانب عروج الذي راح يتتبع فلول المنهزمين إلى أن دخل وراءهم تنس .

التوجه الى تلمسان

وفي تلك الأثناء حدثت قلاقل شديدة بتلمسان حيث سجن الأمير أبو حمو الثالث ابن أخيه أبا زيان الأمير المتوفي ، واعترف أبو حمو بحماية الاسبان لبلده ، وقدم ولاءه إلى اسبانيا ، وأيدته الحامية الاسبانية بوهران ، فشكل أعيان تلمسان وفدا أرسلوه إلى عروج يستنجدونه باسم الاسلام ضد أبو حمو الثالث الذي رضي بالتحالف مع الاسبان ؛ وكان ابن أخيه ، أبو زيان قد تزعم حركة السخط ضد عمه أبو حمو ، وراسل عروج من سجنه .

وسافر عروج إلى تلمسان براً اتقاء للاسطول الاسباني وترك وراءه لحفظ خط رجعته ستمائة تركي بقلعة بني رشاد ، وقد انفتحت أمامه أبواب أمل جديدة في توسيع نطاق سلطنته ، وراودته احلام عديدة بإقامة مملكة واسعة ، وانضم اليه خلال مسيرته عدد كبير من السكان كانوا ناقمين على تحالف أبي حمو مع الاسبان .

ولما بلغ نبأ سير عروج إلى تلمسان ، التجأ أبو حمو الثالث إلى فاس ثم إلى الحامية الاسبانية بوهران بعد أن انهزمت جيوشه ، وأخرج التلمسانيون أبا زيان من السجن ونصبوه أميراً ، وعندما دخل عروج تلمسان استقبله أهلها استقبال المنقذين .

إلا أن الجند التركي أغلظ في معاملة أهل تلمسان ، وراح عروج يتصرف في تلمسان تصرف الفاتحين ، مما جعل أهل تلمسان يندمون على الاستنجاد بعروج .

فشكى أبو زيان ذلك إلى عروج ، فما كان من عروج إلا أن أمر بشنق أبي زيان على واجهة قصره ، ويقال ان عروج لم يكتف بذلك وانه أغرق في صهريج هنالك سبعين شخصاً من أسرة أبي زيان ، وأن الجنود الأتراك قتلوا نخبة من أهل المدينة .

وفرض عروج في نفس الوقت على قبائل بني عامر وبني سناسن أن يدفعوا له الضرائب حبوباً حتى يتمكن من تموين جيشه لأنه كان يتوقع حصاراً يفرضه عليه الأسبان وأبو حمو . كما أرسل إلى سلطان فاس يعرض عليه التحالف حتى يدعم موقفه ازاء الاسبان وأبي حمو . ويقول المؤرخون الاسبان ان عروج أبرم بالفعل معاهدة مع سلطان

فاس ، وأن هذا الأخير كان في الطريق إلى تلمسان على رأس جيشه لانجاد عروج لكنه اتصل بنبأ مقتل عروج في الطريق .

ويشك دي غرامون في قيمة هذه الرواية ويرى انه لم يكن من مصلحة سلطان فاس ان يعزز جانب قائد مثل عروج قد ينقلب عليه ، خصوصاً بعدما شاهد من تصرفه في الجزائر وتنس وتلمسان . ويقول دي غرامون ، اني لا أفهم سلوك هذا الحليف (سلطان فاس) الذي ترك الأتراك محاصرين من طرف الاسبان طيلة ستة أشهر بينما كان على بعد خطوات منهم .

ومن أجل هذا يستبعد دي غرامون أن تكون هناك معاهدة بين عروج وسلطان فاس ، ويقول : لعله كان هناك مشروع معاهدة عرضه عروج ورفضه سلطان فاس .

ويبدو لنا أنه يمكن تفسير سلوك سلطان فاس حتى مع القول بإبرام المعاهدة حسبما يقول المؤرخون الاسبان .

ذلك أن سلطان فاس عندما راسله عروج يعرض عليه المعاهدة ، وجد نفسه في موقف حرج : أما أن يقبل ويتخذ الموقف الذي ترفضه المعاهدة ، وبذلك يرسل قواته لتعزز عروج وتثني الاسبان عن حصار تلمسان ، وحينذاك يتعرض لخطرين : سخط الاسبان وتدعيم سلطان عروج الذي قد يتلقفه كما تلقف سلاطين آخرين كانوا حلفاء له ؛ واما أن يرفض سلطان فاس عرض عروج رفضاً صريحاً ، وحينذاك يتعرض لنقمته في حالة انتصاره على الاسبان .

وليس من المستبعد أن يكون سلطان فاس قد اتخذ موقفاً ذا وجهين لتجنب الخطرين كليهما : فتظاهر من جهة بقبول المعاهدة وباستعداده لارسال العدد إلى عروج ليأمن جانبه مؤقتاً ، وتباطأ من جهة أخرى في ارسال هذا العدد إلى أن يرى لفائدة من يكون رجحان كفة النصر فيحدد موقفه النهائي على ضوء ميزان القوى الجديد .

وحسب هذا الاستنتاج يكون سلطان فاس قد تجنب كلا الخطرين فلم يثر عليه سخط الاسبان وتخلص من عروج . ويؤكد هذا الاستنتاج ان أباحمو ، سلطان تلمسان المتحالف

مع الاسبان فكان قد استقر بفاس قبل التحاقه بوهران . وقد ارسل أبو حمو الاسبان من مدينة فاس فاذا اخذنا هذا بعين الاعتبار مع المعاهدة التي يقول المؤرخون الاسبان ان سلطان فاس عقدها مع عروج ، تبينت لنا كيفية اللعب على حبلين الذي سلكه سلطان فاس .

مقتل عروج

وفعلاً فقد حدث ما توقعه عروج من محاصرة الاسبان له فقد تمكن حاكم وهران الاسباني من اقناع حكومته بضرورة ارسال جيش قوي يعد عشرة آلاف جندي لاسترجاع مملكة تلمسان .

وقد عزز موقف حاكم وهران ومطلبه لدى حكومته ، ان استيلاء الأتراك على قلعة بني راشد ثم على تلمسان حرم الاسبان المستقرين في الساحل من التموين الذى تعودوا على جلبه من داخل البلاد . فقد كانت وهران يأتيها التموين من قلعة بني راشد التي كانت تعد من أغنى مناطق البلاد زرعاً وضرعاً .

وبدا حاكم وهران بتوجيه دون مارتان دارغوث على رأس ثلاثمائة جندي الى قلعة بني راشد ، وصحب ابو حمو هذه القوة الى قلعة بني راشد ومعه بقايا المخلصين لبني زيان وبعض السكان الذين ضجوا على سلوك الاتراك ، وفرض ابو حمو ودون مارتان دارغوث حصاراً على قلعة بني راشد . وقد قرر إسحاق ، أخو عروج ، الصمود في وجه الحصار ، واستطاع فعلاً أن يحرز على انتصارات جزئية لكنها لم تكن حاسمة . وعندما رأى انه فقد ثلثي جنده في المعركة عرض على اعدائه ان يترك لهم القلعة ، مقابل ان يتركوه يلتحق بتلمسان مصطحباً سلاحه وعتاده . وتم الاتفاق على هذا الاساس .

لكن ما كاد إسحاق يخرج من الحصن حتى هجم عليه وعلى جنده أنصار أبي حمو ، فقتلوا في جملة من قتلوا، ضاربين بالاتفاق عرض الحائط ، إسحاق شقيق عروج واسكندر الكورصي أحد قواده الكبار ، وتم ذلك في نهاية شهر جانفيي ١٥١٨ م . (أواخر عام ٩٢٠ هـ .) .

بعد ذلك بقليل توجه حاكم وهران الاسباني الى تلمسان وأقام على حصارها ، وكان حصاراً طويلاً استمر طيلة ستة أشهر ، وعندما سقطت اسوار المدينة في ايدي الاسبان ، تحصن عروج في المشوار واستمر يناوش الاسبان على أمـــل ان يحبط هجومهم الى أن يلحق به سلطان فاس وجيشه .

ولم يرق هذا الحصار الطويل لسكان تلمسان . فهم بالاضافة الى سخطهم على الاتراك اصبحوا يرون منازلهم تتهدم تحت ضربات المدفعية الأسبانية بسبب وجود الاتراك بـين ظهرانيهم . وبدأت المؤونة تقل من المدينة ، مما ضاعـــف سخط السكان الذين كانوا ينتظرون انتهاء هذه الحرب بفارغ صبر .

ولم يبق مع عروج إلا الجنود الأتراك ، أما الجنود الجزائريين فقد انفضوا عنه وفضلوا التضامن مع اخوانهم .

وحل يوم عيد الفطر ٠ واغتنم السكان هذه الفرصة فطلبوا من عروج أن يأذن لهم في الدخول الى المشوار لأداء صلاة العيد . فأذن لهم في ذلك ، وما كادوا يعبرون أسوار المشوار حتى سلوا اسلحتهم الـتي كانت مخفية تحت البرانيس ونزلوا في الأتراك ضربـــاً وتقتيـلاً . ونشبت معركة رهيبة بـين الجانبين لكن خسائر الأتراك كانت جسيمة ولم ينج إلا عروج وقليل من صحبه اختفوا في معبر سري ، ورأى عروج انه لم تعد بـــه طاقة على مواجهة الموقف فقرر الانسحاب على أمل اللحاق بساحل البحر بأسرع مـــا يمكن حيث سيجد مراكب أخيه خير الدين الذي سيوجهها لنجدته ، فور اتصاله بالنبأ ، فخرج ليلاً حاملاً معه كنوز بني زيان ، وأخترق الخطوط الأسبانية وشرع يسير في اتجاه ناحية بني بزناسن حسب ما يؤكده المؤرخون العرب ، وهذه الرواية تؤكد انه تلقى وعداً من سلطان فاس بنجدته .

ولهذا نرجح هذه الرواية على الرواية الأخرى التي تقول انه اتجه الى عين تموشنت في الطريق الى وهران فلا يعقل ان يفر الى طريق وهران حيث الاسبان ويدع طريق فاس ، لكن القائد الاسباني علم بفراره بعد ذلك ببضع ساعات ، فارسل فرقة من الفرسان تتعقبه ، ولم تلحق الفرقة بعروج إلا مساء الغد في مكان يقع بين سيدي موسى وريودي

سالادو . وعندما وجد عروج انه لا قبل له بمواجهة كامل تلك الفرقة بمن معه من الأتراك القليلين رأى ان يعرقل تقدم الفرسان الاسبان بما يبثه في طريقهم من الكنوز التي كان قد أخذها معه . لكن ذلك لم يفده ، وهاجمته الفرقة وأجبرته على ان يلجأ الى حصن قديم ، ورفض عروض الاستسلام رغم يده المقطوعة وراح يحارب الى أن قُتِلَ مَنْ كان معه من الجنود عن آخرهم ، واستمر يقاتل بمفرده الى أن قتل ، فقطع قائد الفرقة الاسبانية رأسه وحمله معه الى وهران . ثم ارسل الاسبان رأسه الى أسبانيا . كما أخذ الاسبان ثيابه التي كانت من قطيفة حمراء مزركشة بالذهب وسلموها الى كنيسة القديس جيروم بقرطبة ، فصنع منها رجال الدين هناك شعاراً يسمى « شارة بربروس »

* * *

ستراتيجية خير الدين :

في الوقت الذي دخل فيه ابو حمو إلى تلمسان تحت حماية الاتراك ، كان خير الدين في مدينة الجزائر يفكر في احسن طريقة ينقذ بها سلطانه ، فقد واجهته في آن واحد مصاعب عديدة لا تحصى : إذ ان هزيمة عروج ومقتله تسبب في سلسلة من الانتفاضات في جهات مختلفة ضد سلطة الاتراك ، فقد ثارت بلاد زواوة تحت امرة احمد بن القاضي، كما ثارت تنس وشرشال بالاتراك ، واغتنم صاحب تونس هذه الفرصة فأرسل إلى خير الدين يطلب منه ان يعترف بسلطنة تونس ويخضع لها ، هذا كله يضاف الى ما كان يتوقعه خير الدين من سير الاسبان إلى مدينة الجزائر ، لانه لم يكن يشك في ان الاسبان سيسارعون إلى مدينة الجزائر للقضاء عليه بعد ان تمكنوا من القضاء على اخيه ، فما العمل ؟

بادر خير الدين إلى اخماد حركتي تنس وشرشال ؛ لكن ذلك لم يكن كافياً ، فحركة ابن القاضي في بلاد القبائل تهدد بالامتداد حتى ابواب العاصمة فتقطعه بذلك عن مؤخرته وقواعده الشرقية ، وحركة ابو حمو تهدده من الناحية الغربية كما دلت على ذلك انباء التحركات والانتفاضات التي امتدت من تلمسان الى مليانة .

بعد طويل تفكير وضع خير الدين برنامجاً محكماً لمواجهة كل هذه المشاكل والتغلب عليها ،

برنامج قرأ حساباً للوضع الداخلي من جهة وللأوضاع الخارجية من جهة اخرى . فقد رأى ان كل محاولة لاستقدام امداد من الخارج لن تفيده في هذا الوضع ما لم يركز سلطته داخل مدينة الجزائر والاحواز المحيطة بها . كما ايقن انه لا يستطيع الاعتماد طويلاً على ولاء الداخل ما لم يستمد من الخارج قوة ومدداً .

بناء على هذا الحساب ، راح خير الدين يستميل علماء الجزائر ومشائخها واعيانها وتودد اليهم ، كما راح يستثير الحمية الدينية ضد ابي حمو وضد كل الذين يثورون عليه إذ يقدمهم في صورة المتحالفين مع اعداء الاسلام الموالين للنصرانية . ولم ينس خير الدين في هذا المجال التذكير بمعاركه ضد الاسبان وما خاضه هو واخوه من اهوال لاستخلاص مسلمي الاندلس من براثن الكفر والالحاد .

وفي نفس الوقت اتخذ خير الدين قراراً يكشف عن عمق حاسته وعبقريته السياسية ، فقد قرر ان يربط مصيره بمصير الامبراطورية العثمانية ، لانه ادرك انه لا يستطيع ان يحتفظ بالجزائر ، ولا يقدر ان يبسط نفوذه على كامل المغرب الاوسط كما كان يحلم عروج ، ما لم يضع نفسه تحت سلطة الباب العالي .

وكان سليم الأول العثماني في أوج عزه آنذاك : فقد احتل مكة والمدينة واستولى على مصر والشام وأضاف الى ألقابه لقب « خادم الحرمين الشريفين » فمن أحسن من سليم الأول سنداً لخير الدين ؟

ان خير الدين كان يعرف كثرة أعدائه في المغرب الأوسط ، وكان يدرك انه لا يستطيع أن يتغلب بمفرده على الحركات العديدة التي تريد كل منها أن تستقل بالحكم وتنفرد بالسلطان ، وأن كل هذه الحركات ، رغم ما بينها من تنافر ، ستجتمع ضده ، أما حماية الباب العالي فستضمن له مزيد الهيبة ، كما تضمن له الاعانة العسكرية والمالية . ولذلك سارع خير الدين بتقديم فروض الولاء والطاعة للسلطان سليم الأول ولم يتردد سليم الاول في الاستجابة لطلبه ، وأمر باعطائه لقب باشا وسماه « باي لارباي » (أمير الأمراء) وأذن له في أن يضرب السكة باسمه ، وأرسل له سلاحاً وذخيرة وزوده

بالمدفعية ، كما ارسل ألفي جندي ، يضاف اليهم نحو أربعة آلاف متطوع أذن سليم الأول في اعطائهم نفس الامتيازات والحقوق التي يتمتع بها جنود الباب العالي .

وصل المدد الذي أرسله اليه الباب العالي في الوقت الذي كان فيه الاعراب يستعدون للثورة على سلطة خير الدين ، وقبل ان تصل القـــوات التي قررت اسبانيا توجيهها الى مدينة الجزائر .

وسبب تأخر وصول القوات الأسبانية الى الجزائر ، ان الأسبان كانوا يفضلون تعزيز هجومهم عن طريق البحر ، بهجوم آخر يقوده أبو حمو عن طريق الـــبر ، لذلك أمروا أبا حمو بتجهيز حملة تعينهم على استئصال الاتراك من المغرب الأوسط ، لكن أبا حمو وجد صعوبة كبيرة في تجهيز هذه الحملة ، لان أغلبية الشعب كانت تعارض فيها ، وذلك لأن الاسبان الذين كانوا يحتلون وهران ، مـا انفكوا يشنون الغارة تلو الغــارة على القبائل المحيطة بوهران للحصول على المؤن الكافية ، فكان ذلك عامـــلاً مباشراً ، بالاضافة الى عامل العداوة الدينية التقليدية – عزز نفـــور السكان من خطط الاسبان ومن أبي حمو الموالي لهم .

ولو أن القوات الأسبانية وصلت الى مدينة الجزائر في نفس الوقت الذي قرر فيـــه سكان المدينة الانتفاض على الاتراك لما اقترن اسم خير الدين بتاريـخ الجزائر كما اقترن به الآن . لكن اتصال خير الدين بمدد سليم الاول قبل وصول القوات الاسبانية غير كل شيء ، اذ استطاع خير الدين ان يقمع تمرد سكان الجزائر في المهد ، وأن يستظهر بقوة من شأنها أن ترهب كل الذين كانت تحدثهم أنفسهم باحتلال مكانه .

وقد كان ميناء الجزائر في ذلك الحـين لا يشكل مخبأ مضمونـــاً للسفن والبواخر ، بالاضافة الى تعرضه باستمرار لتهديد الحصن الأسباني المقام فوق الجزيرة ، لذلك تعـود البحارة على ارساء سفنهم فوق رمل الشاطىء بين باب الواد ومصب واد مغاسل .

وقد تمثلت الخطة التي أعدها سكان الجزائر للتخلص من الأتراك في المفاهمة مع القبائل القاطنة بالأحواز القريبة من المدينة ، على أن يعلنوا ثورتهم في يوم سوق ، وكان من المقرر

ان تبدأ الحركة باضرام النار في الأسطول التركي . وبعد ان يضرم سكان المدينة النار في الاسطول التركي ، ينقض أعراب السهول القريبة الذين يكونون قد دخلوا الى المدينة في في هيئة متسوقين ؛ بأسلحة مخفية – ينقضون على الاتراك عندما يخرج هؤلاء لاطفاء النار المشتعلة في السفن ، ويبيدونهم عن آخرهم .

لكن خير الدين الذي كان ، كما ألمحنا لذلك ، قد عرف كيف يستميل بعض اعيان ومشايخ المدينة ، اتصل بأنباء الحركة قبل الشروع في تنفيذها، فألقى القبض على مدبري الحركة وقطع رؤوسهم وعلقها على أبواب قصره .

اما الأسطول الاسباني فلم يصل إلى ميناء الجزائر إلا في صائفة ١٥١٩ (٩٢٦هـ)، وكان مؤلفاً من اربعين سفينة تحمل خمسة آلاف مقاتل نزلوا على الضفة اليسرى من واد الحراش في منتصف أوت بقيادة دون هيفودي منكاد نائب ملك صقلية، وسارع منكاد بتوجيه فرقة استقرت في مكان يقع غربي المدينة ، ومضت بضعة ايام في مناوشات صغيرة ، وفي يوم ١٨ أوت انتشرت القوات الاسبانية حتى بلغت كدية الصابون ، وهنا حدث خلاف بين منكاد ونائبه قونزا لفوما رينو : فقد كان منكاد يرى شن الهجوم في الحال من غير انتظار وصول فرق ابي حمو الذي كان الاسبان قد طلبوا اليه ان يعزز هجومهم من ناحية البر ، لكن قونزالفو مارينو كان يرى وجوب الانتظار .

فاغتنم خير الدين هذه الفرصة وارسل بعض جنوده الى ناحية البحر يوهمون الأسبان انهم قادمون لاحراق المراكب التي تصل بين الجند والاسطول ، وعندما فطن الأسبان لهؤلاء الجنود وهاجموهم لانقاذ اسطولهم ، خرج عليهم خير الدين ، حسب الخطة التي احكمها ، وفاجأهم بقواه فاحتل مركزهم واستولى على ذخائرهم واسلحتهم ، وساق جنودهم الى البحر كالأغنام ، واجبرهم على أن يعودوا الى مراكبهم ويقلعوا عن الميناء بأسرع ما يمكن ، لكن زوبعة شديدة هبت آنذاك على البحر فقذفت بست وعشرين سفينة الى الشاطىء، وراح الجزائريون والاتراك ينهبون السفن ويذبحون الاسبان ، (ويقال ان الاتراك ذبحوا حتى من استسلم من الاسبان انتقاماً من اخلال الاسبان بالاتفاق الذي

أبرموه مع اسحاق شقيق خير الدين في معركة قلعة بني راشد) .

***

استطاع خير الدين بهذا الانتصار الذي احرزه ضـــد الاسبان أن ينقذ سلطانه من الانهيار .

لكنه ما كاد يفرغ من المعركة مع الاسبان حتى اخطر لمواجهة معركة اخرى مع سلطان تونس الذي ما انفك يعتبر ان خير الدين – مثل أخيه – من مواليـــه ، وانه مدين له بالطاعة والولاء .

وبناء على ذلك طلب سلطان تونس من أحمد بن القاضي أن يجمع قواتـــه ويستعد للانضمام الى القوات القادمة من تونس لانه كان يخشى من انتقـــام خير الدين ، الا ان ابن القاضي تظاهر بالولاء لخير الدين ، ووثق خير الدين في أحمد بن القاضي وضمـه الى جيشه قبل أن يشتبك مع القوات القادمة من تونس . وما كادت المعركة تبتدىء حتى انقلب أحمد ابن القاضي وجنوده على خير الدين الذي وجد نفسه بين نارين ، فانهزم وتعرض الاتراك لمقتلة رهيبة لم ينج منها الا خير الدين وقليل من قواته .

هذه الهزيمة قطعت على خير الدين خط الرجعة الى مدينـــة الجزائر ، فلجأ الى مدينة جيجل ، وأرسل الى بواخره الحربية وسفنه ان توافيه بجيجل ، بينما واصل احمد بن القاضي سيره الى مدينة الجزائر عبر المتيجة ، وفي نفس الوقت ثارت شرشال وتنس من جديد .

في جيجل تفرغ خير الدين لاعادة تنظيم قوته العسكرية ، وعاد الى القرصنة ليتمكن عن طريقها من تجنيد عدد من المتطوعـــين يعوض بهم الجنود الذين فقـدهم في المعركة السابقة .

وقضى خير الدين خمس سنوات (من ١٥٢٠ الى ١٥٢٥) يسيطر على البحر الابيض المتوسط ، وغنم خلال هذه المدة مغانم كثيرة جلبت له كثيراً من المتطوعين الذين انخرطوا في صفوفه كما تمكن خلال هذه المدة من الاستيلاء على كل من مدينتي القل وعنابة ، ووضع بهما حاميتين تدينان له .

وبينما كان خير الدين منصرفاً الى تعزيز قواته اذ بلغه ان سكان مدينـــة الجزائر بدأوا

يضجون من حكم ابن القاضي ، فرأى ان الفرصة سنحت لاستعادة ميناء الجزائر ، وسار الى ابن القاضي الذي التقى به في ممر واد بو قدورة ، فانهزم ابن القاضي الذي حاول أن يتصل بجنده المنهزم في جبل بني عائشة ، واستأنف المعركة من جديد، لكن قواته تمردت عليه وقتلته وتقربت برأسه الى خير الدين .

وخلف أحمد أخوه حسن وواصل المعركة ضد الاتراك مدة عامين لكن من غير أن يحقق أي انتصار حاسم .

وفي سنة ١٥٢٧ كانت قسنطينة قد تمردت على الحامية التركية وقتلت قائدها .

فشرع خير الدين فور انتصاره على ابن القاضي ودخوله ظافراً الى مدينة الجزائر ، يقمع المتمردين عليه ، فعين شيخين جديدين في كل من تنس وشرشال وقمع ثورة القبائل والحضنة ، وانتقم في ١٥٢٨ من مدبري ثورة قسنطينة بشدة قال عنها بعض المؤرخين انها بلغت من العنف درجة جعلت الحدائق والغابات المحيطة بمدينة قسنطينةعامرة بقطاع الطرق والوحوش الضارية ، وفي سنة ١٩٢٥ استسلم سلطان كوكو حسين الذي فقد كنوزه وأفراد عائلته ، ومنحه خير الدين الأمان مقابل ثلاثين حمولة من الفضة كل سنة ، كما طلب بنو عباس الأمان الذي منح لهم أيضاً .

سقوط برج الفنار :

بعد أن بسط خير الدين سلطانه على مدينة الجزائر وعدة مناطق داخلية ، فكر في التخلص من حصن الجزيرة الاسباني المقام على مدخل مدينة الجزائر ، (برج الفنار) لأن هذه القلعة الاسبانية تعتبر سبة لخير الدين الذي اشتهر بعداوته للاسبان ، كما تمثل نيلاً من سلطانه ، يضاف إلى هذين الاعتبارين أن خير الدين كان في حاجة إلى ميناء تلتجىء اليه السفن وتتمون فيه البواخر ويشكل في الوقت نفسه منطلقاً قوياً للسيطرة على البحر الأبيض المتوسط ، وقد أدرك خير الدين بناقد عبقريته وحنكته السياسية والعسكرية أن مدينة الجزائر خير المواقع الموجودة في متناوله ، لأداء هذه المهمة .

وقد كان حاكم برج الفنار الاسباني ضابطاً محنكاً اسمه دون مارتان دى فارقاس

وكان قد استشعر بالخطر الذي يهدده من جراء عودة خير الدين إلى مدينـــة الجزائر ، فأرسل إلى اسبانيا يطلب المدد والذخيرة .

وشرع خير الدين في توجيه هجوماته ضد القلعة مع بدايـــة ماي ١٥٢٩ ، ووضع مدفعين تجاه الحصن وراح يقنبله طيلة عشرين يوماً متتالية .

وحاولت الحامية الاسبانية ان تصمد امام هذه الهجمات لكن دون جدوى ، فلم ينجح جندي اسباني واحد من الاصابة بجروح ، وتمكن خيرالدين يوم ٢٧ ماي من فتح فجوة في القلعة ؛ فاستغل خير الدين ذلك وهجم على الحصن ، وحدثت معركة رهيبـــة استمرت يوماً كاملا ، دخل على أثرها أبناء الجزائر الى برج الفنار . بعد هـذا الانتصار بادر خيرالدين بربط الجزر الصغيرة الواقعة امام ميناء الجزائر ببعضهـــا وبنى المرسي لحامية الميناء من رياح الشمال والشمال الغربي ، فأصبح مينـــاء الجزائر مأوى للسفن تستطيع ان تطمئن فيه وأن تتحدى منه العواصف وبفضل ذلـــك استطاع الأتراك والجزائريون أن يتحكموا في حوض البحر الأبيض المتوسط مدة طويلة .

* * *

ادرك سكان باقي المناطق التي ما يزال الأسبان يحتلونها أهمية سقوط حصن الجزيرة فسارع سكان القبائل بالسير نحو بجاية لطرد الأسبان منهـــا ، وأغتنم ابو محمد عبدالله أخو ابو حمو الذي كان الاسبان قد نصبوه في تلمسان بعـد مقتل عروج – اغتنم أبو محمد عبدالله هذه الفرصة ، فقطع صلاته بالاسبان وأرسل الى خير الدين بالطاعة والانقياد .

احدث خبر انتصار خيرالدين رد فعل عنيف في أسبانيا .

فقد ارسل الاسبان سكان الشواطىء الاندلوسية يطلبون من امبراطورهم ويلحون في الطلب أن يخلصهم نهائياً من المسلمين سكان الجزائر الذين ما انفكوا يوالون الغارة تلو الغارة على شواطىء الاندلس .

وكان ذلك هو الاساس الذي بررت به السياسة الاسبانية هجومها على الجزائر ، ذلك الهجوم الذي اقرت مبدأه منذ سنة ١٥٣٠ .

فمنذ تلك السنة شرعت القيادة الاسبانية تضع الخطط للاستيلاء على مدينة الجزائر ، ووقع اختيار الاميرال أندري دوريا الذي كلف بقيادة الحملة وهو ايطالي تحالف مع اسبانيا ـ على ميناء شوشال كنقطة تنزل بها القوات المسيحية الآتية من البحر :

وانطلق الاميرال أندري دوريا بالفعل من مدينة جينو الايطالية في جويليه ١٥٣١ م . (أواخر عام ٩٣٨ هـ) . على رأس عشرين باخرة حربية ، وفاجأ بقواته سكان الشواطىء القريبة من شرشال ، وتمكن من اطلاق سراح نحو السبعمائة من الأسرى المسيحيين كانوا يشتغلون في تعزيز ميناء شرشال فانضم هؤلاء الأسرى الى قوات دوريا لكن قيادة المدينة استردت جأشها بعد حين ، وردت الهجوم واشتبكت في معركة مع القوات المسيحية في نفس الوقت الذي انطلقت فيه مدفعية المدينة توجه قذائفها الى بواخر دوريا ، وأيقن الأميرال الايطالي انه قد خسر المعركة فولى هارباً تاركاً وراءه ستمائة من جنوده وقعوا في الأسر .

خير الدين يسير إلى تونس

أراد خير الدين أن يغتنم فرصة هذه السلسلة من الانتصارات ففكر في تصفية حساب قديم مع سلطان تونس نظراً للمواقف التي كان وقفها سلطان تونس ضده من جهة ، ولبسط نفوذه على الناحية الشرقية ، فترك خير الدين حكم الجزائر لخليفته حسن آغا الذي ضم له حاج بشير وعلي الصوردو ، بعد أن تحصل على موافقة الباب العالي الذي أرسل له أربعين باخرة إلى عنابة ، وثمانية آلاف جندي ومدفعية قوية ، وسار خير الدين عن طريق البحر على رأس ثمانية آلاف وتسعماية جندي (ما بين أتراك ويونانيين وألبانيين وأسبان ارتدوا عن دينهم ودخلوا في الاسلام) .

وتوقف في الطريق بقسنطينة لاخماد ثورة كانت نجمت بها ، ثم واصل السير إلى عنابة ، ومن هناك أبحر إلى تونس ، فنزل بحلق الواد في ١٦ أوت ١٥٣٤ (صفر ٩٤١هـ) ولقي رجاله بعض المقاومة في مدينة باجة .

أما السلطان حسن فقد كان فر عند سماعه بمقدم خير الدين ثم رجع إلى تونس يوم ١٨ أوت على رأس ألف فارس ، فدارت المعركة بينه وبين الأتراك الذين انطلقوا

ينهبون ما في المدينة ، وراح خير الدين يعمل على تحصين المدينة وجمع الأموال التي كان في حاجة اليها لدفع مرتبات جنوده ، ذلك أنه أدرك على ضوء التمرد الذي قام بـــه بعض جنوده يوم ٢٣ أكتوبر من نفس السنة ، إن كل تأخير في دفع المرتبات يعرضه للخطر ، فقد كاد يقتل في هذا التمرد، ولم يتمكن من إخماده إلا بعد أن بذل للمتمردين أموالاً طائلة، وعندما حدث تمرد آخر من نفس النوع في ٢٨ نوفمبر كلف حرسه الخاص الذي كان يتركب في معظمه من الاسبان المرتدين عن دينهم – باخماد التمرد ، فقاموا بتلك المهمة على الوجه المطلوب منهم وقتلوا مائة واربعة وعشرين متمرداً وشنقوا الأسرى .

تدخل شارلكان في تونس

في الوقت نفسه احس الاسبان بأنهم على وشك ان يواجهوا ثورات متعـــددة في كل المواقع التي يحتلونها ، فمولاي محمد الذي كان يحكم تلمسان خلفاً لأبيه ففي ١٥٣٤ لم يتردد في إعلان تمرده على الاسبان ، وحاول ان يسترجع مرسي الكبير بواسطة هجوم مفاجىء نظمه ضد الحامية الاسبانية بها في ٢٥ ماي ١٥٣٤ .

وقد حاول الحاكم الاسباني الجديد الذي عين في وهران ، وهو الكونت الكوديت ، حاول ان يستعمل عبد الله ضد أخيه سلطان تلمسان ، لكن انصار عبد الله انهزموا مرة اولى في تيبدة ومرة ثانية في شعبة اللحم ، وفي هذه المعركة الاخيرة قتل ستمائة جنـــدي اسباني كان يقودهم النسومار تينيز .

لذلك سارع الامبراطور الاسباني شارلكـــان بالسير الى تونس للقضاء على خير الدين والاتراك الذين حملهم مسؤولية كل هذه الثورات والمصاعب . ونزل شارلكـــان في حلق الوادي يوم ١٤ أوت ، وبينما كانت المعركة دائرة على اشدها بـــين الاسبان والاتراك إذ تمكن عدد كبير من الاسرى المسيحيين من فك اسارهم وفاجـــأوا الاتراك من حيث لم يكونوا يتوقعون الهجوم .

وأدرك خير الدين أن كفة النصر رجحت لفائدة الاسبان ، فلم يحاول الثبات ، وفر بكنوزه إلى عنابة بينما كان الاسبان يتوهمون أنه قد التجأ إلى القسطنطينية ومن عنابـــة توجه إلى مينورقة واستولى على ماهون باسبانيا وأخذ مئات من الأسرى المسيحيين دخل

بهم إلى مدينة الجزائر التي كان سكانها يعتقدون أنه انهزم نهائياً .

وقد برهن خير الدين في تنظيم فراره من تونس وعودته إلى الجزائر عن حنكة سياسية وعسكرية كبيرة : فهو لم يرجع إلى الجزائر من عنابة عن طريق البحر ، لأنه كان يخشى – وهو ما حدث بالفعل – أن ينتقم منه سلطان كوكو بعد أن يكون قد تفاهم مع الاسبان الذين يحتلون بجاية ، ويقطع عليهم خط الرجعة في البيبان ، وهو من ناحية ثانية نظم هجوماً مفاجئاً على الشواطىء المسيحية ، ورجع بالأسرى إلى مدينة الجزائر ، ليفاجىء الذين يفكرون في التمرد عليه ، بما لم يكونوا يتوقعونه .

* * *

وفي الخامس عشر من اكتوبر ١٥٣٥ استجاب خير الدين أوامر السلطان سليمان فتوجه إلى القسطنطينية حيث عين قائداً عاماً للبحرية التركية ومات في ١٥٤٦ عن سن تناهز الثمانين سنة ، وقد خلف ابناً اسمه حسن من امرأة جزائرية .

الباب الثالث

حكم الباي لارباي

- هجوم شارلكان على الجزائر .
- حسن بن خير الدين .
- فشل الهجوم الاسباني على مستغانم .
- الديبلوماسية العثمانية والفرنسية الجديدة.
- صالح رايس .
- الحملة على المغرب .
- طرد الاسبان من بجاية .

حكم الباي لارباي

عندما غادر خير الدين مدينة الجزائر ، عين خليفة له حسن آغا ، وهو من مواليد سردانيا ، حيث وقع في اسر القراصنة الجزائريين وهو ما يزال بعد طفلاً ، ثم تبناه خير الدين وعطف عليه .

وقد واجه حسن آغا ، فور ممارسته لمسؤولية الحكم في الجزائر ، مهمة ضخمة تتمثل في رد الهجوم الذي كان يعده الامبراطور الاسباني شارلكان لاحتلال مدينة الجزائر التي أصبحت عاصمة للمغرب الأوسط .

وقد كانت مهمة صعبة تلك واجهها حسن آغا : فالحملة الاسبانية التي كان يجري اعدادها ضد الجزائر ، سبقتها انباء انتصارات قوات شارلكان في تونس وفي عنابة (التي دخلها دوريا بعد ان خرج منها خير الدين) ولم تكن هذه الأنباء مما يسهل مهمة حسن آغا خصوصاً وان دوريا قد مهد للحملة الأسبانية القادمة بتعزيز المواقع الأسبانية في عنابة ، وبتنظيم عدة حملات جزئية ضد البواخر والموانىء الجزائرية .

لكن شارلكان كان يفكر في خطة اخرى للاستيلاء على الشواطىء الجزائرية ، في نفس الوقت الذي كان يواصل فيه اعداداته العسكرية : فعمل على اجراء اتصالات سرية مع خيرالدين الذي كان آنذاك هو القائد العام للاسطول التركي ، وعرض عليه أن يتعاون معه مقابل تمكينه – أي تمكين خير الدين – من القيادة العامة لشمال افريقيا نظير اعتراف شكلي من طرف خير الدين بالتبعية للامبراطور الأسباني .

وتدل هذه الخطة على أن شارلكان كان متخوفاً من فشل الحملة التي كان يعدها ضد الجزائر ما دامت هذه تتمتع بحماية الباب العالي كما تكشف عن أهمية وخطورة السمعة التي كان يتمتع بها خير الدين ، وليس من المستبعد ان يكون شارلكان قد قصد باستمالة خير الدين الى التأثير على معنويات مختلف الامارات والممالك التي كانت منتصبة في

حوض البحر الابيض المتوسط ، والى تعزيز مكانتـه ازاء البيوت الملكية في أروبا ، كما سنتأكد من ذلك فيما يلي :

وتظاهر خير الدين بقبول العرض ، واستمرت الاتصالات السرية بـين شارلكان وخير الدين عامين كاملين ، وكان خير الدين يتظاهر خلالهـا بقبوله للعرض الاسباني ووقوعه في الفخ ، وكان يبحث مع مبعوثي الامبراطور كل التفاصيل الى درجة ان اولئك المبعوثين وهم : ألاستون دي ألاركون والكابتان فيرقـارا والدكتور روميور – كانوا يعتقدون ان خير الدين قبل نهائياً بالعرض ، في حين انه كان يبلغ السلطان العثماني كل ما كان يجري بينه وبين ممثلي الامبراطور الاسباني من أحاديث .

وكأن شارلكان كان متخوفاً من فشل هذه المحاولة التي ترمي إلى فصل خـير الدين عن السلطان العثماني ، والى فصل الشمال الافريقي عن الامبراطورية العثمانية ، وكأنه كان يخشى أن تحول المداوة التقليدية بين الامبراطورية الاسبانية وبين خير الدين واخوتـه دون أن تتم هذه المفاهمة ودون أن تتواصل الى مداها ، فأوعز الى الكونت « الكوديت » ان يتفاوض مع حسن آغا على تسليم مدينة الجزائر في مقابل تعيينه باشا على الجزائر ، ويبدو من رسائل حاكم وهران ان حسن آغا لم يرفض مبدئياً هذا العرض ، لكن الوثائق الموجودة لا تكشف الى اي مدى بلغ تواطؤ حسن آغـا مع الاسبان ، بل ولا تدل دلالة قطعية على وجود تواطؤ من هذا النوع بين حسن آغا وبين الاسبان ، لكن المؤرخ الفرنسي دي غرامون ، يستنتج وجود تفاهم من هذا النوع بين الأسبان وحسن آغـا من تصميم شارلكان على تنظيم الحملة في أخطر فصول السنة رغم نصائح دوريا وقادته البحريـين ، وبالرغم من تضرعات أخيه وتضرعات البابا نفسه ؛ ويعتبر دي غرامون ان وجود تفاهم من هذا القبيل هو وحـده الذي يفسر هـذا التصميم من طرف شارلكان . ويضيف دي غرامون الى ذلك أن الشرط الوحيد الذي لا يستبعد أن يكون حسن آغا اشترطه هو أن تكون القوات الاسبانية المهاجمة من الضخامة ومن الكثرة بحيث لا تظهر خيانة حسن آغا ، ولا يفتضح تسليمه للمدينة ، وبحيث يبدو سقوطهـا في يد الاسبان أمراً طبيعياً .

وشرع شارلكان في تنظيم حملته ضد الجزائر خلال صائفة ١٥٤١ ، ففي ذلك الوقت

بدأت البواخر تنقل قسماً من جيوشه ، بينما كان شارلكان يجمع قواته في جفوة ، التي أبحر منها على رأس ست وثلاثين باخرة حربية .

وقد استغرقت الاعدادات زمناً طويلاً بحيث لم تقترب القوات الاسبانية من شواطىء الجزائر إلا في التاسع عشر من شهراكتوبر ، وكانت تشتمل تلك القوات على خمسمائة وستة عشرة باخرة شراعية ، من بينها خمس وستين باخرة كبيرة كان يسيرها العبيد بتجذيفهم المتواصل . وكانت البواخر تحمل على متنها ١٢٣٣٠ بحرياً و٢٣٩٠٠ جندياً من الجيش البري ، وكانت الاطارات العسكرية لهذه القوة تتكون من خيرة عائلات اسبانيا والمانيا وايطاليا ، كما ان البابا أصر على أن يكون قريبه كولونا من بين المساهمين في الحملة ، وقرر فرسان مالطة ان لا يفوتهم شرف المساهمة في هذه الحملة فأرسلوا فيها مائة واربعين من ابرع فرسانهم وأربعمائة من امهر مقاتليهم . وفي يوم عشرين اكتوبر بالضبط استعرض الاسطول الاسباني وحداته البحرية امام الجزائر ، وكان البحر هائجاً وخصوصاً بعد الظهر فاضطر الاسطول الى الاحتماء برأس ماتيفو ، لكن العاصفة استمرت كامل يوم الجمعة ٢١ أكتوبر ويوم السبت ٢٢ اكتوبر . وبدأت القوات الاسبانية في النزول يوم الاحد ٢٣ اكتوبر مع طلوع الشمس على الضفة اليسرى من واد الحراش . ونزل شارلكان بنفسه حوالي الساعة التاسعة وقسم قواته الى ثلاث فرق ونصب معسكره في الحامة (حيث توجد الآن حديقة الحامة) . وفي الليل هجم الجزائريون على الفرق الاسبانية بقيادة الحاج بشار ، ولم يتركوا المعتدين ينعمون بطعم النوم .

وفي صباح يوم ٢٤ اكتوبر شرعت قوات شارلكان تسير في اتجاه مدينة الجزائر حسب الترتيب الآتي : الجنود الاسبان بقيادة فيرناند دي قونزاغ يشكلون المقدمة بينما تولى شارلكان قيادة القلب الذي كان يشكل من الجنود الالمان ، اما الايطاليون وفرسان مالطا فقد كانوا يشكلون المؤخرة تحت قيادة كاميل كولونا .

وبينما كانت القوات الاسبانية تسير في السهل اذ اقبل الجنود الجزائريون يناوشونها

من كل جانب ويعرقلون سيرها ، مما اضطر المقدمــــة الى خوض معركة قصيرة لكنها شديدة وسط الاحراج التي تحيط بكدية الصابون ، وبعد ان تمكن الاسبان من احتلال كدية الصابون نصب شرلكان بها قيادته ، بينا احتلت قوات القلب سلسلة من الهضاب التي تنحدر من الكدية الى شاطىء البحر ، اما المؤخرة فقد عسكرت بالشاطىء وراء قنطرة العفرون . امام هذه القوات الضخمة ، ما هي الامكانيات التي كانت في يد مدينة الجزائر لرد العدوان ؟

ان الجنود الاتراك لم يكن عددهم يتجاوز الثمانمائة ، يضاف اليهم نحو الخمسة آلاف من مهاجري الاندلس الذي يمكن ان نتصور بسهولة مبلغ تحمسهم للدفاع عن مدينـــة الجزائر ضد الاسبان .

وسواء أكان حسن آغا قد تفاهم مع شارلكان قبل ذلك او لم يتفاهم فان الروايات التاريخية تجمع على ان شارلكان ارسل له رسولاً يطلب منه تسليم المدينة .

كما تجمع الرويات نفسها على ان حسن آغا رفض طلب شارلكان . والخلاف بـــين الرواية الاسلامية ، والرواية الاسبانية يتناول فقط الظروف التي حَفَّتْ بالرفض ، فالرواية الاسلامية تقول ان حسن آغا رفض دون أدنى تردد الطلب المسيحي ، وانــه رفضه بشدة ، أما الرواية الاسبانية فتقول ان حسن آغـــا كان متردداً وان المعارضة الشديدة التي ابداها قسم هام من اعضاء المجلس الحربي هي التي اضطرت حسن آغـــا لرفض الاستسلام ، وخصوصاً معارضة الحاج بكر الذي كان يتكلم باسم المسلمين الذين هجروا الاندلس كما تقول الرواية الاروبية ان محمد اليهودي عارض هو الآخر في تسليم الجزائر مدافعاً بذلك عن مصالـــح اليهود الذين فروا من الأندلس والذين شملتهم نقمة محاكم التفتيش .

أقبل ليل يوم ٢٤ اكتوبر وقوات شارلكان معسكرة امام مدينة الجزائر ولكلها اطمئنان الى تغلبها عليها في فترة وجيزة .

آنذاك اقبلت رياح شديدة من الشمال الغربي ، مصحوبة بمطر بـدأ خفيفاً ثم ازداد

كثافة وقوة،ويجب انلا ننسى ان القوات الاسبانية كانت منهمكة لأن الجزائريين كانوا قد حرموها النوم في الليلة السابقة وبدأ القلق يتسرب الى صفوف المعتدين وبدأت قوتهم المعنوية تنهار خصوصاً عندما رأوا وحدات اسطولهم تنهار امام هول العاصفة ، وهم لا يملكون من المؤونة إلا ما يكفيهم مدة ثلاثة ايام فقط كان قد مضى منها يومان .

ومع الصباح الباكر من نهار الغد اغتنم الجزائريون هذه الفرصة فهجموا على العدو من ناحية رأس تافورال (حيث ارتفع بعـــد ذلك حصن باب عزون) وفوجئت الحراسة الايطالية التي كانت معسكرة وراء قنطرة العفرون بهذا الهجوم فولّت الأدبار في فوضى، مما بث الهلع والاضطراب في صفوفهم . وعندما حاول فرسان مالطة رد الهجوم واغتنام فرصة خروج الجزائريين للدخول للمدينة ، أمر حسن آغـــا باغلاق باب عزون وراح الجزائريون يقذفون المعتدين بالسهام بعد أن قتلوا نصف فرسان مالطة . وفي نفس الوقت ازدادت العاصفة شدة فخربت مائــة وأربعين باخرة ، وأصبح شغل القيادات البحرية الهروب حتى لا تقذف العاصفـــة بباقي الوحدات الى الشاطىء ، ورغم كل المحاولات قذفت العاصفة بعدة بواخر الى الرمل واضطر ركابها الى خوض معركة أُبيدوا فيهـــا عن آخرهم ، رغم المدد الذي وجهه شارلكان لاعانتهم ، وفقدت القوات الاسبانية في هـــذا اليوم أهم ما كان عندها من عتاد ومدفعية وذخيرة. وانتثرت جثث الجنود وبقايا البواخر على طول الشاطىء من دللس الى شرشال ، وبلغت المغانم التي كسبها الجزائريون في ذلك اليوم درجةً من الأهمية جعلتها مضرب المثل لمدة طويلة ، وشاهد فرنانـــد دي كورتيز بعينه الكنوز التي حملهـــا من المكسيك وهي تستقر في قاع البحر مع بواخره المحطمة .

وتبخر كل أمل في الصمود أمام هذه العاصفة ، فأرسل الكابتان دوريا إلى شارلكان رسالة ينصحه فيها بالتخلي عن كل محاولة للصمود أمام المدينة ، ويقول له فيها ان الأمل الذي بقي له يتمثل في حماية ما تبقى من الأسطول برأس ماتيفو .

وتواصلت العاصفة صباح يوم ٢٦ أكتوبر ، فقرر شارلكان العمل بنصيحة دوريا فأمر

بالانسحاب وبقتل بعض الخيول ، ولكي لا يثير غضب جنوده قتل بنفسه بعض خيوله التي كانت مزينة بالذهب ، ولم تصل قوات شارلكان خلال انسحابها إلى نهر الحراش إلا يوم ٢٧ اكتوبر ،ولم تستطع أن تقطع هذا الوادي الذي حولته الأمطار إلى نهر عنيف التيار فنصبت فوقه قنطرة صنعتها من أخشاب البواخر المحطمة .

عندما وصلت الفلول الاسبانية إلى رأس ماتيفو بعد أربعة أيام — فقد كان الجزائريون يلاحقونها باستمرار — عقد شارلكان مجلساً حربياً ليقرر هل يجب الاستمرار في المعركة أم يحسن التخلي عنها : وقر قرار الأغلبية على أنه يجب التخلي عن المعركة ، في حين دافع الكونت الكوديت حاكم وهران وفرناند دي كورتيز عن الرأي الآخر ، وذهب فرناند دي كورتيز إلى حد مطالبة شارلكان بأن يرخص له في اختيار بعض العناصر والهجوم بهم على مدينة الجزائر لاحتلالها ، ولئن كان هذا الموقف يبدو شاذاً وغريباً في ظروف مثل تلك التي أحاطت بهزيمة شارلكان ، فان بعض قادة الحملة أنفسهم فسروا موقف فرناند دي كورتيز بأن همه الوحيد لم يكن هو احتلال الجزائر ، ولكن هو استرداد كنوزه التي غرقت قرب شاطىء المدينة .

وفي يوم أول نوفمبر شرعت قوات العدوان في الانسحاب ، لكن استمرار العاصفة اضطرها الى الاحتماء بميناء بجاية ، إلا أن مقاطعة السكان الجزائريين للحامية الاسبانية في بجاية يضطرها دوماً الى التموين من جزر الباليار ، بحيث تتعرض للمجاعة عندما ينقطع عنها خط التموين هذا بسبب العواصف ، كما كان هو الأمر عندما لجأت فلول شارلكان الى بجاية ، ويقول دي غرامون أن احمد بن القاضي موّن قوات شارلكان مقابل أموال ضخمة ، ولم يصل شارلكان الى قرطاجنة الواقعة على شواطىء أسبانيا إلا يوم أول ديسمبر .

***

مدينة الجزائر تشتهر بالمناعة .

كان لهزيمة شارلكان أمام ابواب مدينة الجزائر صدى بعيد في كامل بلدان حوض

البحر الأبيض المتوسط: فقد كسبت الجزائر شهرة واسعة بالمناعة اقترنت مع بدء ظهورها كمدينة وكميناء هام ومركز لقوة بحرية يجب أن يقرأ لها ألف حساب ، كما أن المغانم والذخائر والمدافع التي سقطت بأيدي الجزائريين عززت القوة البحرية لميناء الجزائر ومكنتها من تسليح عدة وحدات بحرية ظلت تسيطر لمدة طويلة على الطرق البحرية المؤدية الى أوروبا الجنوبية .

وأراد حسن آغا أن يغتنم هذا الانتصار في تدعيم سلطة الوجاق وتعزيزها ، فسار في نهاية أفريل ١٥٤٢ م متوجهاً الى القبائل على رأس ستة آلاف جندي لتأديب سلطان كوكو ، أحمد بن القاضي الذي كان يعرف أنه اتصل بالأسبان ، ولم يجد أحمد بن القاضي بداً من طلب العفو وإذ لم تكن له قوة كافية يجابه بها حسن آغا ، فعفا عنه حسن آغا وأخذ منه ابنه كرهينة .

وأدرك حسن آغا أنه يمكن أن يستفيد من هزيمة الأسبان في إخضاع المناطق الغربية ايضاً ، خصوصاً وان ملك تلمسان مولاي محمد ، كان مكروهاً من طرف رعيته التي كان يسلط عليها مغارم فادحة لسد مطالب الأسبان ، وكان اثنان من ابنائه وهما عبد الله واحمد ، قد تزعما معارضته ، فاغتنم الأتراك ذلك وتقدموا نحو الغرب الى أن عسكروا عند أسوار تلمسان التي فتحت لهم أبوابها دون مقاومة ، ووعد ملك تلمسان الأتراك بأن يقطع كل تموين عن الاسبان وفي نفس الوقت أرسل هدايا فخمة الى حسن آغا ، فقبلها هذا الأخير كعنوان لخضوعه وأرسل له أربعمائة جندي تركي كحامية تستقر في المشوار .

والحقيقة ان التواريخ العربية لم تذكر لنا شيئاً عن نهاية مولاي محمد . ويؤكد الأب برجيص انه مات سنة ١٥٤٠ ، وعلى كل حال لما تقدم الاتراك نحو تلمسان كان أميرها أبا عبد الله ، فخرج لاستقبال الأتراك واكد لهم تعلقه بهم ، إلا أن الأتراك لم يثقوا فيه ، فنصبوا أخاه زيان أحمد ملكاً .

وطبعاً لم يرق هذا الحل لعبد الله الذي كان يطمع أن يستمر على عرش تلمسان فالتجأ الى الكونت الكوديت قائد الحامية الاسبانية في وهران يطلب منه أن يعينه على قهر

محمد وقلب سلطنته ، ووجد الكونت الكوديت أنها فرصة ذهبية لرد الفعل على هزيمة الجزائر من جهة ولو بصفة جزئية ، ولضمان استمرار تموين قواته من جهة أخرى حتى لا تكون عرضة للمجاعة والحصار .

وأرسل الاسبان الف جندي أسباني وأربعمائة فارس عربي لاحتلال تلمسان ، لكن أبا زيان هاجمهم في شعبة اللحم واستأصلهم عن آخرهم ، لكن هذه الهزيمة لم تثن الاسبان عن الاستمرار في محاولتهم فقد تمكن الكوديت من تكوين جيش يعد اثني عشر الف تقريباً ، سار على رأسهم الى تلمسان بعد أن استصحب معه ثلاثة من أبنائه وعبد الله الذي أيدته قبائل تسالة وبنو موسى بن عبدالله ، وكان بدأ سيره الى تلمسان في ٢٧ جانفي ١٥٤٣ وحاول محمد أن يتفاوض وأن يتحصل على انصراف الجيش الاسباني بواسطة العرض الذي قدمه الى الكونت الكوديت والذي يتمثل في اعطائه كمية هامة من الدنانير الذهبية ، لكن الكوديت لم يرد عليه الا بمواصلة السير الى تلمسان التي وصل أمامها في اوائل شهر فيفري ، وكان نهر يسر قد طغى بفعل الأمطار الغزيرة . وكان قائد القوات الزيانية ضد المسيحيين هو المنصور قائد بني راشد الذي حاول أن يمنع الطريق على المسيحيين عند مضيق يسر ، وقد تولى قيادة المعركة بمهارة وشجاعة ، لكنه أخفق بالرغم من ذلك ، وقد ابتدأت المعركة على الساعة العاشرة صباحاً من يوم ٢ فيفري ، واستمر كامل اليوم وتواصل شطراً من يوم ٣ فيفري ، عندما تمكن الاسبان من عبور النهر فعسكروا أمام حصن تيبدة القويم .

وفي يوم ٥ فيفري التقى الاسبان مع قوات مولاي محمد الذي تقدم بنفسه على رأس قواته والاربعمائة تركي وعدد غير قليل من مهاجري الاندلس ، وكانت معركة شديدة استمرت من الصباح حتى الليل ، وجرح في هذه المعركة دون مرتان ابن الكونت الكوديت ، وعندما انهزم مولاي محمد أبو زيان والتجأ الى المدينة احتمى بالقلعة بينما عسكر أبو عبدالله بالزياتين وبات يستقبل شخصيات تلمسان التي جاءت تقدم له فروض الولاء ، وفي صباح اليوم السادس من فيفري فتحت تلمسان أبوابها لعبدالله فدخلها دون مقاومة ، وسلك الاسبان في تلمسان نفس المسلك الذي سلكوه في تونس فراحوا ينهبون

الاموال ويهاجمون القبائل التي رفضت الخضوع والاستسلام ، وقضى الأسبـــان عشرين يوماً في النهب والسلب ، قرر الكونت الكوديت على أثرها أن ينسحب الى وهران ، لان عيونه كانت تنقل اليه ان مولاي محمد بصدد تنظيم قواته ليقطع عليـه خط الرجعة ، وكان الكونت الكوديت قـد قرر أن يترك في مشوار تلمسان اثني عشر مائـــة من جنوده، لكنه عندما سمع بهذه الأنباء قرر أن لا يترك بتلمسان أي جندي وأن يستصحب كامل قواته بل وأخذ معه المدافع التي كان خسرها الأسبان في سنة ١٥٣٥ عندما انهزموا في معركة مارتينيز بتيبدة .

خرج الكوديت من تلمسان على رأس قوات ضخمة : فقد وصلت مقدمة قواتـه إلى قنطرة واد الصفصاف ، بينما كانت المؤخرة عند باب تلمسان ، وما كادت تغادر القوات الاسبانية المدينة حتى فاجأتها قوات مولاي محمد: وارتبكت القوات الاسبانية واضطرت إلى خوض معركة قاسية من أجل أن تعبر نهر يسر في طريق انسحابها إلى وهران .. واستمرت المعارك طوال فترة انسحاب الجيش الاسباني،وظل جنود مولاي محمد يلاحقون قوات الكوديت حتى مدخل وهران التي بلغتها القوات الاسبانيـــة في يوم الثامن من شهر مارس .

وكبر على الكوديت أن يلاحقه المسلمون حتى وهران ، وأدرك أنه خسر المكسب المعنوي الذي كان يعتقد أنه قد رد به إلى اسبانيا بعض الاعتبار بعـــد هزيمة شارلكان أمام مدينة الجزائر . لذلك ضبط خطة جديدة كان يهدف من ورائها إلى محو ما يمكن أن تخلفه سلسلة الهزائم تلك من آثار وخيمة العاقبـــة على القوات الاسبانية في المغرب العربي . وتتمثل هذه الخطة في الهجوم على مستغانم والاستيلاء عليها . وسار الكوديت يوم ٢١ مارس متوجهاً إلى مستغانم ، لكن القوات التركية التي قدمت من مدينة الجزائر سبقته إلى مستغانم ، ولاحظ الكوديت أن مستغانم كانت محصنة بمدافعها الثلاثين ، فلم يجد بدأ من اصدار الأمر بالعودة إلى وهران ، إلا أن السكان كانوا قد أحاطوا بهم من كل صوب وراحوا يطاردونهم مطاردة عنيفة اضطرت القيادة الاسبانيـــة إلى تجريد جنودها المرتزقة من الخيول خوف أن ينضموا إلى عرب الجزائر ، ولم تتمكن القوات

الاسبانية من اللحاق بوهران إلا في غرة أفريل بعد أن تكبدت خسائر فادحة .

واغتنم أبو زيان محمد هذه الفرصة فتوجه إلى تلمسان وأجبر أبا عبد الله على أن يخوض معركتين عن أسوار تلمسان . وانتصر أبو عبد الله ، وأراد أن يستأصل أخاه فتتبعه خارج المدينة ، وكم كانت دهشته شديدة عندما رجع اليها ووجد أبوابها مغلقة دونه : ذلك أن سكان تلمسان لم يغفروا له النكبة التي لحقتهم على يد الاسبان بسببه ، فاستدعوا أبا زيان الذي دخل المدينة من جهة أخرى .

وفر أبو عبد الله إلى الاسبان الذين أمدوه بعشرة آلاف مقاتل اسباني ، لكنهم انكسروا شر انكسار في معركة شهيرة اشتهرت بمعركة الزيتون ، وهي معركة كاد يقتل فيها الكوديت .

وابحر الكوديت يوم الرابع والعشرين من شهر جوان الى اسبانيا ليشرح لحكومته اسباب الهزيمة في نظره ، وقد حاول الكوديت ان يلقي مسؤولية تلك الهزيمة على حكومته التي كان يراها مقصرة في اعانته بما يجب من قوات وعتاد .

بعد هذه الفترة توفي حسن آغا بعد ان تقلص نفوذه وبعد ان خلفه الحاج بكر الذي كان قد تزعم المعركة ضد شارلكان .

وقد اضطر الحاج بكر الى اخماد ثورة قبائل مليانة التي ثارت ضد الأتراك بقيادة بوالترك قائد الريغة الذي تمكن من تعبئة نحو العشرين الف جندي هجم بهم على المتيجة ووصل على رأسهم الى ابواب مدينة الجزائر . لكن الحاج بكر انتصر عليه وهزمه .

وعندما عاد الحاج بكر بعد انتصاره الى مدينة الجزائر في شهر جوان ١٥٤٤ وجد بها حسن بن خير الدين الذي عين والياً للجزائر .

ويستنتج دي غرامون من نهاية حسن آغا الغامضة ومن الحظوة التي نالها الحاج بكر الذي كان عارض في تسليم مدينة الجزائر الى شارلكان يستنتج من ذلك رجحان الرأي القائل بأن حسن آغا كان قد تفاهم مع الاسبان على تسليم مدينة الجزائر .

والواقع انه لايمكن البث برأي قاطع في هذه القضية : لأن الرواية الاسبانية هي وحدها التي اوردت ما يسمح بهذا الشك في حسن آغا، ولا ننسى ان الرواية الاسبانية في حاجة الى مثل هذه الرواية حتى تبرر بها نوعاً من الهزيمة التي مني بها شارلكان ، ولا ننسى ايضاً ان دي غرامون كتب كتابه الذي يستنتج فيه أمثال هذه الاستنتاجات في مطلع الاحتلال الفرنسي للجزائر ، فالظروف التي كتب فيها ما كتبه تدفعه الى تصغير كل الانتصارات التي احرز عليها الجزائريون في الماضي والى تمجيد كل الاعمال المسيحية ولو كانت غير فرنسية .

اما إبعاد حسن آغا من الحكم في أواخر ايامه فيمكن تفسيره بعدة تفاسير منها المناورات التي كانت تجري في البلاط العثماني للاستيلاء على مقاليد ولاية الجزائر ، وقد ابعد حسن بن خيرالدين نفسه عدة مرات من هذه الولاية ، من غير أن يشعر احد من المؤرخين بالحاجة الى تقديم تفسير من هذا النوع لابعاده .

حسن بن خير الدين

عندما استدعى خير الدين الى القسطنطينية وعيّن قائداً عاماً للأساطيل العثمانية ، احتفظ بلقب باي لارباي افريقيا . أي باي بايات افريقيا ، وهو لقب يخول لصاحبه أن يصدر الاوامر الى باشا تونس وطرابلس والجزائر، وبهذه الصفة عيّن خير الدين ابنه حسن والياً على الجزائر .

وصل حسن باشا بن خير الدين الى الجزائر يوم ٢٠ جوان ١٥٤٤ ، فبادر باعداد الخطط لاعادة النظام داخل صفوف القوات التركية نفسها التي كانت تعودت على نوع من الفوضى وانعدام الطاعة ، باعتبار ان ذلك هو الشرط الأساسي لاعادة الهيبة للسلطنة العثمانية التي كانت تهتم بالجانب العسكري الحربي وحده فقط دون أن تولي أدنى عناية للجوانب الاخرى التي تلعب دوراً هاماً في تحريك الثورات ضد الأتراك ؛ فقد قامت السلطنة العثمانية على القوة العسكرية وحدها ، وليس معنى ذلك أن ما عدا الخلافة العثمانية من حكم قد قام على اعتبار آخر غير القوة، ولكن معناه أن عنصر القوة العسكرية أبرز في السلطنة العثمانية منه في باقي الأنظمة التي حكمت العالم الاسلامي .

انصرف حسن باشا إذن إلى إعادة النظام الى صفوف القوات التركية، ثم حاول القضاء على بقايا ثورة القبائل التي كانت تقطن غربي مليانة، حتى يؤمن الطريق الى المعسكر الذي يحتاج اليه لمد وتأكيد نفوذ الباب العالي على المناطق الغربية من الجزائر ، وعلى مناطق المغرب الأقصى إن أمكن .

وفي الوقت الذي كان فيه حسن باشا يعنى بكل ذلك ، كان الكونت الكوديت قد عاد من أسبانيا على رأس أربعة آلاف جندي أمده بها البلاط الاسباني ، دخل بهم مدينة وهران في بداية سنة ١٥٤٦ .

وكان أبو عبد الله قد حاول قبل ذلك استرجاع عرش تلمسان وأعانه في ذلك القائد المنصور ، لكن أبا عبدالله وقع في الاسر وكذلك حفيد القائد المنصور ، الذي انسحب إلى وهران حيث مكث ينتظر عودة الكونت الكوديت .

فشل الهجوم الاسباني على مستغانم .

فرح الكوديت بالقائد المنصور ، لأنه كان يعتبر أن محالفته تمكنه من قوة كافيـــة لتحطيم قوة الأتراك إذ انها تضمن له تأييد قبائل ملاته وبني راشد وبني عامر . وتوجه الكوديت في بداية ربيع ١٥٤٦ إلى تلمسان . لكنه ما كاد يصل الى عـين تموشنت حتى سمع بأن أهل تلمسان استنجدوا بالأتراك ، وان حسان باشا قد سار اليه وانه ينتظر فقط توغل الكوديت في المناطق الداخلية ليفاجئه ويحمل حملة يقطع بها خط رجعته .

وكان مع حسن باشا ثلاثة آلاف تركي مسيحيين بالبنـــادق والف صبايحي وعشرة مدافع ، وانضم له في الطريق حميد العبدي شيخ تنس في الف فارس .

عندما سمع الكونت الكوديت بهذه الانباء عاد ادراجه لمواجهـــة حسان باشا ، وعسكر في مواجهته قريباً منه .

وبينما كان حسان باشا يستعد لخوض معركة فاصلة ضد الكوديت ، اذ بلغه نبأ وفاة والده خير الدين ، فاضطر الى الرجوع لمدينة الجزائر كي لا تقع فتنة وكي يتمكن من الاحتياط للقلاقل قبل وقوعها .

وتوهم الكوديت ان الفرصة مواتية للهجوم على حسان باشا ، فراح يتبعه واحتل مزغران مساء ٢١ أوت ثم حاول احتلال مستغانم ، الا ان حسان باشا كان قد حصن مستغانم تحصيناً منيعاً ، وفي نفس الوقت اقبلت من تلمسان قوات تتركب من خمس وعشرين الف من المسلمين الذين اجبروا على مغادرة الاندلس . واطبقت هذه القوات على الجيش الاسباني فقهرته ، واغتنم القائد الاسباني هبوط الليل فسحب جرحاه وحاول الهرب ، لكن المسلمين لاحقوه ، وتمكن الرعب والهلع من جمهرة المقاتلين الاسبان رغم ثبات قادتهم . ولم تتمكن فلول الاسبان من اللحاق بوهران الا بعد جهد جهيد .

عندما وصل حسان باشا الى مدينة الجزائر علم انه عين باي لارباي افريقيا خلفاً لابيه .

ولما عرف سكان تلمسان ان حسان باشا رجع الى مدينة الجزائر ، وان القائد الاسباني تمكن من الدخول الى وهران رغم الهزيمة التي حاقت به ، ارسلوا وفداً الى فاس يطلبون من الشريف محمد المهدي احتلال تلمسان ، حتى يسدوا الطريق امام الاسبان الذين قد يعاودون الهجوم عليها .

لكن حسان باشا ارسل الى محمد المهدي يقنعه بأن مصلحة الاسلام تقضي باجتماع القوتين ، قوة الاتراك وقوة سلطان المغرب ، لاخراج العدو المسيحي من وهران ، واقتنع محمد المهدي بوجاهة هذا الرأي وتواعد وحسان باشا على الاجتماع لمهاجمة وهران وتم ذلك سنة ١٥٥٠ م .

وتنفيذاً لمقتضى هذا الاتفاق جند حسان باشا خمسة آلاف تركي مسلحين بالبنادق وألف صبايحي ، وثمانية آلاف من زواوة يقودهم سلطان بني عباس . أما الأتراك فقد كانوا تحت قيادة حسن قورصو ، وتوجه الجميع الى مستغانم ، على أمل ان ينضم اليهم بنو عامر والقبائل المجاورة لها.

وكان من المقرر ان يتم اللقاء بين القوات الجزائرية والتركية ، والقوات المغربية في عين تموشنت ومن هناك تتوجهان قوة واحدة الى وهران .

وأرسل الشريف المهدي ابنه محمد الحران مع أحد وعشرين الف فارس وعشرة آلاف

رجل منهم خمسة آلاف مسيحي مرتزق . لكن محمد الحران خــان الاتفاق المبرم وقرر احتلال تلمسان لفائدة والده ، وعندما سمعت القيادة التركية الجزائرية بهـذا النبأ حثت السير الى الامام وهاجمت قوات محمد الحران في ريوسالادو الواقعة على الطريق بين وهران وتلمسان ، وانهزمت قوات الحران أثر معركة حامية الوطيس .

حينذاك أرسل سلطان المغرب عشرين الف رماح صحبة ولديه مولاي عبدالله ومولاي عبد الرحمن وكان الاتراك قد بلغوا جدران تلمسان يوم خمسة عشرة جانفي ١٥٥٢م وهاجم فرسان المغاربة الأتراك ، فقابلهم هؤلاء بنيران البنادق ، فلم يصــبر المغاربة الذين كانوا مسلحين بالرماح والتروس على هذه النيران وانهزموا ، وقتل مولاي عبد الرحمن في المعركة بينما فر أخوه عبدالله ، وتتبعت القوات التركية – الجزائرية المغاربة الفارين حتى ملوية بني عباس وكان لهم حظ وافر من هذا الانتصار .

وفي هذه المرة ترك الاتراك حامية قويـــة بتلمسان تتركب من خمسة آلاف جندي بقيادة الصفاح .

عندما تخلص حسان باشا من هموم الحرب. تذكر أن كدية الصابون كانت عدة مرات هدفاً لهجومات المغيرين ، فبني بها برج مولاي حسان الذي أصبح يحمل بعد ذلــك اسم حصن الامبراطور ، وقد جاءت هذه التسمية الفرنسية من اسطورة لا أساس لها من الصحة تقول ان شارلكان كان شرع في بناء ذلك الحصن ، وبعد أن بنى حسان باشا ذلك البرج تفرغ لتجميل مدينة الجزائر وبنا المرافق الضرورية بها : فبنى مستشفى للجنود الأتراك العجزة والمعطوبين ، كما بنى الحمامات الفخمة التي كان الاستحمام فيها للعموم وبالمجان .

وبينما كان حسان باشا بن خير الدين متفرغاً لهذه الأعمال العمرانية إذ تلقى أمراً من القسطنطينية بمغادرة الجزائر والمثول أمام الديوان . لمــاذا ؟ ذلك مـا سوف نراه في الفصل الآتي :

الديبلوماسية العثمانية والفرنسية الجديدة .

أدخل استقرار العثمانيين بالمغرب العربي تغيــيراً أساسياً على الوضع في حوض البحر الأبيض المتوسط ، وقد أدرك شارلكان هذا التغيير فحاول ان يفصل الجزائر عن السلطنة

العثمانية ويضمها الى مناطق نفوذه . كما رأينا في الفصول السابقة ، وادرك فرانسوا الأول أيضاً ملك فرنسا حقيقة هذا الوضع الجديد فبنى عليه سياسته الجديدة التي شرع فيها سنة ١٥٣٤ ، وهي سياسة التقارب مع الأتراك .

وقد يميل المؤرخ الى تفسير سياسة فرانسوا الأول بأنها ترجع فقط الى التنافس التقليدي بين ملوك أروبا ، لكن تحليل الوقائع التاريخية يشهد بأن هذا التفسير وحده غير كاف .

فقد فكر فرانسوا الأول فور اعتلائه عرش فرنسا في سنة ١٥١٥ في أن يتزعم حركة أروبية واسعة النطاق ضد النفوذ العثماني في المناطق الشمالية من افريقيا .

وعلى هذا الأساس تقابل مع البابا في مرسيليا خلال شهر جانفي ١٥١٦ . وفي هذه المقابلة وضعت الخطوط العريضة لتعاون حقيقي بين القوات البحرية الفرنسية وقوات روما وجنوة لمحاربة التسلل التركي الى حوض البحر الأبيض المتوسط .

وفي نطاق هذا التعاون قادت تلك القوات الأروبية حملة مشتركة ضد قوات خير الدين في سنة ١٥١٦ ، وفي هذا النطاق تدخل الهجومات الأروبية على بنزرت ثم على حلق الواد ، ونقول هجومات لأنها في الواقع عبارة عن سلسلة من الهجومات تكررت عدة مرات فيما بين سنة ١٥١٦ وسنة ١٥١٨ ، ففي سبتمبر ١٥١٦ وفي سبتمبر ١٥١٧ وفي شهر ماي ١٥١٨ تجمعت قوات فرنسية واسبانية وايطالية في مرسيليا ، وانطلقت نحو تونس والمهدية والمنستير .

وواضح أن هذه الهجومات الأروبية المتكررة على سواحل تونس كانت تهدف إلى بسط النفوذ المسيحي على تونس التي لم تكن في ذلك العهد واقعة تحت السيطرة العثمانية ، لأن بسط النفوذ المسيحي على تونس من شأنه أن يسهل بعد ذلك المحاولات التي ستهدف في مرحلة ثانية إلى اقصاء النفوذ التركي عن الجزائر ، والى توحيد شمال افريقيا تحت السيطرة المسيحية .

وقد ظل فرانسوا الأول وفياً لسياسة التعاون الاروبي ضد المغرب العربي سنوات طويلة ، فقد وضع في سنة ١٥٣٠ أحسن وحدات أسطوله الحربي تحت تصرف شارلكان ليستعملها في الحملة التي قادها أندري دوريا ضد الجزائر .

اذن فما هي العوامل التي دفعت فرانسوا الاول الى تغيير سياسته في سنة ١٥٣٤ والى التحالف مع الباب العالي ضد اخوانه المسيحيين ؟ . لا شك ان المنافسة التقليدية بين فرنسا واسبانيا لعبت دوراً هاماً في دفع فرانسوا الاول الى هذا الحلف ، لكن هنـــاك دوافع اخرى اقتصادية هي التي كانت المحرك الاساسي لسياسة فرانسوا الاول الجديدة .

فقد كانت فرنسا في حاجة الى أسواق تجارية جديدة ، وقد كان فرانسوا الاول يأمل من وراء تعاونه مع القوات الاسبانية والايطالية الى الاستيلاء على المغرب العربي واقتسام مناطقه مع أسبانيا ، لكنه لمس من فشل المحاولات المتعددة ضد العثمانيــين ، ان السلطنة العثمانية يجب ان يقرأ لها حساب في كل ما يتعلق بكامل مناطق البحر الابيض المتوسط ، وخصوصاً ، وانه بدأ يتضح أن النفوذ العثماني يسير بخطوات ثابتــة نحو أوربا الوسطى ، وليس من المستبعد أن يكون قد اطلع من جهة أخرى على المحاولات السرية التي عمد اليها شارلكان للانفراد ببسط نفوذه على الجزائر . وقد تجنب فرانسوا الأول الخطأ الذي كان ارتكبه شارلكان عندما أراد ان يتفاهم مع خير الدين وحسان آغــا على حساب الباب العالي ، فقد فضل فرانسوا الأول أن يتفاهم رأساً مع السلطان العثماني .

ويبدو أن السلطان العثماني من جهته قد أدرك أن الجزائر تمثل ، رغم وقوعها تحت نفوذه ، خطراً مستمراً ، ولا شك أن التقارير التي رفعها له ممثلوه وامراؤه قد أسهبت في الحديث عن الثورات العديدة التي نظمها الجزائريون ضد الأتراك . ومن المؤكد أيضاً أن تلك التقارير لم تغفل الحديث عن الامكانيات البشرية والموارد الطبيعيـــة التي تتمتع بها الجزائر .

كل ذلك أثار مخاوف السلطنة العثمانية التي أرادت أن تحكم الجزائر بطريقة تحول دون أن تتطور بها السلطة السياسية إلى قوة متكاملة تندفع بسرعة إلى الاستقلال ، وهـــذه المخاوف تفسر طريقة تعيين ممثل السلطان بالجزائر وتنوع النظام الاداري الذي استقر بها والذي سنتحدث عنه فيما بعد .

وقد رأت السلطنة العثمانية أن هذا المنطق يفرض عليها أن تقبل الحلف الذي عرضه فرانسوا الأول ، حتى تضمن حليفاً قوياً يكون تجاه الجزائر ، فيتعزز بذلك نفوذها ،

وحتى لا يوجـــد بالجزائر من يفكر في الانتفاض على الأتراك . ومعنى ذلك أن السياسة الخارجية التركية بنيت فيما يتعلق بالعلاقات مع فرنسا على اعتبارات سياسيـــة تنطلق من الجزائر .

ومجموع ذلك المنطق المستمد من مخاوف القسطنطينية من نزعة الجزائر الاستقلالية ، وتلك السياسة الخارجية التي يستلزمها ذلك المنطق – مجموع ذلك أدى بالأتراك إلى سلسلة من التنازلات للفرنسيين جعلتهم بطول الزمن يركزون مصالحهم في الجزائر ويعملون على ادخالها في مناطق نفوذهم بكيفية أو بأخرى .

ومهما يكن من شيء فالذي حدث هو ان فرانسوا الاول نجح في تحقيق التقارب مع السلطان العثماني ، وتقول كتب التاريخ الفرنسي ان خيرالدين أعلن على تحقيق هـــذا التقارب . وهو امر معقول اذا تذكرنا ان خيرالدين يعتبر انالاسبان هم اعداؤه الألداء ، وبناء على ذلك فهو يرى من الواجب استغلال كل فرصة ممكنة لاضعافهم وفصل حلفائهم الطبيعيين عنهم .

وقد نتج عن هذا التقارب بين الباب العالي وملك فرنسا ، تقارب آخر بين الجزائر وفرنسا ، ما دام والي الجزائر يعين من طرف القسطنطينية ويعتبر منفذا فقـــط لتعليماتها .

* * *

بناء على هذا التحالف الجديد وجهت فرنسا سفيراً الى الجزائر مهمته رعاية المصالح التجارية الفرنسية . وقد تعززت الروابط بين الباب العالي وفرنسا الى درجة ان الرئيس دراغوث المشهور وضع نفسه تحت تصرف هنري الثاني ملك فرنسا الذي استعمله ضد الاسبان .

وقد عرض السفير الفرنسي في الجزائر أثناء الحرب التي قامت بين حسان باشا وبين سلطان المغرب – عرض السفير الفرنسي على حسان باشا ان يعينه بالاسطول الفرنسي في حالة عزمه على مهاجمة وهران او فيما اذا فكر في تنظيم هجوم ضد الاندلس ويبـــدو أن حسان باشا رفض هذا العرض .

ويمكن تفسيره بأحد شيئين اولهما ان يكون حسان باشا قد فهم من عرض السفير الفرنسي انه عبارة عن استدراج له ليقدم على مغامرة داخل التراب الاسباني تعود عليه بأوخم العواقب ، في حين يكسب منها ملك فرنسا الذي يهمه اضعاف اسبانيا . الثاني : ان يكون حسان باشا واثقاً من قوة الجزائر واستطاعتها بمفردها ان تخرج الاسبان من قوة الجزائر واستطاعتها بمفردها أن تخرج الاسبان من ارضها وبناء على ذلك رفض العرض الفرنسي الذي لن تكون له من نتيجة ، في حالة تنفيذه ، الا تسجيله في قائمة حسابات جديدة سيسارع ملك فرنسا في استغلالها ومطالبة الباب العالي بمقابل عوضاً عنها ، قد يتمثل في تمكين الفرنسيين من امتيازات جديدة .

وسواء أكانت هذه او تلك فان السيد أرامون ذهب الى القسطنطينية وأوهم الديوان العثماني ان حسان باشا يفكر في الاستقلال بالجزائر ، وراح السفير الفرنسي يصور الأخطار التي تتمثل في قيام جزائر مستقلة حتى نجح في اثارة مخاوف السلطان العثماني الذي سارع باصدار الامر الى حسان باشا ان يقدم الى القسطنطينية . ومما يثبت انصات الباب العالي لـ « نصائح » السفراء الفرنسيين ، ان دراغوث الذي كان وضع نفسه تحت تصرف ملك فرنسا عين سنجاق وقائدا لاسطول يتركب من اربعين باخرة حربية .

وعندما تغيب حسان باشا بن خير الدين عن الجزائر خلفه القائد الصفاح مدة ثمانية اشهر ، قدم بعدها الوالي الجديد صالح رايس .

صالح رايس :

وصل صالح رايس الى الجزائر في نهاية أفريل ١٥٥٢ يحمل لقب باي لارباي افريقيا، واعطاء هذا اللقب للوالي التركي على الجزائر يكشف عن الأهمية التي كان يوليها الديوان العثماني للجزائر .

ويقال ان صالح رايس مدين بتعيينه في هذا المنصب لصداقة السفير الفرنسي الذي أدى له خدمات جليلة .

وصالح رايس أصله من الاسكندرية ، وقد تعلم فنون الحرب والبحرية في سن مبكرة أثناء أسفاره العديدة مع عروج وخير الدين ، وقد سبق للسلطان العثماني ان عينه على رأس اسطوله البحري قبل أن يوجهه الى الجزائر .

وما كاد صالح رايس يصل الى الجزائر ، حتى واجه ثورة عنيفة في الجنوب : فقد ثار قائد تقرت وقائد ورغلة معتمدين على طول المسافة التي تفصل بين بلديهما وبين مدينة الجزائر ، ورفضا الاعتراف بالوالي العثماني ، وظنا أنه لن يجرؤ على أن يغامر بنفسه وجنوده في صحارى لا يعرفها .

لكن صالح رايس كان يدرك ان هذه الثورة ستكون هي امتحانه الأول في الجزائر ، وكان يعرف ان خطوته لدى الباب العالي مرهونة بنجاحه في قمعها .

لذلك لم يتردد في السير الى الجنوب على رأس ثلاثة آلاف جندي مسلحين بالبنادق وألف صبا يحي وثمانية آلاف من قبائل زواوة على رأسهم عبد العزيز ، وتمكن صالح رايس من الاستيلاء على تقرت بعد حصار دام أربعة أيام، ثم استولى بعد ذلك على ورقلة، وسلط قمعاً شديداً على سكان المدينتين ، ثم فرض على قائديها اتاوة ، ثم قفل راجعاً الى الجزائر مستصحباً معه مغانم ضخمة تشتمل على خمسة عشر بعيراً محملة بالذهب واكثر من خمسة آلاف من العبيد .

عاد صالح رايس الى الجزائر مزهواً بانتصاره ، تطوف بذهنه أحلام عديدة تتصل بما يمكن أن يدره عليه هذا الانتصار من عزة ومكانة لدى السلطان العثماني ، ويتصل بالمشاريع والآفاق الجديدة التي يفتحها الانتصار على الجنوب أمام السلطة التركية في الجزائر .

وقد نسي صالح رايس في زهوه هذا ان يقرأ حساباً لحليفه عبد العزيز سلطان بني عباس ، فقد قلل من قيمة المساندة التي بذلها له عبد العزيز ولم يقدرها حق قدرها ، وقد

تبين ذلك في قسط المغانم التي خصها صالح رايس لجنود السلطان عبد العزيز .

اغتاظ السلطان عبد العزيز من هذه المعاملة ، لكنه لم يعلن مع هـذا أي تمرد إلا أن حسان قورصو الذي لم ينس نظرة الاحتقار التي نظر بها اليه عبد العزيز أثناء حملة المغرب في سنة ١٥٥٠ ، أراد أن يغتنم هذه الفرصة ، فأوهم صالح رايس أن عبد العزيز يستعد للتمرد . فأرسل اليه ليقدم الى الجزائر ، وقـام عبد العزيز بالفعل الى مدينة الجزائر فأسكنه الأتراك قصر الجنينة ، لكن عبد العزيز علم بالمقصود الحقيقي من وراء انزاله بقصر الجنينة ، فهرب ليلا على متن فرس والتحق بالجبل . وابتدأت معركة من أعنف المعارك التي واجهتها السلطة التركية في الجزائر .

وقرر صالح رايس أن يسير الى السلطان عبد العزيز رغم ان الفصل لم يكن مناسباً ، لانه كان مزهواً بانتصاره القريب في الجنوب ، والتقى صالح رايس بفرق عبد العزيز التي كان يقودها أخوه الفاضل في جبل بوني . وانتصر صالح رايس في هـذه المعركة التي قتل فيها الفاضل أخوه عبد العزيز ، لكن هـذه المعركة – رغم انهزام فرق زواوة – منعت صالح رايس أن يتوغل أكثر من ذلك في بلاد القبائل ، واغتنم عبد العزيز فرصة تراجع صالح رايس فراح يعمل على تحصين القلعة ، كما عمل على استمالة سكان المناطق المجاورة للقلعة . وعندما جاء فصل الربيع وجه صالح رايس ابنه محمد على رأس الف جندي مسلحين بالبنادق وخمسمائة صبايحي وستة آلاف فارس ونشبت المعركة بين الجانبين قرب القلعة، وانهزم الاتراك الذين أطبقت عليهم قوات عبد العزيز من كل جانب ، ولم تتمكن فلول الاتراك من اللحاق بالجزائريين الا بعد عناء شديد، رغم ان سلطان كوكو كان قد بذل اعانته للاتراك .

وفي السنة الموالية أراد صالح رايس أن ينتقم من هـذه الهزيمة فوجه حملة جديدة ضد عبد العزيز يقودها سنان رايس والقائد رمضان، وانتصر عبد العزيز مرة أخرى في معركة نشبت في واد اللحم ، وألحق بالاتراك أفدح الخسائر ، ويقال ان قائدي الحملة التركية لم

يتمكنا من اللحاق بمسيلة الا بعد تعب شديد صحبة عدد قليل من الفرسان .

* * *

حملة صالح رايس على المغرب :

في هذا الوقت كان أبو حسون علي بن محمد الوطاسي ابن مؤسس مملكة بني مرين ، يبحث في اسبانيا عن مساندة شارلكان ليعينه على استرجاع عرشه ، وقد لمع أبو حسون في صفوف جيش شارلكان لكنه لم يتمكن من أن يحصل منه على أي شيء ، فذهب الى البرتغال حيث تبنى ملك البرتغال مشروعه وأعطى له ستة بواخر يستعين بها على تحقيق مراده .

في هذا الظرف كان اسطول صالح رايس ينظم هجوماته على السواحل الاسبانية تنفيذاً لمطلب ملك فرنسا هنري الثاني الذي أراد من صالح رايس أن يقلق الاسبان بناء على الاتفاقية المبرمة بين العثمانيين ومملكة فرنسا .

سمع صالح رايس بتحرك ابو حسون ، وكان حينذاك قرب شواطيء ميورقة ، فغادرها متوجهاً نحو مضيق جبل طارق حيث استولى على ابو حسون وعلى بواخره البرتغالية في الخامس من جويلية ١٥٥٣ .

احتفظ صالح رايس بابو حسون في الاسر وقاده الى الجزائر .

لكن ابو حسون عرف كيف يستهوي صالح رايس وعرف كيف يستعمل لهجة الدين المشترك . ثم عرف كيف يهز في صالح رايس رغبة التوسع ولوح له بامكانية ضم المغرب الى الجزائر تحت الراية العثمانية .

طبعاً تركت هذه المشاريع البراقة أثرها في نفس صالح رايس ، فقرر في اواخر سنة ١٩٥٣ ان يرسل الى مليلة اثنتي وعشرين باخرة حربية ، بينا سار هو عن طريق البحر الى المغرب ، على رأس احد عشر الف جندي ، ثم ضم اليه في الطريق حامية تلمسان ، وقد برر صالح رايس حملته هذه ضد المغرب بدخول المغاربة الى ما وراء الحدود التي كانت قائمة بين الجزائر والمغرب .

عندمـا وصل صالح رايس الى تازة اصطدم بفرق الشريف التي كانت تريد ان تسد طريق فاس على صالح رايس ، والتي كانت تعد نحو الخمسين الف جندي .

عسكر صالح رايس في مواجهة هذه القوة الضخمة ، ولم يكن ابو حسون الذي كان يجمع حينذاك صفوف بني مرين ليعزز بعد ذلك قوات صالح رايس — لم يكن أبو حسون قد وصل بعد إلى حيث عسكر صالح رايس .

ورغم الفرق الكبير في عدد جنود القوتين المتقابلتين ، فإن عدداً من قوات الجيش الشريفي كانوا يؤيدون أبو حسون . لذلك خاض المعركة وتم له ما أراد وأجبر الجيش الشريفي على الانسحاب إلى فاس التي بلغها بعد تسعة أيام .

وبعد أن التحق أبو حسون بصالح رايس ، واصل هذا الأخير سيرتـه نحو فاس التي بلغها في الثالث من جانفي ١٥٥٤ . وابتدأت المعركة من الغد أمام أبواب فاس واستمرت يومين كاملين ، انسحب اثرهما محمد المهدي تحت ظلام الليل تاركاً فاس للأتراك ، فدخلها صالح رايس يوم السادس من جانفي وأباح نهبها .

ومكث صالح رايس أربعة أشهر في فاس ، أعلن خلالها أبو حسون ملكا على فاس تحت الحماية العثمانية ،وبعد أن أرسل بالمغانم التي احرز عليها إلى القسطنطينية وإلى الجزائر ، رجع إلى الجزائر التي بلغها في أواخر الربيع أو منتصف الصيف (فهناك اختلاف قليل في الروايات المؤرخة لعودة صالح رايس للجزائر) .

واغتنم محمد المهدي انسحاب الأتراك فهاجم أبو حسون وبينما كانت المعركة على أشدها اذ فاجأ أحد الأتراك رشاه محمد المهدي — أبو حسون بضربـة في مؤخرة رأسه ، فقتل وتفرق شمل جنوده ودخل محمد المهدي الى عاصمته في خريف ١٥٥٤ .

وقد لاحظ الشريف السعدي أن موقع مدينة مراكش أكثر مناعة من مدينة فاس ، فانتقل اليها وجعلها عاصمة ملكه .

طرد الاسبان من بجاية :

كان صالح رايس في طريق عودته من المغرب يفكر في الاحراز عـلى انتصار آخر

يعزز مكانته بعد الانتصارات التي احرزها في الجنوب وفي المغرب ، وبعد ان اطمأن على غرب الجزائر ، وكان صالح رايس بحكم الحروب التي خاضها الى جنب عروج وخير الدين يعتبر الاسبان اعداءه التقليديين ، فقرر طردهم من مدينة بجاية .

وبعد ان احكم خطة مهاجمة بجاية ، غادر مدينة الجزائر في جوان ١٥٥٥ متوجهاً الى بجاية عن طريق البر ، على رأس قوات تركية وعدد من جنود سلطان كوكو ، ووجه عن طريق البحر عدداً من بواخره تحمل المدافع .

نزل صالح رايس مع وادي الساحل الذي بلغه في نفس الوقت الذي وصلته بواخره التي تمكنت من الصعود مع الوادي بفضل تجذيف العبيد الذين كانوا بهـــا وبفضل تضخم الوادي بسبب نزول امطار غزيرة في منتصف سبتمبر، وراحت قوات صالح رايس تطلق نيران مدفعيتها صوب حصون الاسبان ، وحصدت المدافع التركية القصر الامبراطوري في ظرف يوم ونصف ، ثم سقطت القصبة في اليـــوم السادس ، ولم تجد قيادة الحامية الاسبانية بدأ من الاستسلام بعد ان فقدت ثلاثة أرباع قواتها ، ودخـــل الجزائريون الى بجاية في الثامن والعشرين من شهر سبتمبر واستعادوها نهائياً .

ولم يهضم الاسبان هذه الهزيمة فحاكموا قائد حاميتهم ببجاية النسودي بيرالتا بعـــد وصوله الى اسبانيا ، وحكمت المحكمة العسكرية التي مثـــل امامها بقطع رأسه في الميدان العمومي .

صادفت هـــذه الهزيمة الاسبانية التي تتمثل في طردهم من بجاية ، صادفت عرضاً من طرف سلطان مراكش يعرض عليهم ان يعينوه على طرد الأتراك من الجزائر .

ولا شك أن هذا العرض صادف هوى لدى المسؤولين الاسبان ، لكن صالـح رايس الذي برهن في غير من مرة على حنكة حربية اطلع على المشروع الأسباني المغربي — لأن كلا من الشريف السعدي وحاكم وهران الاسباني كان يستعمل في هـــذه المفاوضات السرية كمترجمين يهودا من مهاجري الاندلس ، فأطلـع هؤلاء اليهود مواطنيهم من المسلمين الذين هاجروا الأندلس ، وهؤلاء أبلغوا بدورهم أسرار التفاوض الى السلطات التركية . فأرسل صالح رايس الى الباب العالي يحدثه عن المشاريـع المشتركة بين أسبانيا والمغرب ، ويشرح له ضرورة توجيه ضربة قاسية الى كل منهما .

وقد رأى صالح رايس أن أحسن ضربة توجه الى المغرب واسبانيا في آن واحد ، تتمثل في استرجاع وهران وطرد الأسبان منها لتكون منطلقاً بحرياً لمهاجمة مملكة الاشراف السعديين .

تلقى صالح رايس الاذن بتنفيذ هذه الخطة ، وارسل له الباب العالي في نفس الوقت ثلاثين باخرة حربية وأربعة آلاف جندي تركي .

عندما اقتربت هذه القوة من الشواطىء الاسبانية ، وجه لها صالح رايس الامر بأن ترسي في رأس ماتيفو حيث كان يوجد هو نفسه صحبة أربعة آلاف جندي وثلاثين باخرة ، ذلك ان صالح رايس كان خائفاً أن ينتشر في الجيش الطاعون الذي ظهر في مدينة الجزائر منذ ستة أشهر تقريباً . وكان صالح رايس يرغب في الوقت نفسه في حث السير الى وهران ليفاجىء حاميتها قبل ان تتصل بنبأ المدد القادم من القسطنطينية .

وسارت بالفعل قوات برية في اتجاه وهران تتكون من حوالي ثلاثين الف جزائري على ان يلحق بها صالح رايس بعد قليل .

وبينما كان صالح رايس يستعد لمغادرة رأس ماتيفو ، وفي الوقت الذي كانت فيه البواخر على أهبة الاقلاع متوجهة الى وهران ، مات صالح رايس مصاباً بالطاعون وقد ناهز سبعين سنة ، في جوان ١٥٥٦ .

الباب الرابــع

الجزائر في عهد الباي لارباي

- بدء المعركة بين طائفــة الرياس وفرقة اليولداش .
- عودة ابن خير الدين .
- انتصار بني عباس على الاتراك .
- فشل الحملة المسيحية ضد الجزائر .
- التمرد على حسن باشا .
- محمد بن صالح رايس .
- محاولة دمج طائفة الرياس مع اليولداش .
- ثورة قسنطينة وتعيين قلج علي .
- بدء المطامع الفرنسية في الجزائر .
- انتهاء عهد الباي لارباي .

بدء المعركة بين الرياس واليولداش

ما ان سمع حسان قورصو ، خليفـــة صالح بموت الباي لارباي ، حتى أمسكه بزمام الحكم وقرر من تلقاء نفسه أن يواصل تنفيذ الخطة التي كان شرع فيها صالح رايس .

وصل حسان قورصو إلى وهران ، عن طريق البحر ، وكانت البواخر الحربية قد أنزلت في شط عين الترك المدفعية ، بعـــد أن تركت قسماً من الذخيرة والتموين في مستغانم .

وابتدأ حصار المدينة براً وبحراً ونصبت المدفعية في ناحيتين: الأولى عند باب تلمسان، والثانية فوق الجبل غربي المدينة، وتمكن حسان قورصو من الاستيلاء على حصن القديسين ثم شرع يضيق الخناق على الحامية الاسبانية ، وقد كان سقوط وهران أمراً غير مشكوك فيه ، لولا أن حسان قورصو تلقى من الباب العالي رسالة حملها اليه قلج علي تأمره برفع الحصار عن وهران ، بدعوى أن القسطنطينية في أشد الحاجة إلى بواخرهـا الحربية لرد عدوان أندري دوريا الذي كان يهدد شواطىء البوسفور .

هذا هو السبب الذي تقدمه الروايات التاريخية لتفسير الأمر برفع الحصار ، لكن دي بورمون يقدم في هذا المجال احتمالاً آخر ملخصه ان السلطان العثماني لم ترقه الطريقة التي استولى بها حسان قورصو على الحكم ، وانه خشي منه ان هو تركه على رأس هـذه القوة الضخمة إلى أن يستولي على وهران ، أن يدفعه هذا الانتصار مضافـــاً لكل تلك القوة ، إلى التفكير في الاستقلال بالجزائر ، وربمـــا المغرب ، والانفصال عن السلطنة العثمانية .

والواقع انه ليس في تطور الأحداث التي جرت بعـــد ذلك ولا في منطق السياسة العثمانية بالجزائر ما ينافي هذا الاحتمال ؛ ومهما يكن من شيء فان حسان قورصو رفع الحصار عن وهران وهو أشد ما يكون يقيناً بقرب الانتصار ، واضطر إلى التخلي عن

قسم من عتاده الحربي ، واغتنم قائد الحامية الاسبانية هذا الانسحاب فراح يطارد القوات الجزائرية ، واغتنم محمد المهدي هذه الفرصة بدوره فهاجم تلمسان واستولى عليها ، لكنه لم يتمكن من الاستيلاء على المشوار الذي استبسل في الدفاع عنه الأتراك الذين تتركب منهم حامية تلمسان .

كان حسان قورصو يفكر في نتائج رفع الحصار عن وهران ، والمرارة تحز في نفسه ان سُرِقَ منه هذا الانتصار العظيم الذي كان يراه ماثلا أمامه قريباً ، والذي كان سيجعل منه علماً بارزاً من أعلام ذلك العصر لا يقل سمعة وهيبة وخطورة عن عروج وخير الدين . وفيما كان حسان قورصو نهباً لهذه المرارة وهذه الألم ، إذ بلغه نبأ تولية جلبي كرداوعلي . فثار على هذه التولية وأطلق في وجه قوات الباي لار باي الجديد مدافع عنابة وبجاية ، ومنعه من دخول ميناء الجزائر . لكن طائفة الرياس قررت مساندة الباي لارباي الجديد فأدخلته ليلاً إلىمدينة الجزائر وأوصلته إلى القصر وأعلنت الولاء له، وفي نفس الوقت تم إلقاء القبض على حسان قورصو وقتله.

ذلك أن طائفة الرياس كانت تعتبر أن أعضاءها أحق بالولاية نظراً لسابق صحبتهم مع عروج وخير الدين – وقد بدأت طائفة الرياس تشعر بمنافسة الجنود اليولداش الذين كانوا ينظرون بعين الحسد الى الثروات التي كدسها الرياس خلال غاراتهم البحرية العديدة، وكان جنود حسان قورصو ويتوقون الى المساهمةفي الغزوات البحرية،ويطمحون الى مثل تلك الثروات ، وليس هناك من شك في أن طائفة الرياس كانت تخشى نواة هذه القوة النامية ، لذلك ما لبثت قيادة طائفة الرياس ان تفاهمت مع مبعوث الباب العالي ومساندته ضد حسان قورصو ، مشتغلة المناصب التي يحتلها الرياس – فمنذ استقرار الاتراك بالجزائر ، كان رياس البواخر الحربية هم الذين يعهد اليهم بحراسة الميناء والأبواب البحرية للمدينة ، واستغل الرياس ظلام الليل فاحتلوا في سكون الليل الانهج المجاورة لمدخل الميناء وفاجأوا حراس القصر والحصون وعوضوهم برجالهم ، وعندما استيقظت المدينة في الصباح وجدت نفسها تحت مدافع الباشا الجديد الذي أذاع أوامره من الجنينة، وسلطت طائفة الرياس التعذيب على قائدي عنابة وبجاية لتأييدهما لحسان قورصو .

فوجئت فرقة اليولداش التركية بموجة الارهاب تنصب عليها من كل جهة ، لكن

الخضوع والاستسلام الذي فرضته المفاجأة ما لبث أن ترك المكان لرغبة قوية في الانتقام، وتزعم يوسف قائد تلمسان السابق حركة الانتقام لمقتل حسان قورصو الذي كانت تربطه به روابط صداقة قديمة ، وانتظر المتآمرون أن تحين الفرصة المواتية لاعلان حركتهم ، وكان الطاعون لا يزال منتشراً في العاصمة ، وكان الباشا قد التجأ الى مكان يبعد عن العاصمة بثلاثة أميال نصب فيه خيامه على شاطىء البحر هروباً من الوباء وانتظر المتآمرون تغيب معظم الرياس في احدى غاراتهم البحرية ، فاستولوا على أبواب المدينة ، بينما هجم زعيمهم على معسكر الباشا الذي سارع بركض على فرسه الى المدينة لينظم رد الفعل ، الا انه فوجىء بالابواب تغلق في وجهه ، ولاحقه يوسف الى ان لحقه وطعنه برأس حربته فأرداه قتيلاً .

لكن يوسف لم يلبث ان مات بالطاعون على ما يقال بعد ستة أيام من انتصاره على الباشا فخلفه في سنة ١٥٥٧ القائد يحيى الذي كان اختاره صالح رايس لخلافته أثناء تغيبه عن الجزائر ، وحاول القائد يحيى أن يحفظ النظام في انتظاره مقدم الباي لارباي الذي سيعينه الباب العالي ، الذي وقع اختياره مرة ثانية على ابن خير الدين .

عودة ابن خير الدين .

كان الديوان العثماني في هذه المرحلة من تاريخ الدولة العثمانية أشد ما يكون قوة واعتدادا ، ولم يكن قد تسرب اليه الاحتلال والوهن الذي نال منه بعد ذلك .

من أجل ذلك لم ترق أحداث الجزائر للباب العالي ، ولم ينظر الى مقتل كردا وعلي نظرة رضا ، ورأى في ذلك كله بوادر تدل على وجود استعداد للتمرد عليه ان هو لم يعالج الأمور في الابان .

لكن طبيعة النظام العثماني الذي كان قائماً على القوة العسكرية والروح العسكرية التي تطورت بعد ذلك الى روح طائفية ضيقة ، حال دون ان تنظر الدولة العثمانية الى المشكل نظرة سليمة وبالتالي حال دون ان تهتدي الى الحل الأسلم الدائم .

ومهما يكن من شيء فقد رأى الباب العالي أن العلاج الأنسب لحوادث الجزائر هو

تعيين حسان بن خير الدين مرة اخرى في منصب باي لارباي نظراً لما كان يتمتع به من سمعة طيبة بين سكان الجزائر من جهة وبين طائفة الرياس البحريين رفاق ابيه من جهة اخرى ؛ ولئن كان السفير الفرنسي ينظر بعين الارتياب الى هذا التعيين فقد بذل الوزير الاكبر مجهوده لكي يصالح بين ابن خير الدين وممثل الملك الفرنسي .

وصل حسن باشا الى الجزائر في شهر جوان ١٥٥٧ ، على رأس عشرين باخرة حربية ، تكفي اذا ضمت الى قوة الرياس البحريين بالجزائر في تكوين قوة كافية لخضد شوكة فرقة اليولداش التي اضطرت الى الاستسلام .

وعندما وصل حسن باشا الى الجزائر وجد أمامه وضعية صعبة ، ذلك أن الشريف السعدي استغل الفوضى والاضطراب الذي ساد الجزائر فهجم على تلمسان وانتصب بها القائد منصور الذي أعلن حفيده ملكاً على تلمسان وان كان لم يتمكن من الاستيلاء على المشوار كما قلنا سابقاً الذي استبسل في الدفاع عنها جنود الحامية التركية .

فبادر حسن باشا بالسير الى تلمسان لانقاذ الحامية المتحصنة بالمشوار ، يصحبه ستة آلاف جندي تركي وستة عشر الف من الجزائريين ، وما ان سمعت قوات الشريف السعدي بقدم الجزائريين حتى فرت عابرة الحدود الجزائرية الى التراب المغربي، فتعقبتها القوات الجزائرية الى ان لحقت بها على أسوار فاس ، وكانت القوات المغربية تتركب من أربعة آلاف جندي مسلحين بالبنادق وثلاثين ألف فارس ، وعشرة آلاف من المشاة ، ونشبت معركة عنيفة أسفرت عن خسائر فادحة في الجانبين ، لكن المعركة لم تكن مع ذلك فاصلة ، اذ لم يتبين فيها المنتصر من المنهزم .

وقد صممت قيادة القوات الجزائرية على أن تواصل المعركة الى مداها ، لأن حسن باشا كان يدرك مدى السمعة والمكانة التي يكسبها لدى الباب العالي ان هو تمكن من قهر المغرب وضمه الى الجزائر تحت الراية العثمانية ، كما كان يعرف أن ذلك هو الطريق الوحيد لتشديد الخناق على القوات الاسبانية في وهران وطردها من هناك .

لذلك ما ان جاء الليل حتى عسكر حسن باشا فوق ربوة قريبة من ميدان المعركة استعداداً لاستئناف القتال من الغد ، وفيما هو يعد الخطة لمعركة الغد ، إذ بلغه أن

القوات الاسبانية التي تحتل وهران تستعد لتقطع عليه خط الرجعة فيما اذا انهزم ، ولتهاجمه من الخلف فيما اذا استمرت المعركة طويلاً ، ولما كانت قوات الحسن الثاني قد تكبدت خسائر فادحة فقد رأى ان المصلحة تملي عليه الانسحاب وانه من الخطر المغامرة بما تبقى معه من قوة وتعريضها للوقوع بين قوتين عدوتين .

فانسحب حسن باشا، وترك نيران معسكره مشتعلة حتى لا تفطن القوات المغربية الى انسحابه .

وانقسمت القوات الجزائرية – التركية في انسحابها الى قسمين : قسم أخذ طريق تلمسان وقسم سلك طريق فصاصة حيث كانت البواخر في انتظارهم لتنقلهم الى الجزائر .

وقد تبين حسن باشا على ضوء هذه الحملة من حقيقة كان قد غفل عنها قبلاً : وهي أنه من المستحيل عليه ان يقود حملة قوية ضد المغرب طالما استمر الاسبان في احتلالهم لوهران ولذلك قرر ان يطردهم من هذه القاعدة قبل ان يتوغل من جديد في التراب المغربي .

وبما أن الباب العالي ، كان قد اوعز اليه ان يستعمل كل الاساليب الممكنة للتخلص من الأشراف السعديين والقضاء عليهم ، فقد تفاهم حسن باشا مع احد ضباطه ، وهو صالح الكاهية على حبك حيلة لقتل سلطان المغرب ، فتظاهر صالح الكاهية انه فر على رأس بعض جنوده الى المغرب، فتلقاه محمد المهدي بالترحاب وعينه ضمن حرسه الخاص . واغتنم صالح الكاهية فرصة احد الاستعراضات العسكرية فهجم على السلطان وقطع رأسه بينما كان رفاقه يقتلون اعضاء الحرس تقتيلاً .

***

سقط في يد الكوديت ان يفلت منه حسن باشا ويفسد عليه خطته خصوصاً وانه احس من جهة اخرى ان عودة الاتراك الى السيطرة على تلمسان ستشد الخناق على القاعدة الاسبانية في وهران .

لذلك قرر الكوديت الهجوم على مستغانم ليجعلها نقطة انطلاق لهجوم كبير ضد الجزائر وانضم ابن بو غانم الى الكوديت بقواته ، بعد اتفاق مع سلطان المغرب على أن

يتوجه الى مليانة ليسد الطريق امام حسن باشا فيما اذا فكر في الخروج من الجزائر الى الشلف .

شرع الكوديت في مسيرته نحو مستغانم يوم ٢٢ أوت ١٥٥٨ على رأس اثني عشر الف اسباني ومدفعية ضخمة وعدد كبير من قوات القوم ، وفي نفس الوقت كانت البواخر تسير في خط مواز مع البحر تحمل المؤونة والذخائر .

لكن حسن باشا كان قد احتاط للأمر ، فاستولت قواته البحرية على البواخر الاسبانية بالقرب من ارزيو . ونزل النبأ نزول الصاعقة على القوات الاسبانية التي تحطمت معنوياتها وفقدت التموين واصبحت نهبا للمجاعة لان قلج علي كان قد خرج من تلمسان وقطع على الجيش الاسباني خط التموين عن طريق البر ووجدت القيادة الاسبانية انه لا مناص لها من مواصلة السير الى مستغانم ومحاولة الاستيلاء عليها قبل ان يلحق بها جيش حسن باشا ، لكن سكان مستغانم دافعوا عن بلدهم دفاعاً مستميتاً ، فقد كانت المعارك دائرة في كل مكان من المدينة ، وامام كل منزل . وما ان سمع حسن باشا بانهاء هذه المعركة حتى حث السير الى مستغانم التي وصلها في منتصف نهار فضرب الاسبان ضربة قاسية شلت قوتهم والحق بصفوفهم خسائر فادحة ، ووجدت القوات الاسبانية انها هي التي وقعت في الفخ بعد ان كانت خطتها هي إيقاع القوات الجزائرية بين قوتين عدوتين ، وقتل القائد الاسباني الكوديت في المعركة بينما كان يحاول الفرار مع ابنه ووقع دون مارتان في الأسر ، وعندما بلغ نبأ الهزيمة الى اسبانيا اخفته الحامية الملكية عن شارلكان الذي كان في ساعة الاحتضار اذ ان اسبانيا خسرت في هذه المعركة احسن ضباطها وكان ذلك في شهر سبتمبر ١٥٥٨ .

انتصار بني عباس على الاتراك :

عاد حسن باشا الى الجزائر منتصراً ، واتجه بتفكيره الى المناطق الشرقية من الجزائر التي اصبح متخوفاً منها بعد الانباء التي وصلتها عن استعدادات سلطان بني عباس العسكرية ، وفعلاً فقد كان السلطان عبد العزيز ، سلطان بني عباس ، يسيطر من عاصمته على سهل مجانة الفسيح ، وهو بسيطرته على هذا السهل يتحكم في الطريق بين عاصمة الشرق

الجزائري ، قسنطينة ، وبين الجزائر ، وبالتالي فهو يتحكم في الطريق بين الجزائر وتونس ومعنى ذلك بعبارة اخرى ان عدم خضوع هذه المنطقة للاتراك يعني ان السلطة التركية فقدت الشرط الاساسي الذي يضمن استمرار نفوذها على الشرق الجزائري .

وقد حاول حسن باشا اخضاع السلطان عبد العزيز بالقوة لكنه لم يستطع ، فحاول استمالته بطريقة اخرى اذ عرض عليه أن يصاهره ، لكن يبدو ان السلطان عبد العزيز كان يفكر في تنظيم مملكة مستقلة عن الاتراك تكون بجاية عاصمة لها ، وقد كان استعد لذلك باكتساب مدفعية ضخمة وتجهيز ذخيرة حربية كافية ، كما ضم الى جيشه عدداً من المرتزقة المسيحيين الذين فروا من أسر الاتراك .

وقبل أن يشرع حسن باشا في تنظيم حملته ضد عبد العزيز أراد ان يضمن ولاء سلطان كوكو ، أحمد بن القاضي ، فتزوج ابنته ثم سار الى بني عباس ، فاستولى على المسيلة وشيد حصوناً في زمورة وعلى مقربة من برج بوعريريج وترك في تلك الحصون حاميات تركية تؤمن الطريق الى قسنطينة . لكن السلطان عبد العزيز استولى بسرعة على تلك الحصون فور انسحاب حسن باشا من المنطقة ، فاضطر حسن باشا الى خوض المعركة من جديد ضد عبدالعزيز الذي كان يستعمل فن حرب العصابات المنهك للقوات التركية التي لم يكن لها به عهد ، وكان عبد العزيز يستغل معرفته ومعرفة رجاله بمسالك الجبال في تنظيم معارك جزئية صغيرة. وفي واحدة من تلك المعارك قتل السلطان عبد العزيز فخلفه أخوه أحمد أمقران الذي تمكن من الصمود في وجه الاتراك الذين انسحبوا في نهاية الامر وقد أنهكتهم طبيعة تلك المعارك ، وكانوا يعزون انفسهم بأنهم أخذوا معهم رأس عبد العزيز (سنة ١٥٥٩) .

ولم يبق أحمد أمقران مكتوف اليدين ، فوسع نطاق نفوذه بالاستيلاء على كوكو ، وأجبر الاتراك بعد حرب منهكة استمرت عامين ، على ان يتفاهموا معه في ١٥٦١ ويعترفوا به سلطاناً .

فشل الحملة المسيحية ضد الجزائر :

ويبدو أن من بين العوامل التي دفعت حسن باشا إلى التفاهم مع سلطان بني عباس هي الاستعدادات المسيحية التي سمع بها،فقد بدأت المشاريع التي ظل البابا بيوس الرابع يدعو لها من زمان ، والتي تتمثل في تنظيم هجومات واسعة النطاق ضد الجزائر – بدأت تلك المشاريع تتجسم ، فقد تجمعت في موانىء اسبانيا وصقلية وايطاليا قوات هائلة . وكانت خطة هذه القوات المسيحيـــة تتمثل في الاستيلاء على طرابلس الغرب في مرحلة اولى ، لتترك بها أسطولاً ينضم اليه أسطول صقلية ومالطة ، وتكون مهمتـــه هو الحيلولة دون أن تصل أية امدادات بحرية من القسطنطينيـــة إلى الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط ، وبذلك تصبح الجزائر في عزلة وتصير عاجزة عن أن تواجه بمفردها هـــذه القوات المسيحية ، وآنذاك تتحقق المرحلة الثانية من الخطـــة وهي الاستيلاء على الجزائر .

عين دوق مدينا – سيلي قائداً عاماً للحملة التي كانت تشتمل على عشرة آلاف رجل وتسع وسبعين باخرة ، تقرر أن تنضم اليها بواخر فلورنسا وموناكو وصقلية وجنوة .

تحركت وحدات الاسطول المسيحي يوم ١٠ فيفري ١٥٦٠ ، ومضى ما يقرب من شهر على ذلك عندما نشبت المعارك يوم ٨ مارس على شواطىء جربة ، لكن الامداد قدمت بسرعة من القسطنطينية يوم ١٥ مارس فشتتت البواخر المسيحيـــة ، ثم حاصرت البرج الذي كان يحتله المسيحيون في الجزائر ، وانتهت المحاولة المسيحية بهزيمة شنعاء فقد فيها المسيحيون أحسن بواخرهم الحربية ، ونحو العشرة آلاف جندي بين قتيل وأسير .

وفي نفس الوقت الذي تنظمت فيـــه هذه المحاولة ، عزز سلطان المغرب هجوم المسيحيين بهجوم شنه هو على تلمسان التي طرد منها الأتراك ، لكنه ما ان علم بانهزام المسيحيين حتى انسحب عن تلمسان .

وهذا الهجوم المغربي عن تلمسان أثار من جديد مخاوف الأتراك فيما يتعلق بالناحية الغربية من الجزائر – ففكر في تنظيم حملة ذات هدف مزدوج : ضد المراكز الاسبانيـــة في وهران من جهة ، وضد سلطان المغرب من جهة ثانية .

إلا أن تنفيذ مثل هذا المشروع كان يصطدم بعقبة كأداء في نظر حسن باشا تتمثل موقف الجنود الأتراك بعد أن يتغيب هو عن الجزائر ، فهو لم ينس أن فرقة اليولداش التركية ستغتنم أول فرصـــة تسنح للانتقام من الرياس البحريين ومن حسن باشا الذي اعتمد عليهم .

وأراد حسن بن خير الدين ان يحتاط للامر بتجنيد عـدد كبير من رجال زواوة يترك مدينة الجزائر تحت حراستهم أثناء تغيبه .

التمرد على حسن باشا وابعاده

وقد كان ما توقعه حسن باشا صحيحاً . لكن الجنود الاتراك لم ينتظروا تغيبه عن الجزائر لينفذوا خطتهم . فقد بدا لهم ان حسن باشا تجاوز كل حد وانه اصبح اهلا لان يسلطوا عليه عقاباً بأنفسهم فقد سائتهم ولاية حسن باشا من اصلها باعتبار انه لم يكن تركياً صافياً اذ ان امه جزائرية ، وزاد استياءهم عندما رأوه صاهر ابنة سلطان كوكو. وبلغ بهم الاستياء أشده عندما رأوه يستعد لتكوين فرق قوية من زواوة يعهد اليهـــا بحراسة مدينة الجزائر ، وقد توهم الجنود الاتراك انهم عثروا في نفس الوقت عـلى مبرر شرعي لتمردهم على حسن باشا ، لذلك مـا ان سمعوا بموت الوزير الاكبر الذي كان يدافع عن حسن باشا لدى الباب العالي ، حتى هجموا ليلاً على القصور والقوا القبض على حسن باشا واتباعه واوثقوهم ، والقوا بهم في باخرة اقلعت بهم متوجهة الى القسطنطينية، وكان ذلك في جوان ١٥٦١ .

وتتمثل الحجة التي بسطها ممثلوهم لدى الباب العالي لتبرير عملهم في ان حسن باشا كان ينوي الاستقلال بالجزائر والانفصال نهائياً عن السلطة العثمانية ، وبذلك يبدو تمردهم ضد السلطة الشرعية في قالب ولاء للسلطان العثماني . واستدلوا لتدعيم قـــولهم بالعناصر الجزائرية التي جندها حسن باشا وارادوا ان يوهموا السلطان العثماني ان تجنيد تلك العناصر

الجزائرية ليس الا بداية فقط لتكوين جيش جزائري يعتمد عليه في تأسيس مملكة جديدة يريد لها ان تمتد الى ان تشمل كامل الشمال الافريقي .

وليس هناك ما يؤكد صحة هذا الاستنتاج، بل يبدو بالعكس من ذلك ان حسن باشا ادرك ان الطريقة العسكرية التي نظمت بها الادارة في الجزائر ، وان احتلال الاتراك لكل المناصب العامة ، ستحول دون استقرار ادارة قوية تتشلت قوتها في الحروب والغزوات وستجعل ممارسة السلطة الفعلية امراً مستحيلاً بفعل تمرد الجنود الذي سيتعدد بتعدد الشهوات وانواع السخط .

ولعل تعلق الجزائريين بحسن باشا ورضاهم عنه لا يرجع فقط الى كونه من ام جزائرية ، ولكنه يرجع ايضاً الى هذا التفهم للوضع والى محاولته تشريك الجزائريين في المسؤولية ، بينما كان الجنود الاتراك يريدون اقصاءهم على كل المناصب الهامة .

وبعد ان أرسل حسن باشا الى القسطنطينية تولى بعده قائدا المؤامرة وهما حسن قائد الجنود ونائبه قوصة محمد . لكن الباب العالي لم يعترف بهذه الولاية المغتصبة ، فولى أحمد باشا الذي وصل الى الجزائر بعد ثلاثة أشهر من وقوع المؤامرة ، فألقى القبض على قادة التآمر وأرسل بهم الى الوزير الأكبر الذي أمر بقطع رؤوسهم .

حسن باشا للمرة الثالثة :

ويبدو ان أحمد باشا لم يفعل شيئاً يذكر خلال ولايته التي كانت قصيرة إذ أنه توفي بعد ثلاثة أشهر ، ويقال انه من المحتمل أن يكون موته نتيجة سم دسه له أعداؤه ، فلجأت القسطنطينية إلى تعيين حسن ابن خير الدين للمرة الثالثة بعد أن لمست الفراغ الذي تركه في الجزائر . وقد وضع بيالي باشا تحت تصرفه عشرة بواخر حربية ليقاوم بالقوة كل محاولة قد تبدو من الجنود الأتراك لسد الطريق عليه ومنعه من تسلم زمام الحكم . لكن مقتل رؤوس التمرد كان قد أتى ثماره ، ودخل حسن باشا الى قصر الجنينة دون مقاومة .

وقد بدأ حسن باشا بتنفيذ المشروع الذي كان على وشك تنفيذه عندما اختطفه الجنود،

وهو تطهير مرسي الكبير ووهران من الاحتـلال الأسباني ، فجمع لهـذا الغرض جيشاً يتركب من خمسة عشر الف جندي ما بـين أتراك واسبان ارتدوا عن دينهم ، وألف صبا يحي واثني عشر الف من رجال زواوة وبني عباس .

وبعد ان عهد الى وحدات الأسطول الجزائري بحمل التموين والذخيرة ، تحرك حسن باشا من الجزائر يوم الخامس من فبراير ١٥٦٣ ، تاركاً الجزائر تحت حراسة نائبه عـلي شتلي ، ووصل أمام وهران يوم الثالث من أبريل بعد ان تأكـد من قطع طريق التموين على القوات الاسبانية .

عسكر حسن باشا في رأس العين ونصب في يومه الأول مدفعين تجاه برج القديسين .

كان حاكم وهران في ذلك الحين هو دون الونسو ، بينما كان أخوه دون مرتان مكلفاً بالدفاع عن مرسي الكبير ، وقد تمكنت القوات الجزائرية من الاستيلاء على برج القديسين ، ثم توجهت الى مرسي الكبير ، وتولى حسن باشا قيادة ثلاثة هجومـات ضد حصن سان ميشال ، لكنه لم يتمكن من الاستيلاء عليه ، رغم انه تمكن من احداث فجوة غرس فيها العلم الجزائري . إلا أن حسن باشا اعتـبر ان هذا الفشل مؤقت وصمم على الاستيلاء على مرسي الكبير مهما كان الثمن ، وأمام تصميم الجانب الجزائري على مواصـلة الهجوم اضطرت القوات الاسبانية الى الانسحاب عن الحصن داخل مرسي الكبير ونشبت بهـذه المناسبة معركة من أعنف المعارك ألقى فيهـا حسن باشا بكامل ثقل قوته العسكرية ، وبدأت كفة الانتصار ترجح لفائدة الجزائريين .

لكن حدث في هذا الوقت بالذات ان تمكنت سفينة اسبانية من التسرب الى وهران تحت ستار الضباب ، تحمل رسالة الى القيادة الاسبانية مفادها ان اندري دوريا على وشك الوصول على رأس خمس وخمسين باخرة حربية ، فانتعشت آمال القوات الاسبانيـة ، إذ أرسل دون ألنسوفور اتصاله بهذه الرسالة عواما الى أخيه يخبره بفحواهـا ، وتمكن الأسبان الذين انعشهم هذا النبأ من الثبات في وجه الهجومات الجزائرية التي تواصلت في عنف شديد من الحادي عشر من مايو الى الخامس من جوان .

وعندما علم حسن باشا بقدم الامدادات الاسبانية سحب قواته خشية أن يقطع الاسبان عليه خط الرجعة، قرر ذلك رغم ما يحز في نفسه من ألم ان تخلى عن حصار مرسي الكبير في الوقت الذي اصبحت فيه على وشك السقوط ، فأقام بذلك الدليل على نظر بعيد لا يترك مجالاً لسيطرة العاطفة الجموح .

محمد بن صالح رايس

أثر فشل الهجوم على وهران تأثيراً بالغاً على السلطان سليمان العثماني . وقرر للانتقام من ذلك أن يهاجم جزيرة مالطة ليطرد منها فرسان مالطة الذين اشتهروا بعداوتهم الشديدة للاسلام ، حتى يضم إلى نفوذه قاعدة بحرية يعزز بها سيطرة العثمانيين على حوض البحر الأبيض المتوسط .

وقد ساهم حسن باشا في الهجوم على مالطة تحت أمرة قائد الأسطول العثماني مصطفى باشا . وتجمع مختلف الروايات التاريخية على أن حسن باشا كان مضرب المثل في الشجاعة والاقدام، لكن قدوم نجدات بحرية مسيحية تحت قيادة نائب ملك صقلية أحبطت المحاولة العثمانية في الثامن من سبتمبر .

وكان السلطان العثماني ، سليمان الأول ، قد مات قبل ذلك بيومين ، في السادس من الشهر نفسه . فخلفه ابنه سليمان الثاني الذي سارع بتعيين حسن باشا قائداً عاماً للاسطول العثماني ، أي في نفس المنصب الذي كان احتله أبوه خير الدين قبل ذلك بثلاث وثلاثين سنة وخلفه في الجزائر محمد بن صالح رايس .

عندما قدم محمد بن صالح رايس إلى الجزائر وجد الطاعون منتشراً في الجزائر منذ أربع سنوات ، كان خلالها حسن باشا مشغولاً بتأمين حدود الجزائر وكسر شوكة العدو الاسباني .

وضاعف المصاعب التي وجدها محمد بن صالح رايس انتشار مجاعة كبرى تسببت في كارثة ثالثة هي كثرة قطاع الطرق والاعتداءات الفردية ، حتى أصبحت ضواحي الجزائر نفسها غير مأمونة .

انصرف محمد بن صالح رايس إلى معالجة هذا الوضع ، فاستخدم المؤونة والأغذية عن طريق البحر ، ونظم المعركة ضد قطاع الطرق ، وساهم بنفسه في بعض الحملات التي نظمت ضدهم .

محاولة جوان قاسكون :

حدت هذه الوضعية الصعبة بأحد القراصنة المسيحيين ، اسمه « جوان قاسكون » ، إلى التفكير في احتلال الجزائر بواسطة هجوم خاطف يفاجيء حراس الميناء ، ويضرم النار في وحدات الاسطول الجزائري . وبعد أن تحصل جوان قاسكون على اذن ملك اسبانيا سار في اتجاه الجزائر ، وتمكن من الدخول إلى الميناء ليلاً ، دون أن يفطن اليه أحد ، وكانت البواخر الجزائرية مرصوفة بعضها إلى جانب بعض بحيث يكفي اضرام النار في باخرتين أو ثلاثة لتلتهم النار معظم الأسطول ، وزود قاسكون لهذا الغرض رجاله ببعض المواد المحترقة ، وأصدر لهم الأمر باستعمالها بينما يحاول هو الالتحاق بالسجن الذي يعرف انه يضم عدداً كبيراً من الأسرى المسيحيين .

لكن عبثاً انتظر قاسكون اندلاع النار في البواخر الجزائرية ، فقد استولى الهلع على رجاله ، وكانت حراسة الميناء قد تفطنت حينذاك للحادث ، فأعلنت النذير ، وأسقط في يد جوان قاسكون الذي حاول رغم ذلك الاستمرار في تنفيذ خطته فكان يهيب برجاله أن يصمدوا ، لكن رجاله اختطفوه وفروا به ، إلا أن البواخر المكلفة بحراسة الميناء تعقبته حتى لحقت به وأسرته ثم عادت به إلى الجزائر .

وعندما سمع سكان الجزائر بوقوع جوان قاسكون في الأسر سارعوا إلى المطالبة برأسه ، وعندما استشار الباي لاربای الرياس البحريين في أمره ، عارضوا في قتله، وقالوا انه أسير حرب ، وأسير الحرب لا يعدم ، ودافعوا عن حقه في دفع الفدية مثل بقية الأسرى ، لكن الباشا رغم ذلك أراد ترضية الجماهير فدفع بجوان قاسكون للجماهير التي عذبته حتى الموت .

ان الموقف الذي وقفه الرياس في الدفاع عن جوان قاسكون ينفي عنهم تهمة القرصنة

التي حاول الصاقها بهم بعض المؤرخين الغربيين الذين تأثروا بروايات مسيحية مغرضة ، ان ما في هذا الموقف من نبل يؤكد ان الرياس كانوا يعتبرون أنفسهم مقاتلين نظاميين في خدمة دولة لا قطاع طرق وقراصنة يعملون لحسابهم الخاص .

محاولة دمج طائفة الرياس مع الجنود

كان محمد بن صالح رايس يعرف بحكم الوسط الذي نشأ فيه ان العداوة بين طائفة الرياس البحريين وبين اليولداش ظلت مستحكمة ، وانه بناء على ذلك لا يمكن بناء قوة متماسكة تستند عليها السلطة العثمانية وتطمئن اليها . كما كان يعرف ان هذه العداوة ستكون عاملاً يشجع الجزائريين على التفكير في التخلص من السيطرة العثمانية .

لذلك عمد محمد بن صالح رايس الى محاولة تهدف الى القضاء على هذه العداوة ، بواسطة ادماج القوّتين في قوة واحدة ، فأذن للجنود الاتراك أن يركبوا البواخر البحرية بوصفهم مقاتلين نظاميين وأن يساهموا في الغزوات بنفس عنوان الرياس ، ويقتسموا معهم المغانم .

لكن هذه المحاولة لم يكتب لها النجاح الدائم الذي كان يرجوه محمد بن صالح رايس : ذلك ان الرياس لم يغفروا للجنود سابق موقفهم ، فلم يسمحوا لهم بالمساهمة في كل الغزوات ، وانما كانوا يدعونهم ، من حين لآخر ، للمساهمة في غزوة غالباً ما تكون قليلة الاهمية ، ولذلك ما فتئت تلك العداوة أن طفت فوق السطح وظهرت من جديد واستمرت كامل العهد العثماني .

وفي نفس الوقت تفرغ محمد بن صالح رايس لتحصين الجهة الغربية من مدينة الجزائر فبنى بها برجين هامين : أطلق على أحدهما اسمه ، وأطلق على الثاني اسم حاج علي ، وقد عرف هذا البرج الاخير بعد ذلك باسم برج قلج علي ، وباسم باب الواد .

ثورة قسنطينة ونقل محمد :

وبينما كان ابن صالح رايس متفرغاً لهذه التحصينات اذ ثار سكان قسنطينة بايعاز من التونسيين ، فأعدموا الجنود الذين تتركب منهم الحامية التركية ، فلم يتردد محمد بن صالح

رايس في السير اليهم ومحاربتهم ، وكل من وقع في يده ، أعدمه أو باعه عبداً ، ثم نصب رمضان تشولاق بايا على قسنطينة وعاد الى الجزائر . ولم يمض وقت طويل على عودته من قسنطينة حتى علم بأن السلطان العثماني عين قلج علي باي لاربابي .

ويربط بعض المؤرخين بين حادث قسنطينة وبين عزل محمد بن صالح رايس عن ولاية الجزائر ، ويقولون ان القسطنطينية لم ترقها المجازر التي ارتكبها محمد بن صالح رايس في قسنطينة ، لذلك قررت استبداله .

وسواء أكان ذلك صحيحاً أم لا ، فانه لا مناص من الربط بين هذا النقل وحادث قسنطينة ، وعلى فرض أن يكون الباب العالي راضياً على ما تم في قسنطينة ، فيمكن تفسير نقل محمد والحالة هذه ، بأن السلطان العثماني فضل نقله لان استمراره في ولاية الجزائر يكون من بواعث السخط التي قد تدفع سكان قسنطينة الى التفكير في الثورة من جديد انتقاماً من ابن صالح رايس ، أما عندما ينقل ، فان هذا العامل يزول ، وفي نفس الوقت يظهر السلطان العثماني في مظهر المتفهم لرغبات السكان ، ويبدو في مظهر الرجل الصالح الذي له أعوان سوء .

قلج علي :

ولد قلج علي في ايطاليا ، وقع في أسر المسلمين أثناء واحدة من الحملات التي نظمها خير الدين ضد جنوب ايطاليا ، فيما بين سنة ١٥٢٤ وسنة ١٥٢٨ ، عند اقتسام المغانم وقع في سهم الرايس علي أحمد ، اشتغل في البواخر الاسلامية مجذفاً مثل كل العبيد النصارى الذين اشتهر بينهم بوصف « الفرطاس » لصلع كان برأسه .

وقد أسلم قلج علي ، وأصبح بفضل براعته وخبرته بفن الهجومات البحرية ، صاحب مركب بحري يساهم به في الغزوات ضد المسيحيين ، وأصبح بعد ذلك علماً بين رياس الجزائر ، وأحد القادة الأوفياء لحسن باشا الذي عهد اليه بولاية تلمسان وبقيادة حملات عديدة ضد الاسبان وقد أبلى بلاء حسناً أثناء الهجوم المسيحي على جربة وكان له دور بارز في ترجيح كفة النصر لفائدة المسلمين، كما لمع بعد ذلك في الهجوم الذي نظمه العثمانيون ضد مالطة .

كل ذلك دفع السلطان العثماني الى تعيينه باي لارباي افريقيا في مارس ١٥٦٨ .

بدأ قلج علي ولايته في الجزائر بتنظيم حملة واسعة النطاق ضد القوات الاسبانية لطردها نهائياً من الساحل الجزائري ، وبينما بدأ يعد العدة لتنفيذ هذه الخطة ، اذ اتصل بأنباء من اسبانيا مفادها أن عدداً كبيراً من المسلمين للذين مكثوا بالأندلس ولم يتمكنوا من الهجرة ، واجبروا على اعتناق النصرانية – يستعدون للقيام بثورة كبيرة بعد أن جمعوا كميات كبيرة من السلاح . بفضل الصلات السرية التي كانوا قد ربطوها مع الجزائريين الذين تفاهموا على تنظيم خطة مشتركة .

لم يتردد قلج علي عند سماعه بهذه الأنباء ان شرع يعد العدة ليقوم بما كان يراه – بوصفه مسلماً – واجباً مقدساً . ويجب أن لا ننسى أن كارثة الأندلس ، رغم أنه قد مر عليها آنذاك أكثر من نصف قرن ، كانت ما تزال حية في نفوس المسلمين ، بسبب الأنباء التي ينقلها اللاجئون والمهاجرون من الأندلس عن المجازر والمظالم التي يتعرض لها المسلمون ، كما أن الغزوات التي كان ينظمها المسلمون على شواطىء أوربا الجنوبية وعلى ساحل الأندلس خاصة كانت تعزز آمال المسلمين الذين مكثوا بالأندلس – بعد أن تظاهروا بالتنصر – في امكانية استعادة فردوسهم المفقود. خصوصاً وأن سقوط الأندلس في الجناح الغربي من الامبراطورية الاسلامية ، تم في نفس الحقبة التاريخية التي تم فيها سقوط القسطنطينية في يد المسلمين وامتداد هذه الامبراطورية وسيطرتها مشرقاً على حصن عظيم من حصون النصرانية .

اذن فلا غرابة أن يستمر أمل المسلمين في استعادة الأندلس ، لأن عوامل الانهيار المعنوي التي يمكن أن نتخيلها نحن الآن، بالاضافة الى ان مرور هذا الزمن قد ضاعف منها، كان تعوضها حينذاك عوامل حماس كبير .

سارع قلج علي اذن بمجرد استقراره بالجزائر الى تعبئة اربعة عشر الف جندي تركي وستين الف جزائري وجههم الى مزغران ومستغانم التي كان وجه اليها قبل ذلك بالمدفعية وبالف واربعمائة ناقة محملة بالبارود والذخيرة الحربية ، لانه كان يريد ان ينظم هجوماً منسقاً ضد القاعدة الاسبانية في وهران ، في نفس الوقت الذي يقود فيه حملة الاحتلال

لشواطىء الاندلس ، يضاف الى ذلك ان قلج علي كان يعتمد على الثورة المتوقعة داخل الاندلس في شغل الحاكمين المسيحيين عن وهران وصرف نظرهم عنها .

لكن الاسبان تفطنوا للخطة السرية بسبب عثورهم على مخزن كبير من مخازن السلاح في الاندلس ولذلك أجل قلج علي تنفيذ تلك الخطة .

اندلعت ثورة الاندلس المتوقعة في وقت لم يكن فيه قلج علي ينتظرها وكانت بقيادة شخص اسمه محمد ينتمي الى فرع العائلة الاموية التي حكمت الأندلس . وقد استطاعت حركة الثوار والمسلمين بالاندلس ان تمتد الى الجنوب الغربي من اسبانيا، لكن عدم وجود سند شعبي واسع من الداخل ، بالاضافة الى عدم وجود حركة خارجية قوية تساندها ، كل ذلك جعل تلك الحركة تجنو وتؤول الى الفشل بعد ان صدت في وجه قلج علي بسرعة بمجرد ان سمع باندلاع الثورة صادفت قيام عاصفة قوية شلتت البواخر الحربية وحرمت مسلمي الاندلس من اعانة كانوا في اشد الحاجة اليها ، فلم تصل الى الشواطىء إلا ست بواخر فقط .

وقد حاول قلج علي ان يجدد هذه الاعانة بعد ذلك واستعد ان يسير بنفسه الى الاندلس على راس قوات ضخمة عندما استدعاه سليم الثاني ليعينه على دفع هجوم واسع كانت المسيحية تستعد لتنظيمه ضد السلطان العثماني .

احتلال تونس

كانت تونس قد اجتازت في ذلك الحين حوالي ثلاثين سنة وهي خاضعة لحكم غير قوي : فمنذ ان نظم شارلكان حملته ضد تونس واعاد مولاي حسن الى العرش بقوة الحراب المسيحية ضاعف في كراهية الشعب لهذا السلطان المفروض ، ولذلك ثار عليه الشعب عدة مرات .

فقد تزعم ابنه حميدة حركة سخط ضده ، بينما قامت في القيروان سلطة مستقلة ، لجأ مولاي حسن الى الاسبان يطلب اعانتهم ، لكنه انهزم وانتصر عليه ابنه حميدة لكن حميدة رغم انتصاره وتمكنه من الاستيلاء على العرش لم يفعل شيئاً لطرد الاسبان من حلق

الواد الذي كانت تنتصب فيه المدافـــع الاسبانية معرضة التونسيين لتهديد مستمر يضاف الى ذلك ان السكان بدأوا يضجون من فداحة الضرائب التي اثقلهم بها حميدة لذلك توجهوا الى السلطة التركية بالجزائر يطلبون اعانتهـــا على تخليصهم من الاسبان ومن حميدة .

توجه قلج علي إلىتونس في شهر أكتوبر ١٥٦٩، تاركاً بالجزائر خليفته ماميقورصو، وعند وصوله إلى باجة وجد حميدة في مواجهته علىثلاثين ألف رجل . لكن قلج علي كان يعرف أن معظم قواد الجيش التونسي هم أنفسهم الذين طلبوا نجدتـــه ، فأنشب معركة مسرحية : وحدث ما توقعه قلج عليمنذ الطلقات النارية الأولى ، إذ انضمتاليه القوات التونسية وفر حميدة إلى تونس فاصطدم بأبوابها التي أغلقت في وجهه . فاضطر الىالالتجاء إلى المسيحيين الذين كانوا يحتلون الحصن .

وصل قلج علي إلى تونس دون أن يلقى أية مقاومة في الطريق ، فوضع بها حاميــة تتركب من ثلاثة آلاف جندي تركي ، تحت قيادة القائد رمضان ، وادخل تحت طاعته المدن الساحلية ومدن الداخل ، وساد تونس نظام لم تعرفه من حوالى ثلاثين سنة .

بعد ذلك عاد قلج علي الى الجزائر بسرعة لتنظيم قواته البحرية على ضوء ما تتطلبــه المعركة القادمة ضد المسيحيين الذين بدأوا في تجميع قواتهم لخوض معركة كبيرة ضـــد السلطنة العثمانية .

وقد ساهم قلج علي في تلك المعركة التي انتصر فيها ؛ وعينه سليم الثاني بعد ذلك قائداً عاماً للاسطول العثماني مع احتفاظه بلقب باي لارباي افريقيا، وبناء على ان هذا اللقب يخول له صلاحية تعيين وال للجزائر يكون خليفته له ، عين لخلافته بالجزائر عرب أحمد .

بدء المطامع الفرنسية في الجزائر .

عندما وصل عرب أحمد الى الجزائر وجدها تخيم عليها الدهشة بسبب انهزام العثمانيين أمام دون جوان دوترتين وكان سكان العاصمة يتوقعون حدوث هجوم مسيحي يستهدف الجزائر هذه المرة .

وهناك من السكان من اغتنم هذه الفرصة فرفضوا دفع الضرائب واستعدوا للثورة في وجه السلطة العثمانية ، فواجه الباشا الجديد هذا الوضع بقمع شديد ، وتمكن من أن يفرض الهدوء والأمن بقوة الحديد والنار ، ثم تفرغ لتحصين مدينة الجزائر بعد أن بلغه أن الاسبان يستعدون للهجوم على الجزائر ، فهدم في باب عزون الذي كان يمكن أن يستغله المعتدون عند الهجوم ، وأعاد بناء باب عزون من جديد بما يتناسب مع متطلبات الدفاع الحربي ، وعمق الخنادق التي كانت تحيط بالجزائر ، وبنى حصناً على البحر وراء قنطرة العفرون ، وزاد في تحصينات الميناء .

وقد حقق عرب احمد كل هذه المشاريع في أجل قصير جداً . لكن ملك فرنسا شارل التاسع لم ترقه هذه المشاريع ، فقد بدأ يفكر في امكانية ضم الجزائر تحت النفوذ الفرنسي .

ولم يكن هذا التفكير في وضع الجزائر تحت النفوذ الفرنسي وليد رغبة توسعية شخصية عند ملك فرنسا ، لكنه نتيجة مخطط سياسي أملته الظروف السياسية التي كانت قائمة حينذاك ، فقد كان ملك فرنسا ينظر بعين الغيرة الى سيطرة سكان جنوة وميلانو على السوق التجارية ، وكان يطمع الى بناء قوة سياسية واسعة تكون نواتها البحرية هي مدينة طولون ، وتشكل مرسيليا مركزها التجاري . لكن تحقيق ازدهار تجاري بمرسيليا رهن بربط علاقات متينة مع الضفة المقابلة من حوض البحر الأبيض المتوسط ، نظراً لاهمية موقع الجزائر الجغرافي من جهة ، ولكونها تمثل من جهة ثانية نقطة انطلاق هامة نحو المشرق .

إلا ان تنفيذ المشروع الفرنسي يصطدم بعراقيل عديدة لا يمكن التغلب عليها كلها : فهناك دون جوان دوثريش الذي بدأ بعد انتصاره البحري على العثمانيين يفكر في مواصلة المعركة ضدهم بحوض البحر الأبيض المتوسط بالاضافة الى أن اسبانيا تمثل العدو التقليدي للعثمانيين ولبلدان المغرب العربي كلها . وهناك طبعاً العثمانيون الذين لم يتنازلوا بسهولة عن الجزائر . وليس بامكان فرنسا ان تواجه هذه الاطراف مجتمعة فكيف اذا أضيفت اليها الجزائر التي اشتهر سكانها بشدة الشكيمة والثورة في وجه كل احتلال اجنبي .

بقيت طريقة واحدة لتحقيق المشروع الفرنسي وهي التفاهم مع دون أجوان دوثرايش والاسبان على توحيد الجبهة ضد العثمانيين وتنظيم معركة مشتركة ضدهم على أن تشترط فرنسا وقوع الجزائر في نصيبها .

ان مثل هذا الحلف لم يكن ممكناً في ذلك الظرف بالذات لان مثل ذلك الحلف لا بد ان تكون لحمته واحدة من اثنتين : اللحمة الدينية أو لحمة المطامع السياسية الاستعمارية . اما الحلف الديني فلم يكن ممكناً آنذاك ، لان العامل الديني بدأ يضعف ويترك المكان للعوامل التي يغلب عليها الطابع السياسي يضاف الى ذلك ان المسيحية كانت عرفت في ذلك الحين انقساماً خطيراً في صفوفها ، لم يقف عند حدود الخلافات المذهبية العقائدية ، بل تطور الى حروب فعلية .

وأبرز شاهد يسجل تحول ذلك العصر عن عقلية الاحلاف الصليبية هو المعاهدة التي ربطت بين السلطنة العثمانية والمملكة الفرنسية .

اذن فالعامل الديني كان قد فات أوانه في ذلك الحين ولم يكن من الممكن أن يشكل لحمة قوية يقوم عليها حلف في مثل خطورة الحلف الديني الذي صورناه ؛ بقيت المطامع السياسية الاستعمارية .

ان هذه المطامع لم تكن في ذلك الحين قد تطورت بكيفية تجعل أصحابها يبصرون ما يجمع بينهم منها ، رغم ان العوامل الدينية بدأت تترك المكان كما قلنا لعوامل سياسية اقتصادية .

لكن خط تطور هذه العوامل لم يكن قد اكتمل بعد بحيث يبرز نقط الجمع بين الدول الاوروبية .

فالعامل السياسي الاستعماري لم يكن قد وصل أوانه في ذلك الحين ليشكل لحمة تربط بين الاطراف الاروبية المذكورة داخل حلف مشترك ، يضاف الى ذلك عامل آخر وهو ان اسبانيا ، لم تكن لتثق في فرنسا على فرض اقتراح مثل هذا الحلف عليها لاشتهار فرنسا بتحالفها مع العثمانيين منذ عهد فرنسوا الاول .

اذن فأية طريقة يسلك ملك فرنسا للاستيلاء على الجزائر وتنفيذ مشروعه التوسعي عبرها ؟

انها طريقة سهلة ومعقدة في آن واحد ..

فما دام ليس في امكان فرنسا أن تواجه بمفردها الاطراف الثلاثة ، وما دام ليس في الامكان تحقيق حلف مشترك مع اسبانيا فلا بأس من تحقيق المشروع برضا العثمانيين وبدون الدخول في حرب مع الجزائريين ؛ ويتمثل البرنامج الذي وضعه ملك فرنسا لتنفيذ مشروعه في مخطط ذي شعبتين : تمتد شعبته الاولى الى القسطنطينية ، وتتناول شعبته الثانية الجزائر .

ففيما يتعلق بالشعبة الاولى كتب شارل التاسع الى فرانسوا دي نواي سفيره في القسطنطينية يطلب منه أن يضخم لدى السلطان العثماني الاخطار التي تتعرض لها الجزائر من جراء المحاولات الاسبانية . ويشرح له استحالة وقوف القوة العثمانية بمفردها لصد هذا الخطر نظراً لانشغالها من ناحية اخرى برد اعتداءات اخرى حتى اذا اقتنع السلطان العثماني بضخامة هذا الخطر وتأكدت مخاوفه ، يعرض عليه السفير الفرنسي الحل الأوحد :

وهو اعلان الحماية الفرنسية على الجزائر ، وتعيين ملك فرنسي عليها ، هو الدوق رانجو فتلك هي الطريقة الوحيدة لإفساد الحسابات والمحاولات الاسبانية .

أما طرف المخطط الذي يتصل بالجزائر فيتمثل في تحريك بعض الجزائريين الذين تربطهم مع الفرنسيين مصالح تجارية ، للمطالبة بملك فرنسي يحميهم من شر الاسبان ؛ هذا هو في نظرنا تفصيل المخطط الذي وضعه شارل التاسع للاستيلاء على الجزائر والذي يمثل أول محاولة للاستيلاء الفرنسي على الجزائر .

نعم ان الروايات الفرنسية تنكر مثل هذا التحليل ، وتقدم القضية في شكل آخر وتقول أن الجزائريين طالبوا فعلاً بتعيين ملك فرنسي[٩] عليهم ، وتعترف الرواية الفرنسية بمحاولة السفير الفرنسي الحصول على موافقة السلطان العثماني لتعيين ملك فرنسي .

لكن سياق الحوادث التي جرت في ذلك العهد وتسلسلها ، وما اشتهر به الجزائريون من تعلق بالاستقلال وقوة عاطفتهم الدينية تنفي أن يكون الجزائريون قد طلبوا من تلقاء أنفسهم تعيين ملك فرنسي .

ولئن كانت الروايات التاريخية التي بين أدينا لا تعرض القضية كما عرضناها ، فان ذلك يدل على تبنيها للرواية الفرنسية الرسمية لكنه من السهل اذا قرأنا حساباً لكل الظروف التي كانت تحف بالقضية وإذا جمعنا كل المعطيات السياسية والاقتصادية التي التي كانت تتحكم في تسيير شؤون الدول حينذاك أن نتصور المخطط الفرنسي على حقيقته، ومن السهل أن نصحح ما في الرواية الفرنسية من تحرف وأن نبرز المناطق التي تعمدت الرواية الفرنسية تركها في الظلام .

ومما يؤكد صحة الطريقة التي عرضنا بها القضية أن الملك الفرنسي كتب إلى سفيره في القسطنطينية ، يطلب منه اقناع السلطان بضرورة تطبيق المشروع الفرنسي في الحادي عشر من مايو ١٥٧٢ ، وان المساعي الفرنسية استمرت بعد ذلك إلى اكتوبر ١٥٧٣ أي انها استمرت أكثر من سنة ، وليس من المعقول أن تبذل الديبلوماسية الفرنسية مساعي تمتد أكثر من سنة لمصلحة الجزائريين وحمايتهم من خطر الاسبان !

لكن علماء القسطنطينية عندما سمعوا بالمشروع عارضوا فيه وقالوا ليس من الممكن أن يحكم ذمي بلدا مسلماً .

والجدير بالتسجيل ان السفير فرانسوا دي نواي ، كان يعرف – نظرا لوجوده في القسطنطينية ولاطلاعه على وجهة نظر علماء الدين ومستشاري السلطان العثماني – كان يعرف عبث الخطة الفرنسية واستحالة تحقيقها ، لكنه اضطر امام الحاح شارل التاسع الى القيام بتلك المساعي .

وليس هناك ما يدل على ان شارل التاسع كان ينوي الوقوف عند حد هذه المساعي وانه لم يفكر في خطة اخرى بديلا من هذه الخطة ، لان موته حال دون ان نعرف حقيقة نواياه بعد فشل هذه المحاولة .

طرد الاسبان من تونس

في هذا الوقت استغل دون جوان دوتريش انتصاره البحري على العثمانيين ، فاراد أن يعزز بانتصار آخر فسار في اكتوبر ١٥٧٣ على رأس مائة وثمانية وثلاثين باخرة حربية الى حلق الواد واستولى على تونس وترك فيها ثمانية آلاف جندي بقيادة الكونت سربللوني الذي كان يشاطر مولاي محمد الحفصي الحكم .

ويبدو ان الباب العالي أدرك ان سكوته على هذه الهزيمة قد يفقده صداقة ملك فرنسا وقد يدفع هذا الاخير الى تغيير سياسته والتفكير في طرق اخرى للاستيلاء على الجزائر التي يصعب ان تحتفظ بها السلطنة العثمانية مع وقوعها بين سلطتين متناهضتين بكل من تونس والمغرب .

لذلك صمم السلطان العثماني على ان يرمي بكامل ثقله في المعركة فأمر قلج علي بأن يتحول على رأس اسطوله الى تونس ، وصدر الامر الى سنان باشا القائد العام للقوات البحرية ان ينزل قواته التي تحمل بواخر قلج علي في رأس قرطاج ، وارسل الى عرب احمد ان يوافي هذه القوات على رأس جنوده الاتراك والجزائريين ، وطلب اليه ان يعزز قواته بقوات اخرى يجندها من عناية وقسنطينة ، وارسل الى طرابلس يطلب منها العدد ايضاً .

وصل سنان باشا الى ضواحي تونس في ١٢ جويلية ، فوجد في انتظاره قوات قادمة من القيروان واخرى من طرابلس ، وبعد بضعة ايام لحق احمد على رأس القوات الجزائرية فكلفوه بقيادة الهجوم على حلق الواد بينما تعهد سنان باشا بتنظيم الحصار على تونس ، وابتدأت المعارك عنيفة في السابع عشر من جويلية ، واستمرت المعارك واطلاق النيران الى ان تمكن الاتراك من احداث فجوة واسعة في السور ، فأصدر سنان الأمر بالهجوم على الحصن . وبينما كان سنان باشا منهمكاً في مهاجمة حصن تونس تمكن الجزائريون يوم ٢٣ اوت من الدخول الى حلق الواد واحتلال القاعدة الاسبانية . بعد ان قتلوا من فيها . آنذاك تحولوا لتعزيز قوات سنان باشا ، ونظمت القوات المشتركة اربع هجومات كبيرة في ايام ٦ و ٨ و ١١ و ١٣ سبتمبر ، وكان هجوم ١٣ ديسمبر هو

الهجوم الأخير الذي قضى على آخر مقاومة للاسبان .

أثار انهزام اسبانيا حبوراً عاماً في القسطنطينية ودفع الوزير الأكبر العثماني إلى ان يقول لسفير البندقية مشيراً إلى الاسطول العثماني المنتصر. « لقد حلقتم لنا ذقننا في معركة ليبانت ، وقطعنا نحن لكم ذراعكم في تونس ، وشعر الذقن ينبت من جديد ، أما الذراع فلن يخلف أبداً » .

ولا شك ان هذا الانتصار أفسد بعض الشيء الحسابات الفرنسية ، فاكتفى ملك فرنسا بأن يطالب بعزل عرب أحمد من ولاية الجزائر بدعوى أنه خرق الاتفاق المبرم بين القسطنطينية وبين فرنسا ونظم عـدة هجومات على الشواطىء الفرنسية كما حجز سفينتين فرنسيتين .

وقد استجاب الباب العالي للرغبة الفرنسية فعزل عرب أحمـد . لكن الروايات التاريخية الفرنسية تسكت عن ذكر العوامل التي دفعت عرب أحمد إلى خرق المفاهمة التي كانت قائمة بين فرنسا والسلطنة العثمانية ، مع ملاحظة أن السلطنة العثمانية كانت ما تزال محترمة من طرف ممثليها في الجزائر آنذاك ، ولعل الأحداث المسكوت عنهـا في تلك الفترة كانت من الممكن أن تكشف عن وجود علاقة بين تلك الهجومات الجزائرية على الشواطىء الفرنسية وبين النوايا الفرنسية في احتلال الجزائر وجعلها تحت نفوذ البيت المالك في فرنسا .

انتهاء عهد الباي لارباي :

بعد عزل عرب أحمد ، عين الباب العالي القائد رمضان واليـاً على الجزائر في سنة ١٥٧٤ .

وفي هذا الوقت كان شريف فاس ، مولاي أبي عبد الله محمد المتوكل قد تحالف مع الاسبان واضطر أخاه مولاي عبد الملك إلى الفرار للجزائر .

بعث مولاي عبد الملك إلى قلج علي بوصفه باي لارباي افريقيا يطلب اعانتـه على قهر أخيه ووعده في مقابل ذلك ان هو نجح في الجلوس على عرش مملكته ، أن يعلن ولاءه

للقسطنطينية ويعين باشا الجزائر على طرد الاسبان من وهران ومرسي الكبير .

صادف هذا العرض هوى من نفس قلج علي، فطلب هذا الأخير من السلطان العثماني أن يأذن له في اعانة مولاي عبد الملك بناء على أنه لا يمكن اقتلاع القواعد الاسبانية من الجزائر ما دام المغرب يتعاون مع اسبانيا ويعادي االعثمانيين فرخص الباب العالي لقلج علي في تحقيق مراده .

اتصل القائد رمضان بالتعليمات اللازمة فتحرك على رأس جنود أتراك وجزائريين متوجهاً الى المغرب صحبة مولاي عبد الملك وبعض أتباعه الذين كانوا قد ربطوا اتصالات سرية مع أهم قادة الجيش المغربي .

وصل الجزائريون أمام أسوار فاس في أوائل سنة ١٥٧٥ ، فوجدوا أمامهم ابن أبي عبد الله على رأس ستين الف جندي . لكن الجزائريين دخلوا فاس دون أن يخوضوا أية معركة لان أحسن جنود مولاي محمد ومعظم قادته انفصلوا عنه فدخل مولاي عبد الملك فاس وأبقى معه عدداً من الجنود الجزائريين والاتراك أعانوه على بسط سلطته في كامل المملكة وبعد مرور حوالي ثلاث سنوات قتل مولاي عبد الملك — في الوقت الذي كان يستعد فيه لاعانة الجزائريين على طرد الاسبان من وهران — في معركة كبيرة وقعت قرب واد المخزن عرفت بمعركة القصر الكبير أو معركة الملوك الثلاثة : لانه قتل ثلاثة ملوك في هذه المعركة : عبد الملك ومنافسه المتوكل الذي استنجد بالقوات البرتغالية وانتصب أبو العباس أحمد سلطاناً على المغرب وتلقب بالمنصور .

حسن فنزيانو :

الا ان مقتل عبدالملك ، لم يضع حداً للخطة الاساسية العثمانية — الجزائرية ضد القاعدة الاسبانية في وهران ومعنى ذلك انه يجب اختيار والي الجزائر في هذه المرحلة من بين القادة الحربيين الذين اشتهروا بشدة المراس .

ولم يكن القائد رمضان يجمع الشروط التي كان الاتراك يعتبرونها أساسية في تكوين رجل الحرب . لذلك نقل القائد رمضان الى تونس وارسل الى الجزائر بـــدله ، حسن فنزيانو .

كان حسن فنزيانو عندما وصل الى الجزائر في صيف ١٥٧٨ يبلـــغ من العمر حوالي الثلاثين سنة ، وهو من اصل ايطالي كان عبداً لقلج علي .

وقد اشتهر حسن فنزيانو بالحزم والشجاعة والذكاء ، لكن عنفه الشديد وما اشتهر به من شح ونهم لجمع الاموال جعله مبغوضاً من الشعب . وقد وصفه الاديب الاسباني الشهير « سيرفانتيس » (مؤلف دون كستيوت) اذ وقع في اسره ، ورآه عدة مرات فقـال : انه شخص طويل القامة ، نحيف ، شاحب ، قليل شعر اللحية الأحمر اللون ، العينان لهما نظرة حادة ودموية ، متكبر وعنيف . وبمجرد ما استلم حسن فنزيانو مهام منصبه ، حتى بث الهلع في الجنود الاتراك الذين نزل فيهم انتقاماً وارهاباً ، كما دانت له طائفـــة الرياس بالخضوع ، لانها كانت تخشى ان هي تنمرت في وجهه ان لا يروق ذلك لقلج علي.

وقد نظم الباشا الجديد عدة غزوات ضد جزر الباليار والشواطىء الاسبانية وعـاد منها بمغانم كثيرة .

وقد بلغ الى علمه ان الاسطول الاسباني بصدد التجمع في بلدة « كادي » الاسبانية ، فخشي أن يكون ذلك اعداداً لحملة بحرية كبيرة موجهة ضـــد الجزائر ، فتفرغ لتعزيز تحصينات مدينة الجزائر ، وجدد بناء برج مولاي حسن ، وزود المواقع البحرية بالمدافع وعزز الحراسة عليها .

لكنه ما لبث ان أثار سخط السكان وحتى سخط طائفة الرياس ، بما كان يفرضـه من جبايات ومغارم ، وبالطرق الملتوية التي كان يسلكها للحصول على الأمـوال بكل ثمن ، فقد بدأ بالاستيلاء على الاسرى المسيحيين الذين يعرف ان عـائلاتهم ستدفع أموالاً كبيرة لافتدائهم ، ثم احتكر تجارة الحبوب التي كان يحدد أسعارها باختياره ، وضاعف المغارم وأجبرهم على دفعها حبوباً حتى تبقى له السيطرة على السوق ، وفرض على التجار الاجانب

تقديم هدايا له للحصول على رخص التجارة ، وفرض غرامة جديـــدة يستخلصها هو لفائدته على عمليات الأرث .

من أجل ذلك كله انتشر السخط ، وعمت الشكوى ، لكن لم يكن في استطاعة أحد ان يتحرك خوف ان تنزل عليه صاعقة حسن فنزيانو .

ومما زاد في تعقيد الوضعية ان سنة ١٥٧٨ وسنة ١٥٧٩ كانتا جفـــاف في الجزائر ، فانتشرت المجاعة بكيفية ضاعفت سخط السكان فالمؤرخ هايدو يقول انه مات في مدينة الجزائر في ظرف شهر واحد فقط من ١٧ جانفي ١٥٨٠ الى ١٧ فيفري ١٥٨٠ – خمسة آلاف وستمائة وست وخمسون نسمة – واضطر قسم من سكان العاصمـــة الى الانتشار في الضواحي بحثاً عن الاعشاب يتقوتون منها .

وثارت القبائل الجزائرية في داخل البلاد ورفضت دفع الضرائب ، وفقد الباشا آخر أنصاره عندما أعلنت طائفة الرياس سخطها لما بلغها أن حسن فنزيانو يريد ان يرفـــع من النصيب المخصص له في مغانم الغزوات .

في هذه الفترة اتصل حسن فنزيانو بأمر من قلج علي يطلب منه أن يلحق به ، وبعث مكانـــه جعفر باشا الذي كان قـــد نجح في اقرار الأمن بالجر حيث تمكن من القضاء على قطاع الطرق .

جعفر باشا :

ويدل تعيين جعفر باشا في هذه الفترة بالذات على ان القسطنطينية بـــدأت تضج من تصرفـــات فنزيانو ، كما يؤكـــد في نفس الوقت تمسك القسطنطينية بخطتها السياسية التي ما انفكت تتبعها منذ عهد خير الدين بالنسبة للجزائر ، وهي الحيلولة دون تطور الشعور الاستقلالي بالجزائر ، ووضع حد بهذه التعيينات السريعة ، لكل محاولة لدفع الجزائر الى الاستقلال عن السلطنة العثمانية .

وقد تأكدت هذه الظاهرة من خلال مسألة معينة ، هي الغزوات الـتي كانت تنظمها طائفة الرياس ضد الشواطىء الفرنسية . فقد كان الباب العالي يعارض في هذه الغزوات

ويصدر الأمر تلو الأمر بوضع حد لها ، لكن الجزائريين رفضوا ذلك واستمروا يهاجمون الشواطىء الفرنسية بناء على أن فرنسا لم تتحالف رأساً مع الجزائر ، وقد كانت القسطنطينية تخشى باستمرار أن يتطور الشعور الى أن تنفصل الجزائر نهائياً عنها فسلكت في هذا المجال سياسة أدت الى اضعافها هي واضعاف الجزائر معاً كما سيتأكد ذلك فيما بعد .

عندما وصل جعفر باشا الى الجزائر بادر بارسال الجنود الأتراك الى الداخل للقضاء على الثورات التي نجمت ، لكنه لم ينجح في اقرار الأمن إلا على حساب ضحايا جدد أججت السخط القديم على الأتراك ، لذلك أراد الجنود الأتراك أن يتخلصوا منه فتآمروا عليه وقرروا قتله . لكن جعفر باشا سمع بالمؤامرة وفاجأ المتآمرين خلال الثلاثين من أفريل ١٥٨١ ، وقطع رؤوسهم من الغد .

وبعد ذلك بشهر وصل قلج علي الى الجزائر على رأس ستين باخرة حربية كبيرة ، على نية اعداد جيش كبير ينطلق من الجزائر لاحتلال المغرب .

لكن ثورة قبائل الداخل في الجزائر لم تكن قد هدأت واستغل أعداء قلج علي هذه الفرصة ، فأتهموه لدى الباب العالي بأنه يريد أن يستقل بالجزائر وتونس فالمغرب ، وقد وجدت هذه التهمة صدى لدى السلطان العثماني لأنها تدخل في نطاق المخاوف القديمة من الجزائر .

ولاشك ان السلطان العثماني كان يُفَكِّرُ في طريقة قلج علي بمغادرة شواطىء المغرب العربي والعودة الى القسطنطينية لكنه خشي ان هو لم يعرف كيف يختار طريق ماهرة ، ان يكشف عن تفطنه لنوايا قلج علي الاستقلالية ، وخشي ان يؤدي ذلك بقلج علي الى التعجيل برفع القناع ، على فرض ان هناك قناعاً من هذا النوع . في هذا الظرف بالذات ثارت الجزيرة العربية على الاتراك فكانت مناسبة لدعوة قلج علي الى وضع حد لاعداد الحملة ضد المغرب بدعوى ان السلطنة العثمانية بحاجة الى كامل قواتها لتواجه ثورة الجزيرة .

فغادر قلج علي الجزائر في بداية ١٥٨٢ وكله حسرة ، فقد غادر شمال افريقيا الذي

كان على وشك ان يحقق فيه امنية غالية ، لأن سلطان المغرب ، عندما سمع باعـداد الحملة ضده بدا عليه الخوف وارسل الى قلج علي يعرض عليه الولاء والطاعة والهدايا .

رمضان باشا وحسن فنزيانو :

عندما غادر قلج علي الشواطىء الجزائرية استصحب معه جعفر باشا ، وارسل القائد رمضان الذي جاء الى الجزائر واليا عليها للمرة الثانية .وقد صدر الامر الى القائد رمضان من قلج علي ان يعيد باخرتين فرنسيتين كان حجزهما احد الرياس عرف باسم « الرئيس مورات » وبمجرد ما علمت طائفة الرياس بنية القائد رمضان على معاقبة الرئيس مورات الذي كان مبجلا فيها ، حتى ثارت ثائرتها واعلنت تمردها عليها ، ولم يكن القائد رمضان بالرجل الذي يستطيع ان يواجه مثل هذه المواقـف بحزم ، فهرب الى منزل بضواحي الجزائر ولم يغادره إلا يوم سفره الى طرابلس، فاستولى رئيس الطائفة ، مامي ارناؤوط، على الحكم الى ان قدم حسن فنزيانو الذي كان في ذلك الوقت يقود حملة ضـد شواطىء كورسيكا وسردانيا ، واسبانيا وايطاليا ؛ وما ان سمع بهذه الأنباء حتى لحق بالجزائر وانتصب والياً ؛ وليس من المستبعد أن يكون حسن فنزيانو قد تلقى أمراً سرياً من القسطنطينية بالسير إلى الجزائر ، اذ أن الباب العالي لم يبد أي اندهاش لانتصاب حسن فنزيانو والياً على الجزائر ، رغم أن كل الظواهر تدل على أن ثورة طائفة الرياس هي التي شقت له طريق الولاية في هذه المرة ، خصوصاً مع ما عرف عن الباب العالي من مقاومته الشديدة لكل محاولة من الجزائر تبدو معهـا في مظهر المنتصر ضد ارادة السلطنة العثمانية .

وقد استقر حسن فنزيانو في منصب الباشوية إلى سنة ١٥٨٨ عندما عين قائداً عاماً للاسطول العثماني مكان سيده السابق قلج علي وقاد حسن فنزيانو عدة حملات ضد الشواطىء الاسبانية والفرنسية والايطالية ، وقد تمكن من التسرب إلى برشلونة التي نجح في تهريب عشرة آلاف مسلم منها .

وقد رشحته هذه الانتصارات المختلفة لخلافة مكان قلج علي الذي توفي في سنة ١٥٨٧

عن سن تناهز الثمانين .

ومع موت قلج علي انتهى عصر من ألمع العصور في تاريخ العهد التركي بالجزائر ، على ما فيه من هنات . فبعد هذا العصر جاء عصر الباشوات الثلاثين لأن كل واحد منهم يعين لمدة قصيرة ، ولئن كانت هذه السياسة المبنية على التخوف المستمر من الجزائر ، قد نجحت في المحافظة على الرابطة التي تشد الجزائر إلى الخلافة العثمانية ، فان هذه الرابطة قدضعفت بسبب هذه السياسة نفسها ، وأصبحت رابطة اسمية أدت الى انفصال الجزائر في الواقع انفصالاً لم تفد منه القسطنطينية ، ولم تستفد منه الجزائر ، لأنـــه كان انفصالاً لم يحاول الاستناد على قواعد شعبية إلا في فترة متأخرة .

الباب الخامس

توحيد الجزائر

- الوضع في مدينة الجزائر .
- فرقة اليولداش .
- طائفة الرياس .
- موارد الدولة .
- بدء التسرب الفرنسي .

مدينة الجزائر

في منتصف القرن العاشر الميلادي تحصل بلكين بن زيري على رخصة من أبيه ، فأذن له في تأسيس ثلاث مدن في المنطقة التي أسندت اليه شؤون ادارتها ، فأسس المدن الثلاثة التي تعرف اليوم باسم المدية – مليانة – الجزائر ، وقد اختار بناء الجزائر في نفس الموقع الذي كانت تحتله مدينة أيقسيوم الرومانية كما رأينا من قبل ولكن هجومات الونـــدال خربتها فظلت خراباً ما يقرب من مائتين وخمسين عاماً . وكل ما كان يشاهد في ذلـــك الموقع قبل بناء الجزائر من طرف بلكين بن زيري ، هو قطمان المعز التي كانت تملكهـــا قبيلة مزغنة التي كانت خيامها تمتد على أعالي بوزريعة .

وشيئاً فشيئاً جلب المناخ الطيب لهذا الموقع الجميـــل على شاطىء البحر ، السكان من جهات مختلفة . ولم تصل سنة ١٠٨٠ ميلادية حتى اصبحت الجزائر مدينـــة كبيرة كما شهد بذلك البكري ثم الادريسي بعده . فكل منهما وصفها بكثافة السكان وازدهار التجارة، لكن حروب القرن الثاني عشر أثرت في هذا التطور الوليد ، كما أثرت على عدة مدن تخربت كلها ، وهناك من المؤرخين من يؤكد أنه وقع تخريب ثلاثين مدينة في تلك الفترة، التي وقعت فيها الجزائر تحت سلطة الموحدين ثم المرابطـــين ثم خضعت لسلطان بجـاية فمملكة تلمسان وتونس ، وانتهت في الأخير الى امتلاك نوع من الذاتية المستقلة تحت امرة شيـخ الثعالبة ، قبل ان تنتهي الى الحـكم التركي .

والواقع ان الجزائر لم تتطور تطوراً كبيرا إلا في عهـد الحـكام الباي لارباي ، الذين حصنوها وجعلوا منها مركزاً عسكرياً وميناء هاماً ، تنطلق منه وتنتهي اليه شبـكات التجارة ، وتنطلق منه غزوات الرياس البحريين ضد شواطىء البلدان المعـادية للجزائر والتي تعتبر نفسها في حالة حرب معها مثل اسبانيا .

وإلى هذا العصر يرجع انشاء أولى القصور الجميلة التي عرفتها مدينة الجزائر، وكذلك

الحمامات والمساجد . فقد ازدهر العمران في هـذا العصر ، واستعملت ألواح الرخـام المستوردة من ايطاليا وصقلية في تجميل القصور والمساجد والحمامات .

وساعد على ازدهار الفنون المعمارية هجرة مسلمي الاندلس الذين حملوا اليهـا فنون الحضارة الاسلامية بالاندلس ، وأدخلوا على الجزائر نوعاً من الحياة الحضرية المترفـة والشغف بالفنون الجميلة . وما كاد ينتهي عهد حكام الباي لاربابي الذي استعرضنا فيما سبق وقائمه السياسية – لم يكد ينتهي – حتى أصبحت مدينة الجزائر تعد – باعتراف المؤرخ المسيحي هايدو – عشرة آلاف بستان اشتهرت بالخصب والجمال، وكانت سهول الساحل والمتيجة مليئة بالمزارع التي كان اصحابها يستعملون على الأخص العبيـد المسيحيين الذين يقال ان عددهم في هذه المزارع كان يبلغ خمسة وعشرين الفاً .

ويشهد المؤرخون لذلك العهد ، ان الجزائر كانت تعد حينذاك اثني عشر الف ومائتي منزل من المنازل الجميلة الواقعة كلها داخل سور تعلوه ثلاثـة أبراج خارجية لحمايتها من المعتدين ، وكان السكان المسلمون يترددون على مائـة مسجد بينما كانت توجد كنيستان للمسيحيين .

وقد تم توزيع المياه الصالحة للشرب بواسطة ثمانية عيون عموميـة كبيرة في الاحياء العامة من المدينة ، وهذا ما عدا العيون الخاصة . كما بنى حسن باشا ومحمد بن صالح رايس حمامات صنعت أحواضها من رخام ليتردد عليها كل السكان مجاناً . كما بنيت سبع ثكنات للجنود الأتراك غير المتزوجين .

ويجمع المؤرخون على ان الرخاء كان يعم مدينة الجزائر في ذلك العهد : فقد كان الصيد البحري وحده كافياً لتزويد السكان بما يحتاجون اليه ، فكيف اذا اضيفت الى ذلك التجارة الخارجية التي كانت بأيدي مهاجري الاندلس من مسلمين ويهـود ، يضاف الى ذلك ان ازدهار الصناعات اليدوية الدقيقة التي نشطت على ايدي المهاجرين من الاندلس ، جلبت الى الجزائر القوافل من الداخل التي كانت تـأتي لتتزود من هذه المصنوعات الجديدة .

اما التجارة فلسنا بحاجة الى التأكيد على ازدهارها في ذلـك العصر : فيكفي ان

ان نلاحظ فقط امرين لنتصور درجة ازدهارها ، الاول هو المغانم التي كان يكسبها الرياس في غزواتهم والتي تعتبر هي المحرك الاساسي للسوق بما تلقيه فيه من كنوز ثمينة تأخذ طريقها الى داخل البلاد او الى اروبا . الثاني هو بروز الاهمية التي اصبحت تكتسيها الجزائر مما دفع البلاد الاروبية الى المتاجرة عبر الجزائر والى التفكير في استغلالها بطريقة او باخرى كما تدل على ذلك محاولة ملك فرنسا شارل التاسع .

وباختصار كان الرخاء سائداً في عهد الباي لارباي ، ولم يكن يفد تلك الحياة الناعمة الهادئة ، الا ما كانت تحمله بعض البواخر من جراثيم الطاعون الذي يفتك بالسكان، وما كان يتسبب فيه القحط من مجاعة ، نظراً الى ان المورد الاساسي للسكان هو الزراعة .

فرقة اليولداش

عندما فكر عروج في تأسيس دولة الجزائر ، لم يكن يملك تحت تصرفه إلا الجنود البحريين الذين كانوا يصحبونه في غزواته ، لكن شهرة عروج جعلته يبرز بين الرياس البحريين الذين اعتبروه قائدهم . فالسلطة التي كان يملكها عروج كانت سلطة قبلتها طائفة الرياس البحريين بمحض اختيارها ولم تفرض عليهم فرضاً ، وعندما مات عروج خلفه شقيقه خير الدين دون ان ترى طائفة الرياس مانعاً من ذلك .

وقد دفعت الضرورة بعد ذلك خير الى ان يضع نفسه تحت تصرف السلطان العثماني في سنة ١٥١٨ ، مما جعله يتحصل على مدد يتركب من الفي جندي تركي من العسكر انضم اليهم اربعة آلاف متطوع تركي منحت لهم نفس الامتيازات التي كانت ممنوحة لفرقة اليولداش .

وبعد ان استولى خير الدين على برج الفنار وطرد منه الاسبان تفرغ الى تنظيم قوته العسكرية التي كانت تتركب من طائفة الرياس ومن فرقة اليولداش ، وهذه الاخيرة كانت عبارة عن لفيف اجنبي حقيقي .

ولكي نتصور بوضوح التنظيم العسكري الذي وضعه خير الدين ونتفهم الخلافات التي

نشأت بعد ذلك يجب ان نعرف بأن الفرقة العسكرية التركيــة كانت ترحب بكل من يرد عليها من الأجانب بما فيهم المسيحيون الذين اعتنقوا الاسلام ، وكانت مجرد العضوية والانخراط في هذه الفرقة ، تمكن صاحبها من امتيازات خارقة ، فالعدالة العـــادية لا تشملهم والعقوبات التي يتعرضون لها كانت عقوبات سرية وخاصة ، ويكفي ان يستظهر الواحد منهم بما يثبت انتمائه لهذه الفرقة ، كي تخلي العدالة سبيله ولا تمسه بأذى كما كانوا يعفون من الضرائب .

وبقدر ما كان جنود هذه الفرقة مشهورين بالشجاعة والاقـــدام بقدر ما اشتهروا بانعدام الثقافة ، والصلف والعنف ، مما جعل منهم على طول الزمن ، قـــوة خطيرة يتطلب استعمالها ايدي حازمة ومهارة خارقة للعادة .

وتتركب هذه الفرقة من الجنـــدي البسيط او « اليولداش » ومن « الشاوش » (وهو نظير السرجان) ومن « الاولا اباشي » (اي اليوتنـــان) ومن « البولوكاشي » كابتان ثم الاغاباشي(كومندان) و « الوكيل خـــارجي » (المتكلف بالادارة) ثم الكاهية (كولونيل) ثم الآغا (جنرال) .

والقوانين التي تمنح بها هذه الرتب العسكرية قوانين قائمة فقط على مراعاة الاقدمية ، ويبدو انها خاضعة لاعتبار اساسي وهو المساواة المطلقة .

فمرتب الجندي البسيط يرتفع تدريجيــاً ليصل بعــد خمس سنوات الى الحد الاقصى ، ولن يتجاوزه بعد ذلك مهما ارتفعت درجة صاحبه ، وبعد مرور شهرين على بـــلوغ الشخص مرتبة الآغا ، يتحصل على لقب شرفي هو « موصولاغا » وآنذاك يفقد حقه في كل قيادة عسكرية ، لكنه يصبح عضواً في الديوان الاعلى ، ويستطيـع ان يتحصل على مسؤوليات مدنية .

وقد كانت أعلى الرتب العسكرية تمنح للاتراك في الدرجة الاولى ، وقد تمنح ايضـــاً للمسيحيين الذين يعتنقون الاسلام . اما ما عداهم من الجزائريين ولو كانوا « كراغلة » (اي من أب تركي وأم جزائرية) فقد كانوا يبعدون عن الرتب العسكرية العليا ، وان كان مسموحاً لهم بالانخراط في الفرقة ، والواقع ان حرمـــان الكراغلة والجزائريين من هذا

الحق يرجع فقط الى سنة ١٦٣٣ م عندما استولت فرقة اليولداش التركية على الحكم ، فانتقمت بذلك من الجزائريين سكان العاصمة الذين أيدوا طائفة الرياس .

* * *

طائفة الرياس :

ازاء هذا التنظيم للجيش البري التركي نجد أن تنظيم طائفة الرياس او البحرية يختلف عنه كثيراً وأول أوجه الاختلاف يرجع الى الظروف التي تكونت فيها هذه الطائفة التي تتكون من القراصنة لكن عبارة «القراصنة» تعبير مجازي استعملناه لتوضيح الصورة. لان القرصنة في بداية نشأتها في حوض البحر الابيض المتوسط لم تكن تهدف الى الاعتداء والنهب ، ولكنها كانت رد فعل قام به المسلمون ضد القراصنة المسيحيين الذين كانوا عبارة عن قراصنة حقيقيين يقومون بنهب الشواطىء الاسلامية تحت ستار الاستمرار في خدمة الصليب .

ان تصور الظروف التي ولدت حركة الرياس البحريين يعيننا على فهم الجو السائد بينهم :

فالمحرك الاساسي لحركتهم ، وهو رد الاعتداءات المسيحية ، واعانة مسلمي الاندلس على الهجرة وافتكاكهم من براثن محاكم التفتيش ، أشاع بين الرياس البحريين روحاً من الاخوة والتعاطف ، كما كانوا أبعد ما يكون عن تلك الكبرياء وذلك الصلف الذي كان ينصف به جنود الجيش البحري ، ومن هنا لم تكن طائفة الرياس تخفي احتقارها لفرقة اليولداش .

وقد أدرك خير الدين ما بين طائفة الرياس وفرقة اليولداش من فروق في التكوين ، فأراد أن يستغل ذلك واعتمد أساساً على طائفة الرياس وعرف كيف يكسب عطفها ، فأسس قوة من الحرس وجيشاً يتركب من حوالي ثمانية آلاف جندي هم من اليونان وألبانيا واختار معظمهم من البحارة ، ووزع قيادات مختلف وحدات جيشه على رفاقه وعطف عليهم ، مثلما فعل عندما أعلن الحرب على الامير بيامينو ليجبره على ارجاع ابن سنان اليهودي الذي وقع في أسره، كما بذل فدية ضخمة لافتداء أحد رفاقه الرياس،

وبذلك تمكن من تشكيل قوة هامة يستطيع أن يعتمد عليها ضد اليولداش . وقد تطورت هذه الطائفة بعد استقرار الحكم العثماني في الجزائر ، وازدهرت صناعة السفن والبواخر في الجزائر ، فكانت توجد حظائر لبناء المراكب البحرية الضخمة في باب الواد ، وحظائر أخرى في باب عزون لبناء السفن الاقل منها أهمية .

وكان الجزائريون يحولون المراكب التجارية التي يستولون عليها الى مراكب حربية بالاضافة الى التي يصنعونها ، كما كانوا يستعملون في هذه الحظائر حتى المهندسين المسيحيين وكانت قيادة المركب الحربي تتركب من :

الوكيل خارجي ، وهو المكلف بالتموين ، وعددهم ثلاثة في كل مركب ، ومن الورديان ، ورايس العسة ، والباش رايس ، والرايس. وقد يوجد فوق كل مركب ضباط آخرون اضافيون لا مهمة معينة لهم ، يطلق عليهم اسم « رايس الطريق » وهؤلاء هم الذين تسند اليهم قيادة البواخر المحجوزة ، ويوجد الى جنب الرايس سكرتير يطلق عليه اسم خوجة ، ويقوم في نفس الوقت بوظيفة الامانة وكل مركب يتوجه للغزو ياخذ معه عدداً من عسكر اليولداش يقودهم ضابط برتبة آغا ، وهؤلاء يقومون بدور الفرسان .

والملاحظ أن وجبة الأكل فوق المراكب البحرية الجزائرية واحدة يستوي فيها اليولداش والبحارة والعبيد المسيحيون الذين يقومون بمهمة التجذيف .

ولا يعطى لقب رايس إلا بعد امتحان يتم أمام مجلس الرياس الذي يرئسه القبطان ، ومنصب القبطان مخصص لاقدام الرياس.وكانت معظم المراكب التي يستعملها الجزائريون مراكب منخفضة ، بحيث لا يمكن اكتشافها في البحر بسهولة ، كما اشتهرت تلك المراكب بالسرعة ، وهذان العنصران : السرعة والاختفاء جعل المراكب الجزائرية أقوى من المراكب الاروبية – ويعترف المؤرخون الاوربيون بأن المراكب الجزائرية كانت تنتصر في معظم الأحيان وقلما تنهزم .

أما اقتسام المغانم فكان يتم – بعد أخذ الخمس – كما يلي :

نصف الغنائم يرجع إلى صاحب الباخرة المنتصرة سواء كان فرداً أو شركة أو واحداً من الرياس ، والنصف الآخر يقسم إلى مائة سهم : فيأخذ القبطان أربعين سهماً ، ويأخذ الآغا ثلاثين ، وعشرة توزع على الضباط ، والباقي على البحارة واليولداش البسطاء .

* * *

ليس من الغريب أن يلجأ خير الدين إلى الاعتماد على طائفة الرياس لأنه هو نفسه كان واحداً منهم . لكن هناك شيئاً آخر دفع خير الدين إلى الاعتماد على هذه القوة ، يتمثل في أن مجموعة الرياس تشكل قوة دفاعية هجومية هامة تجبر كل الدول على احترامها ومراعاتها ، بل وتضطرها إلى دفع نوع من الجزية : فكل من الولايات المتحدة وهولندا والبرتغال ونابولي والسويد والنورويج كانت تدفع بالاضافة إلى الجزية الأسلحة ومختلف أنواع العتاد اللازم لصناعة السفن والذخائر الحربية ، وحتى الدول التي لم تكن تدفع الجزية مثل فرنسا وبريطانيا كانت تضطر إلى دفع هدايا ضخمة بصفة منتظمة مرة في كل عامين . فليس من المبالغة والحالة هذه اعتبار طائفة الرياس أقوى دعامة الدولة الجزائرية في تلك الفترة وأبرز مقوم لمكانتها الدولية .

وليس من المستبعد ان يكون خير الدين قد اهتدى بنافذ عبقريته السياسية الى مستقبل طائفة الرياس فاعتمد عليها في تدعيم سلطانه ، وأبعد اليولداش عن النفوذ الحقيقي .

صحيح ان فرقة اليولداش كان لها ديوان ، لكنه ديوان كانت تقتصر مهمته على شؤون الفرقة دون أن يكون له أي تصرف في شؤون الدولة على عهد خير الدين ومن بعده من الحكام الباي لارباي. وهناك من قادة اليولداش من كان يؤذن لهم في حضور ديوان الباشا أو الديوان الذي يجتمع كل يومين أو كل ثلاثة أيام لمناقشة شؤون الدولة . لكن الباشا كان يكتفي بأخذ الآراء فقط .

وقد حاولت فرقة اليولداش ان تستولي على الحكم بالجزائر غير ما مرة لكنها منيت بالفشل ولم تتمكن من النفاذ الى الحكم إلا بعد موت قلج علي .

وقد أدرك الولاة الباي لارباي الخطر الكامن وراء هذه الفرقة التي كانت مصدر

فوضى واضطرابات بما كانت ترتكبه من مظالم ضد السكان الذين يلجـــأون باستمرار للثورة في وجه الطغيان . وقد حاول الولاة البـــاي لارباي ان يتخلصوا منها بواسطة تشكيل جيش جزائري صرف يمكن الدولة الناشئة من الاستغناء عن الجنود الاتراك . إلا ان فرقة اليولداش استوحت الخطر التي يتهددها من وراء هذه المحاولة فأوعزت الى الباب العالي بأن طائفة الرياس تريد الاستقلال بالجزائر والانفصال عن الباب العالي بواسطـــة الاعتماد على جيش جزائري صرف ، وقد نجح اليولداش في اثارة مخاوف السلطان العثماني .

وقد كانت هذه المخاوف هي السبب الذي جعل الباب العالي يعمد الى مراعاة التوازن بين القوتين ، ومراعـــاة التوازن جعلت دولة الجزائر تحمل من البداية جراثيم التفكك والانحلال .

وقد رأينا فيما سبق بعض العلامات التي تنذر بالتطور الذي تم في المستقبل ، وذلك بالرغم من أن الفترة التي استعرضناها في الفصول السابقة كانت فترة غزوات بحرية دعمت سمعة طائفة الرياس وجعلتهم القوة الوحيدة المرهوبة الجانب ، يضاف إلى ذلك أن معظم الولاة الباي لارباي كانوا في نفس الوقت هم قادة الأسطول العثماني وكانت كلمتهم نافذة لدى الباب العالي .

موارد الدولة :

كانت موارد الدولة الجزائرية في هذا العهد تأتي من :

١ – الزكاة على الماشية والحبوب وكانت هناك فرقة خاصة تعرف بـ « المَحَلّة » هي التي تكلف بجباية أموال الزكاة وغيرهـــا من أنواع الضرائب التي كانت تثقل كاهل السكان ، ويغتنم الجنود الأتراك في هذه الفرقة في مطالبة الفلاح بعطايا زائدة على النصيب المطالب به رسمياً وتقضي فرقة المحلة حوالي خمسة اشهر تتجول في داخل البلاد لإجبار شيوخ القبائل على دفع الزكاة والضرائب .

٢ – الحكر – وهو كراء أرضي المخزن .

٣ – الغرامة او اللازمة .

والواقع أن هذه الموارد الثلاثة لا تمثل إلا جزءاً يسيراً من موارد الدولة ، فالسكان كانوا كثيراً ما يمتنعون عن دفع الضرائب وكثيراً ما تتطلب الحملات الموجهة لقهرهم مصاريف أكثر مما تحققه هذه الموارد ، وقد كانت للدولة موارد اخرى أكثر أهمية هي :

٤ – حقوق الديوانة وهي عبارة عن أحد عشر في المائة من قيمة كل السلع الصادرة والواردة .

٥ – خمس المغانم التي يتحصل عليها الرياس في غزواتهم .

٦ – أنواع الجزية المفروضة على الدول الاوربية .

٧ – العوائد وهي الهدايا التي تقدمها الدول الاجنبية بمناسبة تعيين باشا جديد او بمناسبة تجديد معاهدة أو تعيين قنصل الخ ..

ويقول دي بورمون ان مجموع هذه الموارد يبلغ خمسمائة الف لويزة سلطاني في حين أن المصاريف لا تكاد تذكر ، لأن جنود النوبة والمحلة يعيشون على داخل الوطن، واجور الذين يقيمون بمدينة الجزائر لا تمثل الا جزءاً قليلاً .

ولذلك ما لبثت ان تضخمت كنوز الدولة الجزائرية واشتهرت شهرة كبيرة شملت أرجاء أروبا ، وأسالت لعاب حكامها .

بدء التمرد الفرنسي :

كان الرياس عندما يعودون من غزواتهم يفتحون موائدهم لسكان العاصمة ، ويغدقون على من حولهم . وهذا السلوك الذي يختلف عن صلف اليولداش ومعاملتهم للسكان ، حبب سكان العاصمة في طائفة الرياس ودفعهم الى مساندتها ضد اليولداش .

وقد استمدت طائفة الرياس من حب السكان وتعلقهم بها قوة ما لبثت ان أثرت على العلاقة التي كانت تشد طائفة الرياس الى الباب العالي : فقد وهت تلك العلاقة شيئاً

فشيئاً الى أن حدث تمرد مامي أرناؤوط وموراررايس .

لكن سلطة الباب العالي على طائفة الرياس ظلت قوية الى سنة ١٥٨٠ .

ولذلك ظلت طائفة الرياس ، الى هـذه السنة ، تحترم أوامر الباب العالي فيما يتعلق بعدم التعرض للفرنسيين ، وقد استغل الفرنسيون صداقة الباب العالي فتحصلوا في ١٥٦١ على رخصة بتوسيع بعض المتاجر وتحويلها الى مصارف دائمة ، فاستقرت شركة يسيرها كارلوس ديديي وتوما زولينسيو بالقرب من عنابة وفي كل من القالة والقل ، وكانت المهمة الأساسية للشركة تتمثل في صيد المرجان وفي بيع السلع الفرنسية مقابل القموح والشمع والجلود التي يدفعها السكان .

* * *

توحيد الجزائر

ان الجزائر لم تتميز داخل حدود معينة واضحة ثابتة إلا في العهد التركي . ففي هـذا العهد توحدت الجزائر سياسياً واصبحت خاضعة لسلطة مركزية استقرت في مدينة الجزائر التي أصبحت هي العاصمة .

ويرجع سبب الوحدة الترابية للجزائر في ذلك العهد ، الى المخاطر التي كانت تتهدد سكان المغرب الاوسط ، فقد شعر هؤلاء السكان انهم لا يستطيعون أن يقفوا أمام الخطر الاسباني ان هم ظلوا على انقساماتهم وتفككهم ، لانه ليس في استطاعة القوة التجارية التي كانت هي القوة الوحيدة المنظمة ، ان تصمد في وجه عدوان عسكري .

وقد اكد الشعور بالخطر ، ان الاسبان ، بعد انتصارهم على آخر ملوك المسلمين في الاندلس ، أرادوا تمديد نفوذهم الى شمال افريقيا ، فاحتلوا مليلة في سنة ١٤٩٧، ثم مرسى الكبير في سنة ١٥٠٥ ، ثم وهران في سنة ١٥٠٩ ثم بجاية في سنة ١٥١٠ ، كما احتلوا برج الفنار في مواجهة مدينة الجزائر .

اذن فقد كان الخطر الأسباني واضحاً قائماً ملموساً ، وتمثل في عدة مناطق من الجزائر في مجازر وتقتيلات وتخريبات نالت من عمران الجزائر وأثرت فيه ، فالى هـذه الفترة

يرجع – كما ألمحنا الى ذلك قبــلا – تخريب عدة مدن ، والى هذه الفترة يرجع تدهور العمران في مدينة بجاية ، وتخريب ميناء حنين القريب من تلمسان .

وقد كان المنطق يفرض على الدويلات الجزائرية التي كانت قائمـــة آنذاك ان تطلب العون والنجدة من ملوك بني زيان في تلمسان ، لكن يجب أن نتذكر أن ملوك بني زيان لم يترددوا – لتثبت انفسهم تجاه سلاطين فاس – في اللجوء الى الاسبان يطلبون حمايتهم ومن ثم فقد كانوا مشبوهين في نظر ســكان المغرب الاوسط ، ولم يكن من المعقــول الاستنجاد بملوك تلمسان على حلفائهم الأسبان .

ويجب ان نسجل بالاضافة الى ذلك ان الخطر الاسباني لم يتجسم بوضوح الالسكان الساحل ، أما سكان المناطق الداخلية فقد كان يهمهم قبل كل شيء تدعيم استقلالهم .

لكن لئن كانت الدويلات الجزائرية الناشئة بعيداً عن السواحل تريـد قبل كل شيء التمسك باستقلالها ويحاول أصحابها انشاء ممالك جديدة لصالحهم ، كما هو شأن زناتـــة بـــني راشد الذين كانوا يريـــدون انشاء دولة حـــول قلعتهم بـــين معسكر الشلف ، وكذلك بني عباس في البيان ، وفي جمة الصهريج – لئن كانت تلـــك الدويلات تهدف قبل كل شيء الى تدعيم استقلالها ، فان طبقة التجار التي كانت مستقرة في الساحل بالجزائر في تنس مثلا كان يهمها في الدرجة الاولى ان تجد قوة تحميها من خطر الاسبان ، وتضمن لها مواصلة نشاطها التجاري ، لذلك طلبت النجدة من الاخوين عروج وخيرالدين ، وقد تمكن خيرالدين – بعد موت اخيه – من الصمود في وجه الاسبان ورد عن الجزائر حملتين كبيرتين ، وقد ظهر خيرالدين في صورة من وضع الاساس السياسي للوحدة الترابية للجزائر ، فهو الذي تمكن من ازاحة النفوذ الحفصي عن القبائـل وعن الشرق القسنطيني ، وهو الذي طرد الاسبان من برج الفنار وهو الذي رسم خط السير لمن بعده ، فخليفته حسن آغا هو الذي عزز الدولة الناشئـــة بطرد الاسبان من بجاية ، وبهزم شارلكان أمام الجزائر ، وطرد بني عبد الواد نهائياً من تلمسان .

وبذلك تنظمت دولة بسطت نفوذها على عدة مجتمعات مختلفة ، تستمـــد الطبقات الحاكمة فيها نفوذها الفعلي من الوجاق الذي يقع نظرياً تحت سلطة العثمانيين ، وشيئــاً

فشيئاً أصبحت الجزائر متميزة بطريقة تنظيمها عن تونس شرقها وعن مراكش غربها. لكن طبيعة الحكم الذي استقر بالجزائر في نفس الوقت الذي نشأت فيه الدولة الجزائرية داخل حدود مميزة، طبعت هذه الدولة بطابع خاص ميزها وأبرز معالمها الخاصة من جهة، ومن جهة أخرى حرمها من وسائل التطور الذي كان سيفتح أمامها أبواب الرقي الحقيقي.

ذلك ان اعتماد خير الدين على السلطنة العثمانية من جهة، وعلى طائفة الرياس وفرقة اليولداش من جهة أخرى، جعل الجزائر واقعة تحت حكم لا هو بالعثماني الخالص، ولا هو جزائري صرف، بل هو حكم طبقة خاصة هي طائفة الرياس التي أرادت أن تعتمد في تسيير الحكم على الجزائريين. لكن العداوة النامية بين فرقة اليولداش وطائفة الرياس حالت دون أن يتطور الحكم إلى حكم جزائري صرف.

وسنعود إلى موضوع طبيعة الحكم الذي استقر في الجزائر بعد العهد التركي وتحليله على ضوء الأحداث السياسية التي سنستعرضها في الفصول القادمة.

* * *

الباب السادس

عهد الباشوات الثلاثين

- طريق الباشوية .
- الحروب مع أوربا .
- تأسيس سور الغزلان .
- المعركة ضد اليولداش .
- حملة صليبية كبرى ضد الجزائر .
- الجزائر ضد القسطنطينية .

عهد الباشوات الثلاثين

رأينا فيما سبق أن مناطق الشمال الافريقي التابعة للنفوذ العثماني كانت تتركب من ثلاثة أقسام ، على رأس كل منها باشا ، وهي : طرابلس وتونس والجزائر ، وكانت هذه الأقسام الثلاثة خاضعة لسلطة شخص يعينه الباب العالي ويحمل اسم « الباي لارباي » الذي يكون مقره غالباً في الجزائر .

ويبدو أن هذا التنظيم الذي يجمع ثلاثة من بلاد المغرب العربي تحت سلطة شخص واحد، كان مستوحى من الظروف ومن طبيعة المشاكل التي كانت تواجه السلطنة العثمانية. فقد كانت القسطنطينية تواجه عدواً قوياً هو أسبانيا التي كانت تحتل بعض القواعد على شواطىء المغرب العربي والتي تمثل تهديداً مستمراً للممتلكات العثمانية في المغرب العربي . فسداد الرأي يملي والحالة هذه توحيد هذه الأقطار تحت قيادة شخص واحد غالباً ما تسند اليه في نفس الوقت قيادة الأسطول العثماني الذي كان يخوض اكثر الغزوات في حوض البحر الابيض المتوسط .

وليس من محض الصدفة أن نجد غير ما مرة – في هذه الفترة التاريخية التي تمتد من عهد خير الدين الى موت قلج علي – ان الشخص الذي يتولى الباشوية بالجزائر هو نفسه الذي يترقى الى منصب الباي لارباي ثم الى منصب القائد العام للاسطول العثماني .

فهذا التدرج طبيعي : اذ انه ما دامت طبيعة المشاكل تفرض توحيد أقطار المغرب العربي تحت سلطة واحدة ، فمن الطبيعي أن يقع الاختيار على الجزائر لتكون مركز هذه السلطة باعتبار موقعها من طرابلس وتونس والمغرب (الذي وان يقع تحت النفوذ العثماني كان دوماً يدخل في حسابات السياسة العثمانية بطريقة أو بأخرى) من جهة والى موقعها من الدول الاوروبية من جهة ثانية .

وما دامت طبيعة المشاكل في هذه المنطقة مرتبطة بالغزوات البحرية مع الدول

الأروبية في حوض البحر الابيض المتوسط ، فمن الطبيعي اسناد منصب القيادة العامة للاسطول الى شخص يكون قد عاين هذه المشاكل وعاشها والشخص الذي تتوفر فيه هذه الشروط أكثر من غيره هو طبعاً باشا الجزائر .

* * *

لكن موت قلج علي وضع حداً لهذه الاعتبارات وتلك المشاكل – ذلك ان اسبانيا حاولت في مناسبات عديدة ان تقترب من الباب العالي ، لكن قلج علي كان دوماً يقدم شرطاً أساسياً لذلك هو جلاؤها عن مرسي الكبير ووهران .

فلما مات قلج علي خفت حدة العداوة بين اسبانيا والسلطنة العثمانية ، ووجدت المحاولات الاسبانية لدى الباب العالي صدى أحسن مما كانت تجده في الماضي ، وفي نفس الوقت بدأت العلاقات بين ملك فرنسا والسلطان العثماني تصاب بنوع من الفتور ، وبذلك تغيرت معطيات المشاكل التي كانت تواجه السلطنة العثمانية في حوض البحر الأبيض المتوسط ، وهذا التغيير في المعطيات الخارجية التي تتحكم في تسيير السياسة العثمانية في بلاد الشمال الافريقي – هذا التغيير كان من نتائجة أن عزز المخاوف القديمة من انفصال الجزائر عن الباب العالي ، وأصبح توحيد كل من تونس وطرابلس والجزائر تحت امرة واحدة أمراً يبعث على الخوف بعد أن كان مرغوباً فيه بوصفه أحسن طريقة لمواجهة الدول الأوربية العدوة ، خصوصاً بعد أن زالت الدواعي التي كانت تحتم هذا التوحيد . لذلك قررت القسطنطينية وضع حواجز بين الجزائر وتونس وطرابلس وتسيير كل منها بواسطة باشا يعين رأساً من العاصمة العثمانية ، لمدة ثلاث سنوات .

ويبدو أن هذا القرار اتخذته القسطنطينية قياساً على الطريقة التي كانت تحكم بها في تركيا وفي آسيا الصغرى وحتى في بعض المناطق الأوربية ، فما المانع من اعتماد نفس الطريقة في المغرب العربي ؟

لكن القسطنطينية غفلت عن حقيقة أساسية وهي اختلاف الوضعية بين أقطار الشمال الأفريقي والأقطار الأوربية والآسيوية القريبة منها : فولايات تركيا وآسيا الصغرى

كانت قريبة من العاصمة العثمانية بحيث لا يخطر على المسؤول الذي تعينه القسطنطينية أن يتمرد عليها خصوصاً وانه لم تكن تحت تصرف أولئك المسؤولين قوة عسكرية كبيرة تستطيع أن تعتمد عليها في تمردها على الباب العالي . لذلك كانت كل الأوامر الصادرة لأولئك المسؤولين مقدسة .

يضاف إلى هذا الاعتبار اعتباراً آخر بالنسبة لبعض المناطق الأوربية المتاخمة لتركيا، وهي أن تلك المناطق وان كانت بها قوة تركية هامة لكنها كانت تدين بدين آخر غير الاسلام : فلم تكن هناك رابطة متينة تربط بين المسؤول الذي تبعث به القسطنطينية وبين سكان البلاد ، ومن ثَمّ فلا خوف من حدوث تواطىء بين ذلك المسؤول وبين السكان لإقامة حكم منفصل عن الخلافة العثمانية .

في حين ان الامر يختلف عن ذلك بالنسبة للمغرب الأوسط الذي استقرت به قوة عسكرية تركية هامة أرسلت في مبدأ الامر لبسط النفوذ العثماني وتعزيزه ضد السلطنة المغربية من جهة ، ونوايا التوسيع الاسباني من جهة اخرى ؛ فتغير الظروف التي مضت بارسال هذه القوة واستقرارها بالجزائر ، من شأنه ان يبعث القسطنطينية على التفكير في ضبط نظام يتماشى مع الوضعية الجديدة للسياسة الدفاعية والخارجية ، من جهة ، ويقرأ من جهة اخرى حساباً للمعطيات الخاصة بالجزائر ، إلا أن القسطنطينية عِوَضَ أن تبحث وتهتدي إلى طريق يضمن ذلك عمدت الى محاكاة سطحية عادت عليها وعلى الجزائر بعواقب وخيمة .

طريق الباشوية .

فتعيين الباشا لمدة ثلاث سنوات يجعل ، الباشا يعرف ان مدة ولايته محسوبة وهذا الشعور له دخل كبير في خلق الانفصال بين الوالي والشعب ، لانه يحس أنه ليس في حاجة الى ولاء الشعب ما دامت مدة ولايته محدودة ، وتبعاً لذلك يصبح المهم عند الباشا هو جمع اكبر قسط ممكن من الاموال في انتظار انتهاء مدة الولاية .

وقد تسبب هذا الشعور وهذا السلوك في تحديد الطريق الذي يعتمده المرشحون

لمنصب الباشوية ، وطبع هذا الطريق بطابع معين هو طابع الرشوة ، فما دامت الباشوية في الجزائر تدرك كنوزاً ثمينة ، فما المانع من بذل الرشوة والهدايا للمسؤولين في القسطنطينية حتى يسموا لتعيين هذا أو ذاك .. وتشكلت بذلك حلقة مفرغة من الرشوة كان الشعب هو الذي يدفع حسابها باستمرار : فالوصول الى منصب الباشوية يتطلب تقديم هدايا وأموال، والحصول على هذا المنصب يعني في نظر الباشا تكديس اكثر ما يمكن من الأموال والكنوز لتسديد ما كان دفعه في الحصول على المنصب ، وضمان عيشة رخية بعد انتهاء مدة الولاية .. وتأكدت حلقة الرشوة والفساد واستحكمت مع مرور الايام آخذة بخناق الشعب الذي كان يدفع دوماً دون ان يستفيد شيئاً .

وما دام الحصول على الثروة هو الهدف الأساسي للباشوات فقد أصبحت قضية الحكم مسألة ثانوية لا تهمهم ، وشيئاً فشيئاً انتقل الحكم الفعلي الى ايدي اخرى .

وقد تبينا في الفصل السابق كيف ان الحكم كان مثار نزاع فرقة اليولداش وطائفة الرياس وذلك من شأنه ان يعقد مهمة الباشا رغم تسليمه في الحكم الفعلي .

لأن الباشا هو أول من يتعرض للسخط في حالة قيام تمرد ، ويصبح هو هدف التمرد من جهة ، وموضوع سخط القسطنطينية من جهة ثانية ، فلا بد له إذن من العمل على ترضية كل العسكر وطائفة الرياس ، ويصبح همه الأكبر هو العمل بكل طريقة ممكنة على ربح الوقت في انتظار انتهاء مدة الولاية . وليس مثل سياسة ربح الوقت مخرباً للحكم ، ومضرة للبلاد وتعويداً للشعب على الشك في الحكم والنفور منه .

وهكذا تعززت حلقة البحث عن الثروة بحلقة مفرغة اخرى ابتدأت بمحاولة ربح الوقت وانتهت الى نفور الشعب من الحكم الذي يولد بدوره سياسة ربح الوقت وهكذا.. ذلك هو باختصار السبب الأساسي في ذلك الطابع الذي طبع الدولة الجزائرية في عهد الباشوات الثلاثين ، وهو طابع العزلة والانفصال عن الشعب والتخبط داخل المشاكل التي تعيشها العاصمة وعدم الاهتمام بما في أنحاء الوطن إلا بالقدر الذي يضمن استمرار المداخل للدولة وبقاء السلطة الاسمية العثمانية .

ومع مرور الزمن أصبحت مقومات السلطة مجرد مظاهر وشكليات تتمثل في القصر

وفي الحرس الخاص ، وفي الشواش ، وفي مكان الصدارة أثناء الحفلات العمومية الخ ..

أما السلطة الحقيقية فقد انتقلت من الباشا الى الديوان ، حتى أصبح الباشا لا يجرؤ على الذهاب الى الديوان إلا عندما يطلب منه ذلك ، وبعد ان كان الديوان لا يملك إلا رأياً استشارياً أصبح هو المرجع في تسطير سياسة الدولة ، وهو الذي يقرر السلام أو الحرب ، من غير ان يبحث عن مدى انسجام قراره مع سياسة الخلافة العثمانية التي يمثلها الباشا .

وسنتبين في الفصل الآتي ، من خلال الوقائع والأحداث أثر هذا الوضع وانعكاساته العملية .

حروب جديدة مع أوربا :

كان أول باشا عين طبقاً للتنظيم الجديد هو دالي أحمد الذي ركز عنايته على الغزوات البحرية ، وتولى بنفسه قيادة المراكب التي غزت في سنة ١٥٨٦ وفي سنة ١٥٨٨ شواطىء مملكة نابولي ، وصقلية ، والدول البابوية و كورسيكا واسبانيا .

وقد غادر الجزائر في سنة ١٥٨٩ مستصحباً معه ثروة ضخمة ، وتوجه إلى طرابلس التي ثار سكانها بقيادة شيخ طريقة صوفية اسمه سيدي يحيى ، فانتصر جيشه لكنه قتل في المعركة .

فخلفه الخضر باشا وفي عهده ازدهرت الغزوات البحرية التي نظمتها طائفة الرياس ، ولمعت أسماء وثروات رياس عديدين معظمهم من أصل أوربي مثل مامي قورصو ، ومامي نابوليتانو . وفي عهد هذا الباشا ، طلب ملك فرنسا هنري الرابع من الباب العالي أن ينظم حملة ضد مرسيليا التي تمردت على هنري الرابع ، لاجبارها على الخضوع له .

فأذن الباب العالي للرياس الجزائريين في ذلك ، بعد أن كانت الشواطىء الفرنسية محرمة عليهم بأمر السلطان العثماني نفسه .

وفي عهد هذا الباشا أيضاً بدأت قبيلة بني عباس ترفض دفع الضرائب وكان ذلك نذيراً واضحاً بالثروة التي كانت تعتمل في النفوس ، وقد أراد الخضر باشا أن يضع حداً

لهذا التمرد الوليد ، حتى لا يكون مثالاً يحتذى في بقية القطر .

فسار على رأس جيش يتركب من خمسة عشر ألف جندي في ديسمبر ١٥٩٠ لمحاصرة قلعة بني عباس لكن القلعة كانت منيعة ، بحيث تعذر على الأتراك أخذها بقوة الهجوم ، لذلك انصرف الخضر إلى حفر خنادق واسعة حول القلعة وأرسل فرقة لتخريب الجهات المحيطة بها ، ولما رأى قائد بني عباس ذلك وأدرك ما فيه من ضَرَرٍ عليه وعلى قبيلته كلف شيخاً دينياً محترماً بأن يطلب باسمه السلام من الخضر. وأدرك الخضر من ناحيته أن موسم الشتاء لا يناسب الحرب في هذه المناطق ، وأن بردها بدء يؤثر على جيشه ، فقبل العرض في مقابل أن يدفع قائـــد بني عباس تكاليف الحرب ، وعاد الى الجزائر بفرقه .

تأسيس سور الغزلان :

وفي سنة ١٥٩٢ – أرسلت القسطنطينية شعبان مكان الخضر الذي أتهمته فرقــة البولداش باختلاس أموال الدولة ، فحكم الجزائر مدة ثلاث سنوات لم يسجل لنا منهـا التاريخ من الأحداث البارزة الا حكاية طاعون ومجاعة وعاصفة هوجاء حطمت في سنة ١٥٩٣ عدداً من مراكب الرياس . وفي جويلية ١٥٩٥ توجه شعبان إلى القسطنطينيـة تاركاً مكانه أحد أقاربه واسمه مصطفى ، لم يلبث في الحكم إلا أربعة أشهر .

والى مصطفى هذا ينسب تأسيس بلدة سور الغزلان ، ويقال ان سبب تأسيس هذه المدينة ، يرجع إلى أن بني عباس الذين ثاروا من جديد في عهد شعبان قطعوا الطريق بين الجزائر وقسنطينة على فرق المحلة التي كانت تخرج لاستخلاص الضرائب وانتصروا هذه المرة على الأتراك فبنى مصطفى سور الغزلان لتكون مرحلة في طريق خط مواصلات جديد يربط بين الجزائر وقسنطينة .

وفي شهر ديسمبر ١٥٩٥ عاد الخضر الى ولاية الجزائر ، بعد أن تمكن من تبرئـــة ساحته .

وبمجرد انتصابه من جديد بالجزائر حجز خمس عشرة الـف لويزة ذهبيــة من أموال

سلفه ، خصصها لاعادة بناء موقع الميناء الذي خربته عاصفة ١٥٩٣ .

المعركة ضد اليولداش :

وقد فكر الخضر في خطة للتخلص من نفوذ وقوة فرقة اليولداش التي لم يغفر لها ما دست عليه من تهم لدى الديوان الاكبر في القسطنطينية ، وكانت هذه الفرقة قد تضخمت من حيث العدد ، فازداد صلفها وكثرت عمليات النهب التي يتركها اعضاؤها ، فرأى الخضر أن أحسن طريقة للتخلص منها تتمثل في تسليح السكان الجزائريين وفتح باب الثورة أمامهم ضد العسكر التركي وحاول في الوقت نفسه أن يتحصل على ود وتأييد طائفة الرياس .

ولسنا في حاجة الى التنصيص على نوع الشعور الذي كان يحمله سكان مدينة الجزائر لعسكر الأتراك ، لكن لا بد من التذكير بظاهرة أخرى .

كنا أشرنا إليها ، وهي ظاهرة تعين على تصور مبلغ سخط سكان العاصمة عليهم؛ تتمثل هذه الظاهرة في الفرق الكبير بين سلوك طائفة الرياس وبين سلوك العسكر : فطائفة الرياس كانت بالاضافة الى كرمها الباذخ ، تعتبر في نظر السكان هي المورد الأساسي لمعاشهم ، لأن المغانم التي كانوا يكسبونها خلال غزواتهم هي التي كانت تغذي السوق وتنشط التجارة التي كانت تمثل النشاط الأساسي لسكان العاصمة ، أما المصنوعات المحلية التي كانت تأتي من داخل البلاد فقد بدأت تقل مثلها في ذلك مثل المستهلكين من سكان الداخل الذين قلت أسفارهم الى مدينة الجزائر ، بفعل المظالم التي كان يرتكبها العسكر التركي .

لذلك لم يتردد سكان العاصمة وخصوصاً الكراغلة عندما سلحهم الخضر في اعلان الحرب على اليولداش وحدثت مجازر رهيبة في شوارع الجزائر ، وسرعان ما سمع السكان خارج العاصمة بتحرك الكراغلة فخفوا للمساهمة في الانتقام من العسكر التركي ؛ وفي ظل الرغبة المشتركة في الانتقام من الجنود الأتراك تحقق نوع من الحلف بين سكان الداخل من أبناء الجزائر وبين الكراغلة من سكان العاصمة .

وقد كان في امكان الخضر أن يستغل هذه الموقعة ويتخلص نهائياً من (فرقة)

البولداش بواسطة تكوين جيش من الجزائريين يكون أحسن دعامة يعتمد عليها الباشا في تخضيد شوكة تلك الفرقة الأجنبية التي كانت تعيش من امتصاص دماء الشعب .

لكنه لم يفعل ، وقبل بأن يتم الصلح مع الجيش التركي وفوت على نفسه فرصة ما لبث أن أدرك خطأه في تفويتها . .

فقد عاد البولداش اثر ذلك الى الدس عليه والكيد له وتقديمه في صورة من يعد العدة للاستقلال بالجزائر .

فعوضته القسطنطينية بعد عام من عودته للحكم ، بسلفه مصطفى الذي انتقم منه بحجز كل ممتلكاته ومطالبته بغرامة قدرها ثلاثون ألف لويزة ذهبية .

وبعد أن دفع الخضر ثمن غلطته ، دفع الجزائريون بدورهم ثمن ذلك الخطأ فقد اشتدت عليهم وطأة العسكر التركي فعم السخط وانضم السكان في الثورة على الاتراك الى بني عباس الذين تمكنوا بهذا التأييد من الزحف الى ابواب العاصمة وعسكروا في حدائق باب عزون وحاصروا مدينة الجزائر مدة أحد عشر يوماً ، اضطروا بعدها الى رفع الحصار أمام هجوم شديد نظمه الاتراك .

وقد اغتاظت القسطنطينية لاستمرار الثورة وعاقبت مصطفى باشا لانه لم يتمكن من قهر ثورة بني عباس فعزلته وسجنته وعينت مكانه دالي حسن أبو ريشة .

ولم تطل اقامة حسن دالي في هذا المنصب لان فرنسا طلبت عزله من القسطنطينية وسبب ذلك ان الفرنسيين بحكم الامتيازات التي كانت تخول لهم استعمال بعض الموانىء ، كانوا يسمحون لبعض البواخر الاجنبية غير الفرنسية بالارساء في تلك الموانىء فاعتبر الجزائريون ذلك اخلالاً بالعهد وأرسلوا الى فرنسا يفاوضونها في هذا الشأن ، لكن المبعوث الجزائري لم يجد أذناً صاغية ، فما كان من الجزائريين الا ان قاموا برد الفعل وحجزوا بعض المراكب الفرنسية .

حملة صليبية ضد الجزائر :

عندما تسلم سليمان (فنزيانو) الحكم أراد أن يضع حداً لثورة القبائل الذين أجبروا الأتراك على خوض حرب عصابات منهكة ، فتولى بنفسه قيادة الجيش ونظم في سنة ١٦٠٠

حملة ضد أحمد أمقران قائد مجانة ، وسار في اتجاه وادي الساحل حتى دخله ، وتقدم أحمد أمقران نحوه وتمكن من دفعه وراء برج حمزة (البويرة) الذي كان نصبه الاتراك للحد من تحركات قائد مجانة وتمكن من هزم سليمان باشا لكن أحمد أمقران قتل في نهاية هذه المعركة فخلفه ابنه سي ناصر وحاول سليمان باشا أن يعيد الكرة مرة ثانية بعد ذلك بعام فانهزم امام جمعة الصهريج .

في هذا الوقت بالذات أراد الأسبان أن يغتنموا فرصة هذه المصاعب التي يواجهها باشا الجزائر ويستغلوها في الهجوم على الجزائر .

وقد أعد خطة هذا الهجوم قرصان فرنسي كان قد تسرب الى الجزائر ودرس تحصيناتها ومواردها العسكرية ، وقد لاحظ أن القوة المخصصة لحراسة الميناء تخف في فصل الصيف، لانها تتوجه حينذاك لجمع الضرائب والزكوات ؛ ويتمثل البرنامج الذي أعده الكابتن روكس — فهذا هو اسمه — في الدخول ليلاً الى ميناء الجزائر بأربعة مراكب حربية ، فيحطم باب البحرية ، ثم يهجم على المنطقة السفلى من المدينة ، فيطلق سراح الأسرى المسلمين الذين كان يبلغ عددهم حينذاك خمساً وعشرين الفاً حسب تقديرات المؤرخين الأوروبيين ، وبعد ذلك يضرم النار ، وتكون هناك بواخر أسبانية على أهبة الاستعداد للهجوم بمجرد ما تلمح ألسنة اللهب ، فتنزل الفرق التي تحتل مدخل الميناء والجهات المحيطة بها باكراً مع أضواء الفجر ، وبذلك تستيقظ المدينة فتجد نفسها محاطة بالاعداء من كل جهة .

ذلك هو ملخص البرنامج الذي أعده الكابتان الفرنسي ، وقدمه الى اسبانيا حيث درسه المجلس الملكي ، وقرر تنفيذه بعد درسه ؛ وقد كلفت أسبانيا الأميرال دوريا بتنفيذ العملية . (وهو حفيد دوريا الذي تحدثنا عنه سابقاً) وكان الأميرال دوريا يعرف الجزائريين أحسن من المغامر الفرنسي الذي ظن أنه يستطيع أن يهاجم مدينة الجزائر بنفس الطريقة التي يهاجم مرسى صغيراً من مراسي أروبا .

وقد أدرك دوريا أن هذا البرنامج ليس كافياً في تحقيق احتلال الجزائر وان احتلال الجزائر أخطر من أن يتحقق بأربعة مراكب بحرية .

لذلك غير دوريا البرنامج وقرر ان يجمع لاحتلال الجزائر أكبر قوة ممكنة ، وتجمعت

بالفعل القوات في جنوة ؛ وفي نابولي وفي جزر الباليار ، وفي صقلية ، وفي سردانيـة وزحفت هذه المجموعة الضخمة على مدينة الجزائر في شهر سبتمبر ١٦٠١ ، متركبة من سبعين مركب حربي وعشرة آلاف رجل ويقسم مؤرخ ايطالي عاش تلك الفترة القوات التي هاجمت الجزائر حسبما يلي :

« الباخرة المسماة لاريال مع ستة عشر مركباً وحرس جنوة ، ومركبين لدوق سافوا في خدمة الملك، والجميع تحت قيادة كارلو دوريا، دوق تورسي جنرالهم وستة عشر مركباً من نابولي يقودها بيير طليطلة ؛ واثنا عشر من صقلية من بينها تسعة للملك وثلاثة لدوق يقودها بيير دي ليوا ، وأحد عشر من أسبانيا يقودها الكونت دي بوانـدية وخمسة تابعة للبابا تحت قيادة الكومندور مانيولونو وستة تابعة لجمهورية جنوة بقيادة الكونت جيو مع تومازو دوريا جنرالاً ، واربعة من طوسكانا يقودها مارك أنتونيو كالافاتوي. »

ويقول نفس المؤرخ الايطالي عن عدد الجنود الذين تركب منهم هذه الحملة ما يلي :

« كان عدد الجنود أكثر من عشرة آلاف وكانوا موزعين إلى « تيرسي » (وهي الوحدة التكتيكية العسكرية التي كانت تتنظم حسبها العصابات الاسبانية القديمة) موزعة كما يأتي : ألف وستمائة من لومبارديا يقودها جنيقودي بورجيا ، ألف من بروطانيا يقودها بيدرو طليطلة دي أنايا ألفان من نابولي يقودهم بييترو فيفارو ، ألف ومائتان من صقلية تحت قيادة سالازار كاستلانو دي باليرمي ، خمسمائة من جيش الحاكم أنتونيو كينونسى ، ألفان وخمسمائة إيطالي يخضعون لأوامر بارنابا دي باربو ، وألف وخمسمائة من فيلق مملكة نابولي تحت قيادة أنيبال ماسيدونيكو ؛ وزيادة على ذلك تعهدت بواخر قداسة البابا بانزال ثلاث مائة وخمسين جندياً من أحسن الجنود ، وتعهدت بواخر طوسكانا بانزال أربعمائة يضاف إلى ذلك عدد كبير من فرسان سانت ايتيين انضموا الى الحملة وقد سلم الأمير القيادة العامة إلى قائد معسكره مانويل دي خيفا كابو دي قاكا ، وهو كابتان محنك شجاع ، كما كان هناك عدد كبير من المغامرين يجب أن ندخلهم في الحساب ، من بينهم دوق دي بارم الذي انضم إلى كارلو دوريا مع فرسانه المائتين وخدمـه وجنوده القدامى ، ومن بينهم أيضاً فيرجينو أورسينو دوق براسيانو الذي أبحر فوق الباخرة فلورنسا ومركيز ايلش الذي أبحر فوق الباخرة ريال ، وآلفو أدييكيس جنرال الخيالة

الخفيفة لدولة ميلانو الذي اختاره الأمير عضواً له وديبغو بيانتال .

مانويل مانريسكي كومندور أراغون : والكونت دي سيلانو ، وماركيز غارسيفي ، وهرقل غونزاق ، وجيو جيرمينو دوريا ، وأورليو طاغليا كارن وعدد آخر من القبطانات والشخصيات البارزة من بينهم سبعة أو ثمانية من شخصيات روما » .

وكانت خطة الهجوم تتمثل في التقدم نحو المدينة ثم التوقف على بعد مسافة منها لا تسمح لمن في الشاطىء بتبين وملاحظة القوات القادمة وهناك ينزل نحو الثلاثمائة جندي إلى سفن صغيرة ويتقدمون نحو الشاطىء لمهاجمة باب البحرية ، وعندما يتم تحطيم الباب ، تتقدم وحدات الأسطول بسرعة إلى الأمام لإنزال الجنود ؛ وفيما إذا لم تتمكن الطليعة من تحطيم الباب والاستحواذ عليه تتقدم الباخرة « ريال » على رأس خمسة عشر مركباً من أحسن المراكب لإنقاذ جنود الطليعة ومواجهة غير ذلك من الاحتمالات .

ويقول المؤرخ الإيطالي المذكور في وصف تطور الحملة ما يلي :

« – في الثلاثين من أغسطس اقتربت وحدات الحملة من شواطىء أفريقيا ، وقد كان من المقرر أن لا تصدر الأوامر الأخيرة إلا عندما يقع الاقتراب من الأرض لكن كل البواخر التي أرادت أن تقترب من الباخرة « ريال » سارت ببطء بحيث تفرقت كلها مع مطلع الفجر . وكانت الباخرة « كابتان صقلية » قد تخلفت بحيث لم تعد ترى بحيث أنه في الوقت الذي كان مطلوباً فيه من كل أحد أن يحترم الأوامر بكل دقة كان هو الوقت الذي اهملت فيه مراعاة الأوامر إلى أقصى حد .

وضاعت أكثر من ثلاث ساعات في جمع وحدات الأسطول .

وبعد ذلك سحبت الشراعات ، وتوقفت على بعد ثلاثين ميلاً من المدينة ، وبما أن قائدي البواخر لم يكونوا يعرفون البلاد ، فقد بدا لهم أنه من الأفضل البقاء على هذا الوضع وقد رأى الأمير أنه من الأنسب التعرف على الأرض بواسطة سفن صغيرة تبحث عن نقطة من نقط الساحل تكون أقرب

وبحيث يمكن إرساء البواخر الكبرى فيها أما الذهاب إلى أبعد من ذلك فقد كان يعد خطأ لأنه كان قد وضع معظم الجنود في السفن وكان يستعد للهجوم على الجزائر ، لكن الذين كلفوا بالتعرف على الشاطىء لم يعودوا قبل الليل ، فغضب الأمير الذى تلقفته الشكوك وخشي أن يكونوا قد وقعوا في الأسر أو هربوا ، ولم يكن من الممكن أن يستسلموا بمحض إرادتهم للأتراك لأن الفرق التي كانت في السفن وهي أكثر عدداً ما كانت لتتركهم يفعلون ذلك ولم يكن هناك ما يخشى من ناحية البحر الذي كان هادئاً ، لكن هذا التأخير كان غريباً ومضراً ، وعندما جاء المساء عادوا إلى الاسطول قائلين بأن التيار حملهم بعيداً عن شاطىء الجزائر بنحو خمسين ميلا بحرياً في اتجاه الشرق ، ونظراً لذلك لم يتمكنوا من الاقتراب من الأرض خشية أن يكتشفوا ، وقد تقرر أن تنطلق الحملة . كلها من هنا ابتداء من الغد لتتوجه الى المكان المعين ، وكان كل احد يستعد للنزول ، كما وزعت كل الاوامر الضرورية ، وكان شيئاً جميلا اندفاع الجنود ، فقد كان كل احد منهم يظهر انبل الحماس وبما انه وقع اختيار الثلاثمائة جندي الذين ساروا في الطليعة من بين الجنود الاسبان ، فقد شكا الايطاليون من عدم تمكينهم من المساهمة في الانتصارات الاولى ، فبعث دوق دي بارم الى الامير يلحون عليه ان يشركهم في قوات الطليعة لكن الامير لم يرد الخلط بين الجنود فوعدهم بترضيتهم اثناء حملة اخرى ؛ وفي آخر الليل ،وفي الوقت الذي لم يكن يفصلهم فيه عن شاطىء البحر اكثر من عشرين ميلا هبت ريح يونانية من الناحية الشرقية بعنف شديد بحيث لم يكن في الامكان مواصلة الهجوم ولا البقاء على نفس الوضع ، فوجب سحب الجنود الذين نزلوا للسفن ، بل ولم يكن بد من ترك الحرية للرياح اللعينة تأخذ المراكب الى حيث شاءت .

ذلك ما قاله مؤرخ ايطالي عاشر هذه الحملة ، وهو جيرونيمو كونسيتاجيو ، في رسالة نشرت في جينوة ، ثم اعيد طبعها في البندقية سنة ١٦٠٢ .

ويبدو ان هذا المؤرخ الايطالي هو المؤرخ الوحيد الذي تكلم عن هذه الحملة باسهاب .

اما مصير الكابتان الفرنسي روكس صاحب الاقتراح الاصلي في تنظيم هذه الحملة ضد الجزائر ، فيحيط به الغموض ، لأن الامير دوريا ابعده ولم يسهمه في الحملة ولعل

مرجع ذلك الى عدم ثقته في الخطة التي اقترحها روكس ، وقد رجع روكس بعد ذلك الى بلده فرنسا ، حيث سجن لأن ملك فرنسا اشتبه فيه ان يكون عيناً من عيون اسبانيا ، ومهما يكن من شيء فان ملك فرنسا لم يرقه مشروع روكس الذي لو نجح لأدى الى تعزيز وتدعيم موقف اسبانيا التي يجب ان لا ننسى انها كانت في تلك الفترة قد بدأت توسع مصالحها التجارية في المغرب العربي بعد ان تحصلت على الامتيازات القنصلية في الجزائر .

وفيما يتعلق بهذه الحملة ايضاً نجد المؤرخ الفرنسي دي غرامون يحاول تفسيرها بما فسر به بدء التسرب الاسباني الى الجزائر ، فهو يقدم هذه المحاولة في قالب هجوم دفاعي يرمي الى ابعاد خطر الثورة المتوقعة من طرف مسلمي الاندلس والتي يجد من يغذيها في الجزائر ، ويقول بهذا الصدد ما يلي :

ان دوق دي كومنت لافورس كان قد تلقى من المور القاطنين في اسبانيا اقتراحات بعقد تحالف ، فقد لفت انتباه الملك الى سخط هؤلاء السكان والى ما في ذلك من فُرَص يمكن استغلالها ضد اسبانيا وقد تَذَوَّقَ الملك هذه القضية تذوقاً كبيراً وطلب منه ان يعمل جاهداً في سبيل تحقيق هذا الهدف دون كلل ، وقد طلب الدوق من الملك ان يبقى السر بينهما ، ثم تفرغ لمفاوضات ، وقد نظمت المسألة من طرف المور تنظيماً منسقاً للغاية جعل الدوق يعترف لهم بنظام رائع في ادارة شؤونهم وفي حبك خطط هذا المشروع الكبير بحيث لم يبق إلا التنفيذ وكان الدوق قد ارسل عدة مبعوثين الى اسبانيا للاتصال بالمور لكن احدهم ، وهو باسكال دي سانت ايستيف ، اكتشف من طرف الاسبان ، وعذب ثلاث او اربع مرات ، ثم اعدم دون ان يتوصل الاسبان الى انتزاع كلمة سر منه ، وهناك مبعوث آخر ، وهو السيد (دي بانيسولت) كان اسعد حظاً فتمكن من حضور المجمع الذي عقده قادة الانقلاب في طوغة ، ونقل الى هنري الرابع المداولات التي جرت في ذلك المجمع ،وقد وقع المذكرة باسم الجميع احمد المتصرف ، وتقول : هذه المذكرة « انهم (اي مسلموا الاندلس) لا يطلبون إلا الاسلحة وبعض القادة العسكريين المدربين ، وان الطلقات الاولى ستجعلهم سادة ملكة فالانس ، وأن المور الذين سيكونون قد توزعوا ، سيثورون عند ذلك ثورة رجل واحد ، وان كل

شيء قد تَمّ تنظيمه ، وانهم ينتظرون فقط الاذن الذي يطلبون من الملـــك اعطاءه في اقرب الآجال واشاروا بذينه كموقع مناسب لدخول القوات الآتيـــة من الخارج ، ووعدوا باعداد ثمانين الف جندي في الداخل وبتسليم ثلاثة مدن هامة ، وقد نقل السيد دي بانيو معه الى الملك الفرنسي خريطة تبين الطريق الذي يجب السير فيه والنقط الـتي تحتاج الى تحصين ومخازن السلاح والتموين ، وكل ما يلزم لهذا الهدف الكبير ؛ وفي ١٦٠٤ جاء مندوبو المور الى فرنسا للتعجيل بالحركة ، يقودهم دوفلوبيز الذي عينه فيما بعد ريشليو مستشار الدولة ، ويبدو ان انتونيوبريز الشهير قد ساهم في هذه المفاوضات وتلقى الدوق قيادة العمليات العسكرية ، وكان من المقرر ان يؤدي القسم بوصفه مارشال فرنسا ، لولا ان قتل رافياك هنري الرابع قبل اليوم المحدد لأداء القسم بيوم واحد ، وهكذا انقذت مُدْيَةُ رافياك من خطر محقق اولائك الذين قد يكونون هم الذين نظموا الجريمة ، وقد كان هنري الرابع قد خصص دوراً هاماً للقوات الجزائرية في تنفيذ هذا المشروع . فقـــد كان من المقرر ان تسيطر البواخر الحربية الجزائرية على البحر حتى تمنع قدوم الامداد من ايطاليا وصقلية ، بينما تقذف السفن الخفيفة القادمة من الجزائر بالاسلحة والمتطوعين الى شواطىء الاندلس وفي طليعتهم ابناء الذين اضطهدوا في ١٥٧٣ .

وبالرغم من أن دي غرامون أراد أن يسوق رواية هذه الحوادث في قالب معين يهدف الى تبرير العمليات الوحشية التي قام بها الاسبان ضد مسلمي الأندلس ، فان هـذه الرواية نفسها تشتمل على اعتراف ضمني بأن المعركة الحقيقية كانت تجري بـــين فرنسا من جهة واسبانيا من جهة اخرى ؛ كما أن في الرواية اعترافـاً ضمنياً بأن مسلمي الأندلس كانوا في نظر الفرنسيين أداة للمناورة ضد الاسبان لاضعاف البيت المالك في اسبانيا أي أن هنري الرابع ، ملك فرنسا أراد أن يستغل روح الانتقام التي تغلي بهـا نفوس مسلمي الأندلس في تعزيز سلطانه بكامل حوض البحر الأبيض المتوسط ، كما أن البيت المالك في أسبانيـا بعد أن دفع بمظالمه مسلمي الأندلس الى الثورة أراد أن يستغل محاولتهم رد الفعل في تنظيم رد فعل معاكس يخلصه نهائياً من المسلمين ، ويحرم بالتالي فرنسا من احدى الاوراق الهامة في مناوراتها ضد اسبانيا ، فمدار المعركة الحقيقي بين أسبانيا وفرنسا هـــو السيطرة على حوض البحر الابيض المتوسط وعلى شواطىء المغرب العربي .

على ان هناك نقطة غامضة في سياق دي غرامون ، فهو يسوق هذه الحوادث ليبرر بها الهجوم الأسباني الذي وقع ضد الجزائر في سنة ١٦٠١ ويؤكد ان مقتل هنري الرابع هو وحده الذي وضع حداً للاعدادات التي تمت في اسبانيا لتنظيم ثورة المسلمين ، في حين ان مقتل هنري الرابع تم سنة ١٦١٠ ، أي بعد ذلك بتسع سنوات وليس من المعقول أن تستمر هذه الاعدادات سرية طوال هذه المدة .

الجزائر ضد القسطنطينية :

عاد الخضر للمرة الثالثة الى الجزائر في سنة ١٦٠٣ فشجع طائفة الرياس على عملية الغزو وأراد أن يضع حداً للامتيازات الفرنسية التي منحها الباب العالي لفرنسا ، فهدم المركز التجاري الفرنسي وأسر عدداً من الفرنسيين .

فأرسل ملك فرنسا هنري الرابع الى القسطنطينية يشكو الخضر ويطلب الانتقام منه ، فما كان من السلطان العثماني الا ان وجه قوصة باشا الذي أعدم الخضر بمجرد وصوله الى الجزائر ، وحجز كل ممتلكاته ، لكن الباشا الجديد لم يستطع ، رغم التعليمات التي صدرت اليه من القسطنطينية أن يعيد بناء المركز التجاري الفرنسي كما كان يطلب الفرنسيون لأن الديوان الجزائري كان يعارض في ذلك ، وقد أراد دوق توسكان أن يستغل بدء الخلاف بين الجزائر وفرنسا في تنظيم هجوم خاطف على ميناء الجزائر واضرام النار في البواخر الحربية الجزائرية ، لكن بعض التجار اليهود الذين كانوا يتعاملون مع طائفة الرياس أبلغوهم النبأ فاستعد الجزائريون لمواجهة الهجوم وأحبطوه .

وقد بذل السفير الفرنسي محاولات كبيرة للحصول على إعادة بناء المركز الفرنسي لكن دون جدوى بل أن الديوان الجزائري ذهب إلى حد الوعيد بقتل كل من يسمح بإعادة المركز التجاري الفرنسي .

وفي هذه الأثناء وصل السيد دي بريف إلى الجزائر صحبة مصطفى آغا القابجي مبعوث الباب العالي، وكان هذا المبعوث يحمل أمراً من الباب العالي إلى الجزائريين باحترام الامتيازات الفرنسية والاستجابة إلى مطالب فرنسا واطلاق سراح الأسرى الفرنسيين واعادة بناء المركز التجاري الفرنسي ، وارجاع المغانم المأخوذة من الفرنسيين .

اجتمع الديوان يطلب من القايجي الذي قرأ عليه الأمر الصادر من القسطنطينية ، فما كاد الديوان يستمع إلى ما جاء في الأمر حتى انفجر في صفوفه غضب شديد ، وفي الحين قرر أعضاء الديوان تكسير أربع أغوات لأنهم أبدوا استعدادهم لتنفيذ أوامر الباب العالي وانفجرت ثورتان في ظرف ثمانية أيام ، وحوصر الباشا في قصره حيث مات بعد قليل ، وتدخل في الأمر مورا رايس الذي كان يتمتع بشعبية كبيرة لكنه لم يتوصل إلا الى اخماد الغضب ، فقد استمر الدّيوان متشبثاً بوقفه في عدم السماح باعادة بناء المركز الفرنسي ، وفي عدم اطلاق سراح الأسرى الفرنسيين الا بعد أن يطلق الفرنسيون سراح الأسرى الجزائريين في مرسيليا .

بعد موت محمد قوصة خلفه مصطفى القايجي الذي انصرف إلى تحصين الميناء خشية هجوم ينظمه الاسبان وبعد ولاية محمد قوصة بلغ إلى علم الجزائريين أن ركاب باخرة جزائرية وقعت في أسرى الاسبان تمكنوا من الفرار ، لكن الفرنسيين القوا عليهم القبض في مرسيليا فثارت ثائرة الجزائريين عند سماع هذا النبأ وهجمت الجموع الجزائرية على مقر القنصل الفرنسي وألقت القبض على القنصل السيد دي فياس وقد تمكن مصطفى باشا القايجي خلال مدة ولايته من ضم جمعة الصهريج بعد مفاوضات عديدة ضمنت له ولاء منطقة هامة من القبائل ومات مصطفى باشا في ١٦٠٧ بسبب الطاعون .

بعد ذلك عين رضوان باشا ، وفي العام الأول من ولايته هاجمت مرسي عنابة حملة من الطوسقان من دويلات إيطاليا قبل الاتحاد وجاء لنجدتها محمد بن فارح باي قسنطينة فاستشهد أثناء المعركة وبالرغم من ذلك فقد تمكن السكان بعد معركة قاسية من دفع المهاجمين عن عنابة .

وفي هذه الفترة نزل الفرنسيون على شرط الجزائريين وأطلقوا سراح الأسرى الجزائريين الذين كانوا بمرسيليا ، فهدأت بذلك حدة الأزمة بين فرنسا والجزائر ، وعادت العلاقات بينهما إلى ما كانت عليه .

لكن حدث بعد ذلك أن أحد القراصنة من أصل فرنسي اسمه سيمون دانسا كان اشتغل في صفوف طائفة الرياس الجزائريين وشاركهم في الغزو على مراكبهم – حدث أن

فر سيمون دانسا الى فرنسا مستصحباً معـه مدفعـين من البرونز ، كانت الدولة الجزائرية قد سلحت بهما باخرة . وقد أثارت سرقة المدفعين موجة عارمة من الاستياء في الجزائر ، وطالب الديوان بارجاع المدفعين وبمعاقبة السارق ، لكن ملك فرنسا لم يعر اهتماماً لهذا المطلب، فتحمل مسؤولية قطيعة بينفرنسا والجزائر عادتعلى المصالح التجارية الفرنسية بأوخم العواقب .

ذلك ان الرياس الجزائريين أرادوا أن يغسلوا في الحين عاراً رأوا أنهم هم الذين تسببوا في جلبه للجزائر . وتجند الجزائريون وتطوعوا للحرب والغزو وفوق مراكب الرياس ، بينما ساهمت النساء مساهمة كبيرة في شراء الأسلحة بما تبرعن به من حلي ومجوهرات .

وفي هذه الفترة بالذات اقبلت على الجزائر جموع المسلمين الفارين من الاندلس أثر قرار ملك أسبانيا بمنحهم مهلة ثلاثة أيام لمغادرة أسبانيا . والى هذه الفترة يرجع بناء مدينـة البليدة التي بناها مسلمو الاندلس .

وما كادت تصل سنة ١٦١٦ حتى أصبحت الخسائر الفرنسية تقدر بثلاثـة ملايين جنيهاً ، بقطع النظر عن قيمة الأسرى .

وتكررت شكاوي القنصل الفرنسي ، لكن باشا الجزائر كان دائماً يجيبـه بضرورة تسليم المدفعين اللذين سرقهما سيمون دانسا .

وقد حاول الفرنسيون من قبل ذلك أن يجبروا الجزائريين بالقوة على النزول عنـد شروطهم ، لكن دون جدوى ، ومن جمـلة تلك المحاولات هجومهم عـلى متن سفن طوسقانية على مرسي برقش (غورايا) فخربوه .

وفي هذه المدة تولى قوصة مصطفى باشا ولايـة الجزائر للمرة الثانية ، خلفاً لحسين الشيخ باشا الذي وقع في عهده الوباء الاكبر (سنة ١٦١١) الذي هلك فيه عدد كبير من السكان ، وقد كان حسين الشيخ باشا عقد اتفاقية مع داي تونس حدد بها التخوم بـين البلاد الجزائرية والبلاد التونسية ، وقد خابت المفاوضات التي جرت بين الجزائر وفرنسا لوضع حد للحرب الدائرة بينهما في البحار وعلى الشواطىء الفرنسية . وبعد بضعة أشهر تقلد ولاية الجزائر سليمان باشا قاطانيـا في سنة ١٦١٧ ، وفي مدتـه حاول الفرنسيون

استرضاء الجزائريين لما لحق تجارتهم وشواطئهم من اضرار وتخريب على يد الجزائريين ، فأرسل الفرنسيون نحو أربعين من الأسرى الجزائريين صحبة أخ القنصل الفرنسي الذي كان يأمل أن يتحصل من وراء ذلك على سراح الاسرى الفرنسيين واعلان السلام بين الجزائر وفرنسا .

لكن الجزائريين اكتفوا بتسليم أسراهم ، ورفضوا السلم ما لم يرجع الفرنسيون المدفعين اللذين كانت سرقتهما سبباً في اندلاع المعارك بين الجزائر وفرنسا ، بل أن الجزائريين عمدوا إلى تخريب المركز التجاري الفرنسي الذي كان السيد دي كاستلان قد احتله باسم دون دي قيز بالقوة . ونظم الرياس الجزائريون حملة ناجحة ضد جزيرة ماديرا وعادوا منها بغنائم كثيرة ، وبألف ومائتين أسيراً .

بعد ذلك عمدت القسطنطينية إلى عزل سليماً قاطانيا بطلب من سفير فرنسا ، وعوضته بمحسن الشيخ باشا الذي تقلد ولاية الجزائر للمرة الثانية .

* * *

بعد هذه السنوات الطويلة من الحرب بين الجزائر وفرنسا ، لمست الملكية في فرنسا خراب تجارتها مع المشرق بسبب سيطرة الجزائريين على البحر ، ولم تجد بداً من التفاهم معهم ، فراحت تسعى لإنهاء القطيعة ، وقد بعثت الجزائر برسولين إلى فرنسا للتفاوض هما : كينان آغا وروزان باي اللذين أجريا مفاوضات تمهيدية مع دوق دي قيز ثم سافرا إلى مدينة تور حيث كان يوجد الملك ، وهناك أبرمت معاهدة سلم في ٢١ مارس ١٦١٩ تنص على ارجاع الأسرى من الطرفين .

وبعد ابرام المعاهدة عاد كينان آغا إلى مرسيليا حيث كان صدر اليه الوعد بتسليم المدفعين وكل الأسرى الجزائريين . لكن دوق دي قيز رفض تسليم المدفعين بناء على أن المعاهدة المبرمة لا تنص على ذلك ، ولم يكن في إمكان كينان آغا من ناحيته أن يعود إلى الجزائر دون المدفعين . وواجهت المعاهدة من بدايتها مشكلة معقدة من الصعب حلها بطريقة ديبلوماسية : فالفرنسيون من جهة يعتبرون انه من المستحيل اعادة المعاهدة إلى الملك ليوقع عليها بعد إضافة بند جديد . والجزائريون يعتبرون أنهم قد خدعوا ما داموا

لم يتسلموا المدفعين حسب الوعد الشفاهي الذي وثقوا فيه . وطال الأخذ والرد واستمر ما يقرب من سنة . آنذاك قرر تجار مرسيليا الذين عادت اليهم القطيعـــة مع الجزائر بأضرار كبيرة ، أن يشتروا المدفعين من دوق دي قيز ويهدوهما إلى الوفد الجزائري . وبدا أن الحل ممكن بهذه الكيفية ، لكن حدث في هذه الأثناء حادث أجل النهايـــة المرجوة ووتر العلاقات بين الطرفين من جديد .

ذلك أن رجب رايس الجزائري كان قد أخذ مركباً فرنسياً واستحوذ على ما فيه ، وليس من المستبعد أن يكون قد فعل ذلك بناء على أن المعاهدة المبرمة لم تدخل حيز التنفيذ بعد . وقـــد خشي رجب رايس ان يؤثر ذلك على تطور التفاهم بين الجزائريين والفرنسيين فأغرق المركب الفرنسي حتى لا يصل النبأ الى مرسيليا .

لكن اثنين من البحارة تمكنا من النجاة وحمـــلا النبأ الى مرسيليا ، واثار حفيظة السكان الفرنسيين الذين هاجموا مقر الوفد الجزائري ، ورغم المفاجـــأة فقد سارع الجزائريون الى الدفاع عن انفسهم واستمروا في الدفاع طيلة يوم وليـــلة ، آنذاك اضرم الفرنسيرن النار في مقرهم فأجبرهم على النزول الى الشارع حيث ذبح منهم ثمانية واربعون شخصاً .

وقد ادرك المسؤولون الفرنسيون ان هذه المذبحة ستمدد في عمر متاعبهم مع الجزائر فسارعوا الى محاكمة المسؤولين عن المذبحـــة واصدر البرلمان الجنوي بايكس الحكم بالاعدام على اربعة من المتسببين في المذبحة ، وسلط على الآخرين عقوبات مختلفة .

وسرعان ما وصل الخبر الى الجزائر فسارع الباشا والديوان بكتابة رسالة الى فرنسا تطلب ايضاحات ، وحمل الرسالة محمد الشريف صبر كينان آغا . وقد بادر الفرنسيون بدورهم برد جواب يشتمل على كل الايضاحات وتفاصيل الواقعة ، لكن محمد الشريـــف وقع في اسر باخرة طوسقانية بينما كان في طريـــق العودة الى الجزائر ، فتعطل بذلك وصول الجواب الذي كان ينتظره الجزائريون . فثارت ثائرة الديوان ، وخرجت بواخر الرياس تنهب الشواطىء الفرنسية . وقد اراد الفرنسيون ان يردوا الفعل ، وان يعودوا بالقوة الى مركزهم التجاري ، لكن دون جدوى ، وقـــد حاول الهلنديون والانكليز

استغلال هذا الظرف لاملاء شروطهم على الجزائر لكن دون جدوى أيضاً . وفي سنة ١٦٢٣ كلف ملك فرنسا لويس الثالث عشر شخصاً اسمه سانسون نابللون بالتفاوض مع الجزائريين وابرام معاهدة سلم معهم . فسافر الى القسطنطينية وتحصل من السلطان العثماني في ١٦٢٥ على كل الترضيات .

لكن سانسون نابللون ، كان يدرك من تجارب الذين سبقوه ، ان الحكم الحقيقي ليس بيد القسطنطينية ولكنه بيد الديوان الجزائري . لذلك لم يكتف بالأوامر التي حملها من السلطان العثماني الذي ارسل معه ستة ضباط (قابجي) مكلفين بتبليغ تلك الأوامر الى الديوان الجزائري ، وقبل ان يتوجه نابللون الى الجزائر ، ذهب الى باريس لمقابلة الملك الفرنسي والتفاوض معه عمن يتولى تمويل مهمته وتغطية مصاريفه . فأعطاه الملك خمسة عشر الف جنيه ، واعلمه ان كل المدن الساحلية الفرنسية هي التي ستتولى تمويل مهمته لأنها هي التي تستفيد اكثر من عقد السلم مع الجزائر .

وفي طريق ذهابه الى الجزائر مر بمرسيليا فاشترى من هناك المدفعين اللذين تسببا في تلك الأزمة ، وتوجه الى الجزائر التي وصلها في ٢٠ جوان ١٦٢٦ .

احدث ارجاع المدفعين الى الجزائر وتسليم مائتي أسير مسلم ، أثراً طيباً في الجزائر ، وقد كان لنا بللون من الخبرة والذكاء ما دفعه الى الاعتماد على وسائل أخرى غير أوامر القسطنطينية لأداء مهمته ، لذلك اتصل بأعضاء الديوان الجزائري من رياس وضباط مستغلاً في ذلك إتقانه للغة التركية ، وراح يقنعهم بضرورة وضع حد للحرب بين الجزائر وفرنسا ، وعلى هذا الأساس تعددت اتصالاته بحسن قلفاط ، وعلي عرباجي ، وسليمان رايس ، وعلى بتشيني ، وغيرهم من الاسماء اللامعة في الجزائر حينذاك .

وعندما شعر الهولنديون والانكليز أنه على وشك النجاح في مهمته ، أشاعوا أن نابللون قد زور الأمر الذي حمله من القسطنطينية ، مما دفع الجزائر الى ارسال عشرين موصولاغا الى هناك للتأكد من الحقيقة ، كما ان مهمة نابللون لم تكن لتروق لبعض الشركات التجارية الفرنسية ، ذلك ان بعض التجار الفرنسيين كانوا رغم الحرب ، يتاجرون مع بعض المناطق الداخلية من الجزائر بواسطة السوق السوداء فيبيعونها الأسلحة ، مقابل

القموح والشمع والجلود ، وبما ان الاتراك كانوا يعارضون في بيع الأسلحة للمناطق الداخلية الجزائرية ، فقد قامت سوق سوداء أفاد منها التجار الفرنسيون المذكورون . فابرام السلم مع فرنسا والحالة هذه وفتح مركز تجاري فرنسي يمركز كل النشاط التجاري الفرنسي مع الجزائر من شأنه أن يقضي على هذه السوق السوداء .

وقد تعزز هذا الخلاف الناشيء بين المصالح التجارية الفرنسية الخاصة ومصالح الدولة الفرنسية ، بذلك الصراع الذي كان قائماً بين مجهودات ريشليو الرامية الى مركزة كل شيء بيد الدولة ، وبين بقايا المصالح الاقطاعية والتجارية التي تريد ان تدفع دوماً بمصالح الدولة الفرنسية الى المرتبة الثانية .

وهكذا وجدت الدولة الجزائرية أنها امام مطالب متناقضة ومصالح متضاربة ، فنابللون يتكلم بلغة غير اللغة التي يتكلم بها القناصل ممثلوا الشركات الفرنسية التجارية . لذلك طلب باشا الجزائر — الذي كان هو الحسين باشا حينذاك — من فرنسا أن تعين ممثلا رسمياً لها .

وفي نفس الوقت كان الجزائريون يطالبون بارجاع كل الأسرى المسلمين الموجودين بفرنسا او في خدمة مراكب القراصنة الفرنسيين ، وبما ان القراصنة الفرنسيين ، كانوا يرفضون التخلي عن اسراهم المسلمين ، فقد أصدر ملك فرنسا أمراً الى المناطق الفرنسية التي ينتمي اليها الاسرى الفرنسيون في الجزائر ، بأن تدفع ضرائب خاصة لشراء الاسرى المسلمين من القراصنة الفرنسيين واعادتهم الى الجزائر حتى يتم السلم .

وقد تم ابرام معاهدة سلم بين الجزائر وفرنسا صادق عليها الديوان الجزائري في اجتماع عقده يوم ١٩ سبتمبر ١٦٢٨ وتنص هذه المعاهدة على :

١ — اطلاق سراح الاسرى من الجانبين .

٢ — عدم تتبع الجزائريين للبواخر الفرنسية .

٣ — لا يمكن للفرنسيين أن يستعبدوا جزائريين ولا للجزائريين ان يستعبدوا فرنسيين .

٤ — يقيم بمدينة الجزائر قنصل فرنسي تكون له ولمنزله الحصانة .

وبعد ذلك ابرم نابللون اتفاقاً مع الجزائر يرخص له في اعادة بنـــاء المركز التجاري الفرنسي في عنابة .

وكان هذا المركز الذي بنـاه نابللون يواجه البحر فوق شاطىء صغير تستطيع سفن صيادي المرجان ان ترسى فيه بسهولة وتوجد بالمركز ساحة كبيرة يوجـد في نهايتها معبد وفوق المعبد مسكن رجال الدين ، والى جانبه المستشفى ، كما يوجـــد بالمركز حديقة ومقبرة ، وهناك قلعة مسلحة بثلاثة مدافع ، ومن خلفهـــا ميدان تفتح عليه المحلات المخصصة لخزن القموح تضاف الى ذلك الثكنات التي تسع ثمانمائة جنـــدي فرنسي كانوا موزعين على مختلف النقط التجارية الفرنسية .

وقد ازدهر النشاط التجاري بسبب هذا المركز حتى انه اصبح في استطاعته أن يزود مرسيليا بكل ما تحتاجه من قموح .

الباب السابـــع

العصر الذهبي للبحرية الجزائرية

- تناقضات في تنظيم الدولة .
- الفرنسيون ينقضون الصلح مع الجزائر.
- ثورة ١٦٣٣ .
- منعرج حاسم في تاريخ البحرية الجزائرية.
- ثورة الشرق الجزائري .
- موت علي بتشيني .

تناقضات في تنظيم الدولة

فيما بين سنتي ١٦٢١ وسنة ١٦٢٦ توالى على الجزائر ثلاث باشوات هم : مصطفى قصور ومراد وخصرف باشا ولا يعرف شيء عن مصطفى قصور ومراد بل ان كثيراً من التراجم تهمل ذكرهما .

اما خصرف باشا فقد كان رجلاً حازماً وأول عمل قام به هو ابعاد فرقة اليولداش عن مدينة الجزائر حتى يبعد عن سكانها مصدراً من مصادر الاضطرابات الذي يصيب الحياة الاجتماعية وقد تنقل بنفسه عبر مختلف الأوطان الجزائرية من تلمسان الى قسنطينة، عاملاً على تعزيز الوحدة الترابية ، كما عمل على اجبار مختلف النواحي على دفع ما عليها من ضرائب ، وعندما أراد الذهاب الى قسنطينة نازعه قبائل كوكو وأرادوا أن يقطعوا عليه الطريق ، فحاربهم وانتصر عليهم . وقد تبين خصرف باشا ان القلاقل التي نجمت في الشرق الجزائري تمت بايعاز من باي تونس ، فأعلن الحرب عليه .

وقد أدركت القسطنطينية ان نشوب الحرب بين تونس والجزائر من شأنه أن يعزز الشعور الاستقلالي عند كل منهما ، فقررت أن تتدخل في الأمر بارسال أسطول بحري هام ، لكن الأسطول لم يتوجه الى المغرب العربي نظراً لثورة سكان كريمي والقوقاز في البحر الأسود .

فاستمرت الحرب مدة بين الجزائر وتونس بسبب مشاكل الحدود .

وقد استمر هذا الخلاف الى عهد حسين باشا ، وبعد عدة وقائع حربية اتفق الجانبان على تخطيط الحدود من جديد وفي فترة حكم حسين باشا هذا ، تم ابرام معاهدة السلم بين الجزائر وفرنسا التي تحدثنا عنها في الفصل السابق .

ان هذه المعاهدة ومما أثارته من سخط في الجزائر تُجسّم بعض الشيء طبيعة التناقضات التي كانت تواجه تنظيم الدولة الجزائرية .

فالقسطنطينية، كانت تريد باستمرار ان تخضع المصالح الجزائرية لمصالح الامبراطورية العثمانية ، وكانت كثيراً ما تمنح الفرنسيين ترضيات دون ان تستشير في ذلك الجزائريين.

وبالرغم من أن الباشا كان يعين من طرف القسطنطينية ، وبالرغم من انه يمثل مصالحها، فانه كان مضطراً الى مراعاة أعضاء الديوان الذي يملك السلطة الحقيقية بالبلاد .

وفي داخل الديوان كان يوجد ممثلون للمصالح الجزائرية، مثل طائفة الرياس التي كانت تريد استمالة السكان الجزائريين والاعتماد عليهم في تعزيز موقفها ضد الجنود الأتراك .

وذلك هو السبب في وجود تقارب بين طائفة الرياس وبين بعض سكان العاصمة ، الذين كان الجنود الأتراك قد حرموهم من حق المساهمة في ممارسة السلطة .

وهذه السياسة هي التي تفسر الثورات المتعددة التي تنجم من حين لآخر في وجه ممثلي الجنود الأتراك ، مثل ثورة تلمسان التي نشبت في عهد خصرف باشا الذي وجه لاخمادها فرقة من جنوده ارتكبت عدة فظائع منها سلخ جنود الثوار وهم أحياء ، ثم حشوا جلودهم بالتبن وأرسلوها الى مدينة الجزائر لتكون عبرة .

وقد كان توقيع المعاهدة مع فرنسا مناسبة اغتنمها الجزائريون للثورة في وجه الجنود الأتراك، باعتبار ان الامتيازات التي اعطيت للمركز التجاري الفرنسي والسماح لهم باقامة قوة عسكرية تتركب من ثمانية مائة جندي فرنسي لحماية المركز التجاري ، تعد نيلاً من السيادة الجزائرية .

ويجب ان نضيف الى الاعتبارات السابقة اعتباراً آخر يفسر تلاقي المصالح بين الجزائرين وبين طائفة الرياس .

فلئن كان الجزائريون مدفوعين إلى معارضة الامتيازات بنخوتهم وغيرتهم الوطنية ، فإن طائفة الرياس "تحبّذ" استمرار الحرب مع فرنسا للمكاسب التي تعود عليها من جراء ذلك .

فقد تمكن الرياس خلال السنوات الثمانية الأولى من نشوب الحرب مع فرنسا من أخذ تسعمائة وستة وثلاثين مركب أوربي . وهذا الرقم الرسمي لا يمثل إلا جزءاً قليلاً من

المراكب التي أخذوها بالفعل لأن النظام كان ينص على أن المركب المستولي عليه يصبح ملكاً للباشا ، بالاضافة إلى النصيب الذي يأخذه من المغانم . لذلك كان الرياس ، من حين لآخر يعمدون إلى إغراق الباخرة التي يستولون عليها بعد أخذ ما فيها ، حتى لا يشاطرهم الباشا في المغانم من جهة وحتى لا يعززوا قوة الباشا من جهة ثانية .

الفرنسيون ينقضون الصلح مع الجزائر :

ومهما يكن من شيء فقد احترم الجزائريون الصلح المبرم مع فرنسا وازدهر النشاط التجاري بين الجزائر والسواحل الفرنسية بكيفية لم يسبق لها نظير . لكن مدة الصلح مع فرنسا لم يقدر لها أن تطول ، فقد حدثت سلسلة من الوقائع جعلت الديوان الجزائري يشك في سلامة النوايا الفرنسية وعرضت الصلح لعواصف جديدة .

وكانت فرنسا في ذلك الوقت قد عينت ممثلها الرسمي إزاء الدولة الجزائرية ، وهو الكابتان نيكولان ريكو فاستجابت بذلك لمطلب باشا الجزائر ، وقد كان من المتوقع أن يعمل الطرفان ، الفرنسي والجزائري ، على تنسيق النشاط بينهما بكيفية تقطع الطريق على أصحاب المصالح الخاصة ، وبصورة تقرأ حساباً على الأخص لمصالح الدولتين .

وسط هذه الوضعية الهادئة ، حدث أن سفينة جزائرية تحمل ستة عشر من أفراد البحرية الجزائرية ، انفصلت عن المراكب الحربية التي كانت تابعة لها . واعترضت بعد ذلك بباخرة فرنسية ، فطلب منها الجزائريون أن يسمحوا لهم بالركوب على متنها والذهاب معهم إلى فرنسا ، وقد اطمأن الجزائريون إلى الباخرة الفرنسية بناء على المعاهدة التي أبرمت بين الجزائر وفرنسا .

لكن الجزائريين ما كادوا يستقرون بالباخرة الفرنسية حتى استقبلهم الفرنسيون تذبيحاً وتقتيلا .

وبعد ذلك بأيام قلائل التقت باخرة فرنسية بباخرة جزائرية قرب الشواطىء الاسبانية ، ولم يحترز الجزائريون من الباخرة الفرنسية بناء على استتباب السلم بينهم وبين

الفرنسيين ، لكن الباخرة الفرنسية خدعت بالجزائريين واستغلت احترامهم للصلح وأسرتهم وباعتهم في سوق الرقيق باسبانيا .

ومن الواضح ان هاتين الحادثتين يمثلان خرقاً فاضحاً للصلح المبرم بين الجزائر وفرنسا .

وقد أدرك القنصل الفرنسي الجديد ، وحاكم المركز التجاري الفرنسي ، ما يمكن أن تجره مثل هذه الحوادث من أضرار على العلاقات بين الجزائر وفرنسا ، وما يستتبعه ذلك من خسائر للاقتصاد الفرنسي ، لذلك بذلا الوعود للديوان الجزائري ، بمعاقبة المجرمين الفرنسيين .

اطمأن الجزائريون لهذه الوعود ، فلم يكن غرضهم هو البحث عن الحرب لمجرد الحرب ، ولم يقوموا بأي رد فعل ضد الفرنسيين .

لكن حادثة جديدة وقعت بعد ذلك أثارت سحباً جديدة : ففي نهاية نوفمبر ١٦٢٩ كان اسحاق دي لوني السفير الفرنسي عائداً من المغرب عندما التقى بباخرة جزائرية يقودها الرايس محمد عوجية ، فاستولى عليها وأسر رجالها كما أسر الرايس الجزائري .

هذه الحادثة دفعت الجزائريين الى الاعتقاد بان الفرنسيين يعتمدون نقض الصلح ليجسوا النبض ويقيسوا مبلغ استعداد الجزائريين لرد العدوان .

وفعلاً فلئن كان يمكن تبرير الحادثتين الاوليين بانهما من أعمال أفراد فرنسيين غير مسؤولين، وهو ما اقتنع به الديوان الجزائري بعد المساعي التي قام بها نابللون والقنصل الفرنسي ، فكيف يمكن تبرير الحادثة الثالثة ، التي ارتكبها سفير يمثل الملك الفرنسي ، فوق باخرة تابعة للملك الفرنسي .

لهذا لم تجد هذه المرة مساعي القنصل الفرنسي ولا تدخلات نابللون ، وجاء رد الفعل سريعاً ، فقد عادت البواخر الجزائرية الى مهاجمة البواخر والسواحل الفرنسية ، وعندما حاول القنصل الفرنسي الاحتجاج ألقى عليه القبض ، ولم يطلق سراحه الا بعد ان دفع عنه نابللون فدية افتكه بها هو وبعض الأسرى الفرنسيين من الأسر .

وبعد أن أطلق سراح القنصل الفرنسي ، أرسل الى فرنسا يطلب وضع حد لمهمته ، ولما لم يتحصل على أي جواب فر في نهاية الأمر ، تاركاً نائبه بلانشار مكانه .

ورغم حسن الاستعداد الذي أبداه الجزائريون ، فان الفرنسيين رفضوا اطلاق سراح الأسرى الجزائريين . حينذاك عمد الديوان الجزائري الى حجز كل السلع الفرنسية والى منع الفرنسيين الموجودين في الجزائر من التحرك ما لم تقع ترضية المطالب الجزائرية .

ولئن كان نابللون قد أرسل الى فرنسا ينصح ملكه بالاستجابة فوراً الى المطالب الجزائرية ، فان نائب القنصل الفرنسي قد استغل مكانته لتهريب بعض الأسرى الفرنسيين .

اعتبر الجزائريون هذه المحاولة التي قام بها الممثل الرسمي لفرنسا دليلا على ان الحكومة الفرنسية لا تنوي ابداً ارجاع الاسرى الجزائريين . فألقي القبض على نائب القنصل وعلى الفرنسيين المقيمين بالجزائر ، واستحوذ الجزائريون على المراكب التجارية الفرنسية ، ونظم الرياس عدة هجمات مظفرة على شواطىء بروفانس الفرنسية .

ومما زاد في مصاعب الفرنسيين ان نابللون الذي كان خير مدافع عن المصالح الفرنسية قتل في هذه السنة بالذات اثناء هجوم سري نظمه على المركب التجاري الذي اقامه تجار جنوه في طبرقة ، لكن الجاسوس الذي تفاهم معه نابللون خان سره فتلقاه اصحاب المركز بالنار وقتل في المعركة .

وتؤكد بعض المصادر التاريخية ان الخسائر الفرنسية فيما بين ١٦٢٩ و ١٦٣٤ بلغت اربعة ملايين وسبعمائة واثنين وخمسين الف جنيه ، كما تمكن الرياس الجزائريون في هذه الفترة من الاستحواذ على ثمانين باخرة فرنسية ، والف وثلاثمائة بحار فرنسي اسلم منهم مائة وتسع واربعون ، فاذا اضيفت الى ذلك المغانم المأخوذة من البواخر الاوربية الاخرى من انكليزية وهولندية ، امكن بسهولة تصوير ازدهار الاسواق التجارية الجزائرية .

ثورة ١٦٣٣

لكن ازدهار النشاط الاقتصادي بالعاصمة لم يكن ليسوي التناقضات التي كانت قائمة والتي اشرنا اليها آنفا .

فقد اتخذ قراراً يقضي بجعل الخزينة تحت ادارة الديوان ، بدل ان كانت من اختصاصات الباشا ، وفرض الديوان على الباشا ان يتولى دفع مرتبات الجنود مما بقي لديه من اختصاصات مالية .

ولئن كان حسين باشا اضطر الى القبول بهذا الامر ، فانه لم تكن لديه من الأموال ما يكفي لدفع كل مرتبات الجنود ، وكما جرت العادة بذلك اعرب الجنود عن سخطهم بحمل القدور مقلوبة وانفجرت الثورة ، والقي القبض على الباشا ، هنا فكر الكراغلة في استغلال هذه الاضطرابات لفرض حقهم في المساهمة في تسيير شؤون البلاد ، ذلك ان الاتراك كانوا يخشون من الكراغلة بوصفهم يمثلون خطراً على المدى البعيد ، ضد مصالح الطبقة العسكرية التركية التي استحوذت على الحكم ، كانوا يخشون من الكراغلة باعتبار ان اسهامهم في الحكم سيؤدي الى خلق طبقة جديدة لها امتدادات ووشائج في الوطن وبالتالي فيمكن ان توحد المصلحة بينهم وبين سكان الجزائر ، ويتحدوا ضد الاتراك .

اذن اراد الكراغلة ان يغتنموا هذه الوضعية ، فتسللوا الى العاصمة يوم غرة جويلية ١٦٣٣ ، متنكرين في زي فلاحين ، يحملون معهم اسلحة مخفية .

وقد كان الكراغلة يعتمدون على تأييد سكان المدينة . لكنهم لم يحسنوا اختيار الوقت ، فقد كان معظم الرياس متغيبين في غزواتهم ، وبالتالي حرم الكراغلة من مؤيدين أقوياء ، وما ان فطن الأتراك لهجوم الكراغلة ، حتى أغلقوا في وجوههم بعض أبواب الحصون ، لكن الكراغلة تتبعوهم واضطروهم الى الانهزام الى القصبة ، آملين أن يجدوا من هناك منفذاً إلى البادية . لكن مخزن البارود لحقته نيران المعركة في ذلك الحين ، فانفجر وخرب نحو خمسمائة منزل وتسبب في مقتل نحو ستة آلاف شخص . آنذاك اختل ميزان القوى لفائدة الأتراك ، وفر ما بقي حياً من الكراغلة الى بلاد القبائل حيث

استقبلوا بجفاوة .

وبالرغم من انتصار الاتراك في هذه المعركة ، فان هذه الثورة قد اضعفت جانبهم ومكنت طائفة الرياس من تدعيم موقفها بزعامة علي بتشيني (الذي بنى المسجد المعروف باسمه الآن) .

وقد كان علي بتشيني يفكر في الاستقلال بالجزائر والانفصال عن السلطنة العثمانية . ولتعزيز موقفه وضمان تأييد الجزائريين له ، صاهر سلطان كوكو .

وقد أحرز الرايس علي بتشيني على شهرة كبيرة واكبت الانتصارات التي احرزت عليها البحرية الجزائرية في ذلك العهد : فقد كانت البواخر الجزائرية حينذاك تسيطر على حوض البحر الأبيض المتوسط وعلى مضيق جبل طارق ، ثم مددت نشاطها شمالاً حتى بلغت شواطىء بريطانيا وايرلندا وايزلاندا . ويؤكد قس فرنسي عاش في ذلك العهد أن الجزائر كانت تملك أقوى قوة بحرية يمكن تصورها في ذلك الحين ، ويقول في تصوير هذه القوة انها عبارة عن سبعين باخرة حربية كل واحدة منها مجهزة بما بين خمسة وعشرين وأربعين مدفعاً . وهذا عدا البواخر المتوسطة والصغيرة .

منعرج حاسم في تاريخ البحرية الجزائرية .

ومن الممكن ان نتصور بسهولة ان هذه القوة كانت ستلعب دوراً هاماً في تطور الجزائر ، وانها كانت ستؤثر تأثيراً كبيراً على توازن القوى في حوض البحر الأبيض المتوسط الذي كان يمثل الملتقى الحقيقي بين الشرق والغرب في ذلك العهد .

لكن حدث حادث خطير غير مجرى التاريخ في هذه المنطقة ، فقد استنجد الباب العالي بالبحرية الجزائرية لتعين البحرية التركية في معركة من معاركها الكبيرة ، وبينما كانت البحرية الجزائرية في طريقها الى نجدة الأتراك إذ دهمتها عاصفة هوجاء أجبرت البواخر الجزائرية على الاحتماء بميناء لافالون وكانت الوحدات البحرية الجزائرية من الكثرة بحيث لم تجد متسعاً للمناورة ، عندما فاجأتها قوات البندقية البحرية ، بل ان كثرة الوحدات الجزائرية وتداخلها جعلها لا تستطيع ان تستعمل مدفعيتها ضد العدو ،

وهكذا تكبدت البحرية الجزائرية خسائر جسيمة، وفقدت ما يقرب من نصف وحداتها كما خسرت أسماء لامعة من القادة البحريين، وقليل هم الذين تمكنوا من أن يشقوا لأنفسهم طريقاً وسط المعركة والتوصل الى النجاة، مثل علي بتشيني.

ان هذه الموقعة تمثل منعرجاً حاسماً في تدهور القوة البحرية الجزائرية التي كانت هي الدعامة الأساسية التي ترتكز عليها الجزائر، ولم تتمكن الجزائر، منذ هذه الواقعة من استرجاع قواتها كما كانت، لانه ان كان من السهل بناء المراكب البحرية نظراً لازدهار صناعة السفن في الجزائر، فانه من الصعب إعداد ما تتطلبه السفن الجديدة من بحارة وقادة، بقطع النظر عن الأسرى اللازمين لتسيير البواخر الحربية.

وبالرغم من ان الباب العالي وعد الجزائر بتعويض خسائرها وتجهيزها بخمس وعشرين باخرة حربية كبيرة، فإن القسطنطينية لم تف بوعدها.

ولذلك كان من آثار هذه الموقعة، أن كشفت اكثر فأكثر عن التناقضات الموجودة بين الجزائر والسلطنة العثمانية، وان دفعت المسؤولين في الجزائر إلى مزيد من الحذر من الباب العالي، وإلى النظر في كل المطالب الواردة من القسطنطينية نظرة الارتياب والشك.

ثورة الشرق الجزائري:

بعد تعيين علي باشا والياً على الجزائر بقليل – وهو الذي حدثت في عهده الحادثة السالفة الذكر – القى باي قسنطينة مراد باي – القبض على شيخ العرب محمد بن الصخري، وأعدمه كما أعدم ابنه أحمد وعددا من رجاله، على أمل أن يتوصل بذلك الى تدعيم نفوذه.

لكن العكس هو الذي حدث: فلم يمر عام واحد على تلك المجزرة حتى ثارت قبائل قسنطينة ورفضت دفع الضرائب، ورفعت السلاح بقيادة خالد الصغير، وفي نفس الوقت وجد شيخ العرب احمد بن الصخري بن بو عكاز ان الوقت قد حان للانتقام من أخيه، فأثار سكان الجنوب وسار على رأسهم متوجهاً الى قسنطينة حتى التقت قواته مع قوات

خالد الصغير . ووجد مراد باي انه لا قبل له بمواجهة هذه القوات مجتمعـــة ، فاستنجد بالجزائر العاصمة التي ارسلت مدداً هامة بقيادة القائد يوسف والقائد شعبان والتقى الجمعان بالقرب من ميلة ، وانكسرت قـــوات باي قسنطينة والقوات التي وردت من الجزائر لتعزيزها . وعندما وصلت فلول المنهزمين الى الجزائر وجدت المدينـة غارقة في الأسى عند سماعها بوقعة لافالون التي فقدت فيها البحرية الجزائرية أعز وحداتها .

واستمرت الثورة في الشرق الجزائري متأججة ومعززة بثورة القبائل الكبرى وقد حاول الأتراك في صيف ١٦٣٩ أن يوجهوا قوة عسكرية لإخماد ثورة القبائل ، لكنها منيت بهزيمة ماحقة واضطرت إلى النزول عند شروط الثوار . ومن بين الشروط التي اشترطها القبائل على الأتراك إصدار عفو عام على الكراغلة ويبدو ان الأتراك لم يحترموا هذا الشرط بعد أن وصلوا إلى الجزائر ، فاستأنف سكان جرجرة حملهم للسلاح .

هذه الهزائم المتوالية أثرت تأثيراً كبير على معنويات الجيش التركي ودفعته إلى التمرد على الآغا حمزة خوجة واعدامه .

وفي بداية ١٦٤٠ تضاعفت ثورة القبائل وأصبحت تهدد مدينة الجزائر نفسها .

وفي هذه السنة عين الشيخ حسين باشا بعد انتهاء مدة علي باشا ، ولم تطل مدة ولاية الشيخ حسين باشا اذ مات في سنة ولايته بالطاعون .

فخلفه أبو جمال يوسف باشا ، الذي وجد أمامه وضعيـــة معقدة : جيش معظم المعنويات ، ثورات في القبائل وفي الجنوب وفي الشرق الجزائري ، كل ذلك مضافاً إلى ما خلفه الطاعون من آثار . لذلك قرر الديوان أن يضع حداً لهذا الوضع بتنظيم حملة عسكرية يتولى قيادتها الباشا بنفسه . وقاد أبو جمال يوسف باشا هذه الحملة في ١٦٤١ ورجع منها بعد عام منكسراً . ومرة اخرى بحثت فرقة اليولداش عن مسؤول تحمله تبعة هزائمها ، فتمردت على الباشا ووضعته في الأسر . فخلفه محمد بورصالي باشا .

موت علي بتشيني :

في عهد هذا الباشا ارسل السلطان العثماني الى طائفة الرياس الجزائريـين يطلب منهم تعبئة الوحدات البحرية الجزائرية لتعين الاسطول التركي ضد مالطة ، فرفضت طائفـة

الرياس ، التي كان يتزعمها علي بتشيني ، الامتثال لهذا الامر .

فارسلت القسطنطينية رسولين كلفا – على ما اشيع في الجزائر آنذاك – بقتل علي بتشيني . فثار سكان العاصمة على الباشا وعلى مبعوثي السلطان العثماني الذين اضطروا ثلاثتهم الى الالتجاء الى ضريح الشيخ عبدالرحمن الثعالبي ، الى ان اخرجهم علي بتشيني من هناك تحت حمايته .

وعندما لمست القسطنطينية قوة نفوذ علي بتشيني عمدت الى المراوغة فعينت علي بتشيني قائداً عاماً للاسطول العثماني . ويبدو ان هذا التعيين لم يكن القصد منه إلا طمأنة علي بتشيني وتنويم انصاره ، اذ ان القسطنطينية لم تقلده خطة الباشوية التي عهدت بها الى احمد باشا . ويبدو ان احمد باشا تلقى تعليمات سرية من القسطنطينية تقضي باعدام علي بتشيني ، او هذا على الاقل هو ما اعتقده سكان الجزائر حينذاك عندما شاهدوا موت علي بتشيني فجأة بعد بضعة ايام من تعيينه قائداً عاماً للاسطول العثماني .

الباب الثامن

حكم الاغوات

- اضطرابات وصراع من اجل الحكم .
- مغزى الانقلاب .
- طابع السياسة الخارجية .
- محاولة لاحتلال القل وفشلها .
- الفرنسيون يتحطمون في جيجل .
- اتفاقية عام ١٦٦٦ .
- الحرب مع الانكليز .
- انقلاب جديد .

اضطرابات وصراع على الحكم

بعد محمد بورصالي تفاقمت الاضطرابات التي كانت بذورها موجودة في عهد الباشوات السابقين ، وقد كانت الاضطرابات الداخلية مصحوبة بانكسارات عسكرية مثل انكسار الأسطول الجزائري أمام فرسان مالطة في عهد أحمد باشا ، ومثل انهزام الجيش التركي أمام أبواب تلمسان مثلما انهزم في الجنوب أمام مولاي محمد ، وكان ذلك في عهد يوسف باشا ، وفي عهد محمد باشا (١٦٥٠ – ١٦٥٣) انكسر الأسطول الجزائري أمام البندقية ، كما انكسر في بحر اليونان .

وبعد أحمد باشا (١٦٥٣ – ١٦٥٥) الذي عقد اتفاقية تجارية مع الانكليز ، عين ابراهيم باشا واستمر يحكم إلى سنة ١٦٥٩ عندما سمع أن السلطان العثماني يريد أن يعين أحد ضباطه والياً على الجزائر ، فأرسل ابراهيم باشا الى القسطنطينية مبعوثاً سلم له مبلغاً هاماً من المال ليرشي كبار المسؤولين حتى يبقوه في الحكم، وللحصول على هذا المبلغ الهام استعمل ابراهيم باشا المبالغ التي كان خصصها السلطان العثماني ليدفعها للرياس تعويضاً عن بعض الخسائر التي لحقتهم أثناء إعانتهم للاسطول العثماني .

سمع الرياس بهذا النهب ، فهاجموا القصر حيث فاجأوا الباشا وقذفوا به في السجن .

لكن اليولداش اغتنموا هذه الفرصة لتنظيم انقلاب يسلم مقاليد الحكم لفرقتهم ، ولم يكن في استطاعة طائفة الرياس من الثبات في وجوههم بعد انهزاماتها المتوالية الاخيرة . وبمقتضى هذا الانقلاب تم القضاء على سلطة الباشا ، وتقرر اعطاء السلطة التنفيذية للاغا رئيس الفرقة العسكرية ، على شرط ان لا تتجاوز مدة حكمه الشهرين . امـا السلطة التشريعية فقد تقرر ان تكون بيد الديوان . وبذلك اصبحت طائفة الرياس تحتل مكانة ثانوية في شؤون الحكم .

مغزى الانقلاب :

يعتبر نظام الأغوات محاولة لأيجاد نوع من الديموقراطية داخل الطبقة العسكرية التركية الحاكمة ، اذ ان مدة الآغا لا تتجاوز الشهرين، ويخلفه في مهامه اكثر العسكريين اقدمية .

و بالاضافة الى كون هذا النظام غير واقعي ولا علمي والى انه يحمل في نفسه بذور زوالة ، فانه يتميز بظاهرتين :

الاولى انه كان محاولة بارزة للانفصال عن السلطة العثمانية والاستقلال بالجزائر .

الثانية انه كان انتقاماً من طائفة الرياس التي كانت كلمتها هي العليا في عهد معظم الباشوات .

والظاهرة الاولى ذات دلالة بالغة اذا تذكرنا ان فرقة اليولداش هي التي كانت تتهم طائفة الرياس بمحاولة الانفصال عن السلطة العثمانية .

ومعنى ذلك بعبارة اخرى ان هذه الفرقة تأكدت بعد طائفة الرياس ، من استحالة اقامة نظام بالجزائر تأخذ القسطنطينية بخيوطه .

* * *

وقد ظهرت بوادر ضعف هذا النظام منذ السنة الاولى من استقراره ، فعندما انتهت المدة المقررة لولاية خليل آغا – الذي كان هو اول آغا – رفض التخلي عن مهامه فثارت في وجهه كل طائفة الرياس وفرقه اليولداش واعدمته وعينت مكانه رمضان آغا الذي اغتيل بدوره في شهر اوت من سنة ١٦٦١ (وقد تولى رمضان آغا بناء المسجد الجديد الشهير بالجزائر) وهكذا تبين من اول عهد الأغوات استحالة تحقيق هذا النظام القائم على المساواة المطلقة بين القادة العسكريين .

وبعد الآغا رمضان عين شعبان آغا الذي عمد الى وضع ابراهيم السابق داخل اربعة جدران لقتله اختناقاً ، لكن بعض العسكريين الأتراك اطلقوا سراحه وعينوه آغا

فكان اول عمل بدأه هو اعدام شعبان آغا . وطوال هذه المدة كانت مناطق الشرق الجزائري تعيش في ثورة مستمرة . فقد رفض سكانه دفع الضرائب ، واصبحت القبائل لا تعترف من مصب سبا والى بجاية إلا بسلطة الأمير أحمد بن أحمد الذي كان يقيم في تامغوت .

طابع السياسة الخارجية :

حاول الديوان الجزائري في هذه المدة ان يحسن علاقاته مع فرنسا لكن الحكومة الفرنسية رفضت العروض الجزائرية . واستمر قراصنتها في حرب مع الجزائر . فتواصلت الحرب بين فرنسا والجزائر ، ملحقة خسائر بالتجارة الفرنسية في مرسيليا ، قدرت بأكثر من أربعة عشر الف اوقية ذهبية . كما خسرت ايطاليا في نفس الفترة مليوني ليرة وخمسماية اسير .

وبالرغم من ان الرياس الجزائريين كانوا عملياً في حرب مع فرنسا ومع الأساطيل الانكليزية والهولندية والايطالية والاسبانية ، فانهم قد تمكنوا بفضل سياسة عملية من تجنب تكوين جبهة اوربية ضدهم ، وتقدر المراكب البحرية التي استحوذ عليها الجزائريون خلال خريف ١٦٦١ بتسع مراكب هولندية واثني عشر مركباً انكليزياً واثني عشر مركباً فرنسياً وايطالياً .

ذلك ان سلطة الديوان كانت واقعة بين ضرورتين ملحتين : مواصلة الحرب مع الدول الاروبية رغم ما في ذلك من اخطار او مسالمتها مع ما يجره ذلك من نقص في المداخيل وعجز في الميزانية يؤدي الى تمرد الجيش وانتشار القلاقل في داخل البلاد .

وبين هاتين الضرورتين سلكت سلطةالديوان سياسة وسطا فهي تسالم هذه الدولة عندما تكون في حرب مع تلك والعكس .

فعندما تم ابرام السلم مع الهولنديين في ١٦٦٣ تواصلت الحرب مع فرنسا . وعندما استقر السلم مع فرنسا استؤنفت الهجمات الجزائرية ضد الانكليز والهولنديين في ١٦٧٠ ، وعندما ابرم الاتفاق مع الانكليز من جديد في ١٦٨١ اندلعت الحرب بين الجزائر وفرنسا .

وهذه السياسة هي التي احبطت احتلال المدن الساحلية من طرف القوات الأروبية : فقد هاجم الاسطول الانكليزي في اليومين الأول والثاني من شهر افريل مدينة بجاية واشتبك في حرب مع الرياس الجزائريين ولاحقهم الى ميناء الجزائر الذي كان يعرف ان قوات بحرية هولندية كانت موجودة به ، وكان الاميرال الانكليزي مونتاغنو ، يعتقد انه بذلك سيضع الواحدت البحرية الجزائرية بين نارين . لكن لم يرعه إلا والوحدات الجزائرية تدخل ميناء العاصمة بكل أمان ، لأن الديوان ، كان قد أبرم فيما بين ذلك اتفاقاً مع الاسطول الهولندي .

فشل محاولة احتلال القل :

في الوقت الذي كان فيه الديوان الجزائري يستغل التناقضات بين مصالح مختلف الدول الأروبية ، ارادت الحكومة الفرنسية ان تستغل الخلافات الموجودة بين الديوان الجزائري والسلطنة العثمانية لتدعيم موقفها في حوض البحر الأبيض المتوسط واحتلال مواقع جزائرية تضمن الهيمنة لمصالحها ، وقد اعتبرت الحكومة الفرنسية ان الحركة التي ادت الى تنصيب نظام الأغوات ، حركة تمردية في وجه السلطنة العثمانية التي تعتبرها حليفاً قوياً ، وارادت ان تضرب على هذه النغمة لتضمن حياد القسطنطينية عندما تقوم وحدات الاسطول الفرنسي بمحاولة احتلال مواقع جزائرية .

وقد كان الكاردينال مازاران قبل ذلك في سنة ١٦٥٨ قد كلف احد مهندسي الجيوش بالتعرف على احسن المواقع الجزائرية ملائمة لمحاولة احتلال ، وقد وجه هذا المهندس بعد مهمته السرية تقريراً الى الوزير الفرنسي كولبير في ٢٢ جوان ١٦٦٢ يوصي فيه باختيار سطور والقل وجيجل لنزول قوات الاحتلال .

وبدأت الحملة في ربيع ١٦٦٣ بمعركة عنيفة بين الوحدات البحرية الفرنسية والوحدات الجزائرية ، خسر فيها الجزائريون نحو العشرين مركباً ، لكن محاولة الاحتلال الفرنسي فشلت مع ذلك امام ميناء القل . وقد اراد الفرنسيون بعد فشل محاولة احتلال القل ، ان يوجهوا ضربة قاضية لما تبقى من الاسطول الجزائري ، فتوجهوا نحو ميناء الجزائر لمفاجأة المراكب الجزائرية واضرام النار فيها ليلاً . لكن

الوحدات الجزائرية تفطنت للمحاولة ، وكان الذي حدث هو ان المراكب الفرنسية التي كان من المقرر ان تكون في ميناء الجزائر عند منتصف الليل ، لم تفطن إلا وهي على بعد ساعتين من الميناء عند الثانية صباحاً .

وبعد فشل هذه المحاولة ضد ميناء القل ، فكر الفرنسيون في تنظيم حملة اخرى ضد مدينة جيجل ، مستغلين في ذلك آثار الوباء الذي حصد الالآف في الجزائر .

الفرنسيون يتحطمون في جيجل :

وقد بدأت الاعدادات لشن الحملة على مدينة جيجل في ربيع ١٦٦٤ ، وفي هذه الاثناء عرض شعبان آغا الصلح على لويس الرابع عشر ملك فرنسا فرفض هذا الأخير كل مفاهمة .

وفي ١٩ جويليه تحركت الوحدات الفرنسية التي كانت تشتمل على ستين مركباً حربياً وسبعة آلاف جندي ، يتركب منهم جيش الاحتلال بقيادة الكونت دي غاداني ، وبعد ثلاثة أيام وصلت الوحدات الفرنسية الى مدينة جيجل ، ومن الغد دخل المحتلون الى جيجل ، ونشبت بين الجانبين معارك عنيفة تمكن اثرها الفرنسيون من الاستيلاء على الميناء .

وكان الاستيلاء الفرنسي على ميناء جيجل إيذاناً بالجهاد ضد الغاصبين : فراحت القبائل القريبة من المدينة تنظم المعارك ضد الفرنسيين بصفة تلقائية ، واستمرت المناوشات وحرب العصابات طوال شهرين كاملين ، وبعد هذه المدة فكر الديوان في توجيه قوة عسكرية تركية لطرد الفرنسيين من جيجل ، لكن القوة التركية كانت مضطرة للمرور ببلاد القبائل وطلب الاذن من شيوخها بعبور ترابهم . وقد حدث ما لم يتوقعه الفرنسيون الذين كانوا يعتمدون على هذه الخلافات أن تحول دون وصول قوة عسكرية تركية منظمة اليهم : فقد ذابت الخلافات الداخلية الجزائرية أمام خطر الاحتلال الاجنبي ، وشكل الأتراك الى جانب المقاومة الشعبية جبهة واحدة ؛ وصلت القوة التركية الى جيجل يوم فاتح اكتوبر ، وبدأت المناوشات بين الجانبين ، وفي يوم الخامس من اكتوبر نظم هجوم عنيف في الساعة الرابعة صباحاً واستمرت المعركة عنيفة خمس ساعات متوالية .

أثر هذه المعركة أرسل الفرنسيون في طلب المدد من فرنسا . ووصل المدد بالفعل في الثاني والعشرين من اكتوبر . وبعد نزول الامداد القادمة من فرنسا استؤنفت المعارك عنيفة ، وفي يوم ٢٩ اكتوبر أرسلت المدافع الجزائرية قذائفها على المواقع الفرنسية فحطمتها وحطمت معها معنويات الجيش الفرنسي الذي قررت قيادته الانسحاب بعد ما شهدته من انهيار معنويات الجنود الذين كانوا يصيحون بأعلى أصواتهم بأنهم سيدخلون في الاسلام ان لم يوضع حد للمعركة ، وقد خسر الفرنسيون الف وأربعمائة قتيل ومائة مدفع .

اتفاقية ١٦٦٦ :

بعد هذا حدث مقتل شعبان آغا وخلفه علي آغا في سنة ١٦٦٥ فبدأ أعماله بفتح مذاكرات مع فرنسا ، بعد أن أطلق سراح القنصل الفرنسي دوبورديو ، وبعد محادثات تمهيدية قام بها القنصل الفرنسي ، كلفت الحكومة الفرنسية أندري فرانسوا دي تروبير بأن يتفاوض مع الجزائريين لابرام اتفاقية جديدة . وشارك في هذه المفاوضات من الطرف الفرنسي جاك ارنودي غاب وقد انتهت المفاوضات بابرام اتفاقية يوم السابع من شهر مايو ١٦٦٦ . وتم الاتفاق على تنفيذ معاهدة سنة ١٦٢٨ ، وعلى أن يعطي كل من الطرفين جواز مرور لمراكب الطرف الآخر حتى لا تعامل معاملة المراكب العدوة . وأطلق الجزائريون اكثر من الف ومائة أسير فرنسي . وقد تأثر الانكليز لهذه الاتفاقية وحاول دفع الديوان الجزائري الى مواصلة الحرب ضد فرنسا على أن يعطي الانكليز للجزائريين ثلاثين مركباً حربياً .

وبمقتضى هذه الاتفاقية رجع الفرنسيون الى مركزهم التجاري الذي أسندت مسؤوليته الى جاك أرنو .

بعد ابرام هذه الاتفاقية استقر هدوء نسبي في العلاقات بين الجزائر وفرنسا .

اما في الميدان الداخلي فقد عرفت الجزائر ، سنة ١٦٦٨ ، ثورة قادها الاعراب المقيمون في ضواحي مدينة الجزائر كما ثارت في الوقت نفسه بلاد القبائل ، ولا يستبعد أن تكون كلتا الحركتين على اتصال ببعضهما .

الحرب مع الانكليز :

ويبدو أن الانكليز أرادوا استغلال هذه الحركة الداخلية ، فحاولوا الهجوم على الجزائر في خريف ١٦٦٩ ، لكن المدفعية الجزائرية نجحت في ردهم على أعقابهم .

لكن ذلك لم يمنع الانكليز من مواصلة الحرب في البحر ضد المراكب الجزائرية مثلما فعل الهولنديون وفرسان مالطة وصقلية .

وقد كثرت الهجومات ضد المراكب الجزائرية وألحقت بها خسائر متعددة الى درجة أن سكان مدينة الجزائر أصبحوا يخشون من هجوم أجنبي ، وكانت هذه المخاوف تغذي شعور الثورة على الأتراك ، مما اضطر علي آغا الى توزيع الاموال على السكان وتعزيز حصن ماتيفو ومصب نهر الحراش .

وفي ٩ مارس ١٦٧١ عاد الانكليز الى مهاجمة ميناء بجاية وأضرموا النار في اثني عشر مركب جزائري ، كما هاجموا ميناء الجزائر في شهر جويلية من نفس السنة وأضرموا النار في ثلاث بواخر .

هذه الخسائر التي لحقت الاسطول الجزائري بسبب هجومات الانكليز والهولنديين وغيرهم ، بالاضافة الى هجومات الاسطول الفرنسي الذي استمرت وحداته — رغم اتفاقية ١٦٦٦ — تشن من حين لآخر هجومات على مراكب الرياس الجزائريين — كل ذلك أثار سخط طائفة الرياس التي وجدت أنها هي التي دفعت ثمن سياسة علي آغا ، فتآمروا عليه وقتلوه .

وبعد مقتل علي آغا انتخبت عدة شخصيات لتخلفه ، ويقال انه تم تعيين خمسة أو ستة آغوات في ظرف ثلاثة أيام ، لكنهم امتنعوا كلهم من الجلوس على كرسي الآغوية الذي أصبح من المؤكد ان الجلوس عليه يؤدي بصاحبه الى الموت قتلاً .

انقلاب جديد :

آنذاك اجتمعت طائفة الرياس، وحولت هذا التمرد ضد علي آغا الى انقلاب حقيقي،

فقرروا الغاء نظام الآغوية ، وتعويضه بنظام آخر اكثر استقراراً هو نظام الدايات . وقد حاولت طائفة الرياس أن تتجنب الخطأ الذي وقع فيه اليولداش عندما قيدوا نظام الآغوية بمدة قصيرة ، لكن طائفة الرياس وقعت فيخطأ لا يقل عنه خطراً عندما قررت انتخاب الداي لمدة العمر .

ويعتبر نظام الدايات انتصاراً لطائفة الرياس كما يدل على ذلك اختيار الدايات الأربع الأولين من بين طائفة الرياس .

وقد أبقى الرياس هذه المرة على منصب الباشوية كما فعل من قبلهم اليولداش الذين أبقوا عليه أيضاً ، لكن منصب الباشوية أصبح اسمياً شكلياً لا تأثير له في توجيه سياسة البلاد ، وانما هو رمز فقط للعلاقة الشكلية التي تربط بين الجزائر والخلافة العثمانية . وبهذا الاعتبار كان الداي عبارة عن ملك مستقل ، لكن نظام الدايات يختلف عن النظام الملكي ونظام البايات في تونس بانه لم يكن وراثياً .

والفرق الوحيد بين شكلية منصب الباشا في نظام الآغوات ، وشكليته في نظام الدايات ، هو أن الباشوية في عهد الآغوات كانت منصباً يحتله شخص آخر غير الآغا . أما في نظام الدايات فقد استمرت كذلك فترة من الزمن ثم تحول الى ان اصبح الداي هو نفسه الذي يحمل لقب الباشا .

الباب التاسع

نظام الدايات

- طبيعة التحول الجديد .
- فشل حملة دوكين .
- إبرام السلم بين الجزائر وفرنسا .
- استئناف الحرب مع فرنسا .
- طبيعة السياسة الفرنسية إزاء الجزائر .
- أحداث تونس والمغرب .
- عوامل استمرار الحضور الأسباني .
- استرجاع وهران ومرسى الكبير .

طبيعة التحول الجديد

شاهدنا في الفصل السابق ، كيف زال نظام الآغوات بسرعة إذ لم يدم إلا اثني عشر عاماً من سنة ١٦٥٩ إلى سنة ١٦٧١ . وقد رأينا كيف كان هذا النظام يشتمل من يوم تأسيسه على البذور التي تقضي بزواله ، لأن تنصيب الآغا لمدة شهرين وبواسطة الانتخاب والأقدمية ، إن كان يدل على رغبة الطبقة العسكرية الحاكمة في فرض رقابة مستمرة على السلطة التنفيذية ، فانه يكشف في الوقت نفسه عن حرص هذه الطبقة على ترضية مختلف رغبات رؤسائها ، وقد أدى هذا الحرص ، الذي لم يكن واقعياً ، إلى ذوبان معنى الدولة، وإلى عجز الطبقة التي نصبت هذا النظام لخدمتها . ولذلك كان نظام الآغوات عبارة عن فوضى مستمرة ، ولذلك أيضاً لم يعمر طويلاً ، وفتح الباب للارستقراطية البحرية المتمثلة في طائفة الرياس كي تنصب نظاماً جديداً لفائدتها .

وقد استغلت طائفة الرياس هذا الانتصار في تدعيم حكمها وسلطتها إلى حد الانكار الفعلي لسلطة الديوان الذي لم تكن طائفة الرياس تدعوه إلا لاجتماعات شكلية .

وقد اضطر النظام الجديد في بدايته ، بحكم تكوينه من طائفة الرياس ، إلى السكوت عن الهجومات التي كانت تنظمها الوحدات البحرية الجزائرية المختلفة ضد السواحل الأوربية . لأن تعود العاصمة على الرفاهية الاقتصادية القائمة على القرصنة وغنائم الغزوات صرفها عن البحث عن موارد داخلية قارة تضمن الاستقرار الاقتصادي ، وجعل اقتصاد العاصمة قائماً على موارد ليست لها أدنى علاقة بالحياة الحقيقية للبلاد . وعوض أن يبحث حكم الدايات عن ضمان حياة اقتصادية قارة قائمة على منابع وموارد داخلية ، استمر في صرف نظره إلى غنائم الغزوات واعتمادها في تحقيق الرفاهية الاقتصادية ، غافلاً عن التحول الذي كان بصدد الوقوع في الغرب الأوربي ، والذي أدى إلى ميلاد قوات جديدة في أوربا تختلف في طبيعتها السياسية والاقتصادية والعسكرية عن القوى التي كانت

واجهتها الجزائر قبل ذلك .

ذلك هو السر في تحويل عقلية الجهاد إلى عقلية القرصنة .

ولئن كان المؤرخون الأوربيون لا يفرقون في معظمهم بين عقلية الجهاد وعقلية القرصنة ، ولا ينتبهون إلى التمييز بينهما وبين أزمنتهما في التاريخ للمغرب العربي ، فإن معظم المؤرخين العرب يرتكبون نفس الخطأ : والفرق بين المؤرخين الأوربيين والمؤرخين العرب أن الأولين يعممون عقلية القرصنة اعتماداً على ما آلت اليه ، ويحكمون على عهد الجهاد بأنه كان هو أيضاً عهد القرصنة ، بينما المؤرخون العرب يعممون عقلية الجهاد اعتماداً على عهودها الأولى وينكرون عقلية القرصنة .

ان تحليل الوضع الاقتصادي للجزائر العاصمة ، وتحليل طبيعة التحولات التي كانت تجري في أواخر القرن السابع عشر هو الذي يقودنا إلى التمييز بين عقلية الجهاد وعقلية القرصنة وهو الذي يمكننا من التفسير الاقتصادي والسياسي لطبيعة الأحداث التي أدت إلى احتلال الجزائر .

وسنرى في الفصول اللاحقة ، كيف أن ردود الفعل الأوربية أدت إلى إضعاف طائفة الرياس ، وكيف أن فرقة اليولداش استردت بعضاً من نفوذها ، لكن طبيعة التحوّلات التاريخية الهامة التي أشرنا اليها آنفاً ، أضعفت فرقة اليولداش نفسها بواسطة العناصر التي أصبحت تتركب منها ، فلم تعد كما كانت تشكل وحدة متماسكة ملتحمة تربط بينها عقلية الجهاد ربطاً محكماً ، بل أصبحت عبارة عن جموع من المغامرين ينحصر كل همهم في المحافظة على الامتيازات وفي الحصول على أكبر قسط ممكن من المنح والمرتبات ، مما أدى إلى كثرة الاضطرابات والتمردات ، التي كانت في نظر الجنود الأتراك — خير مناسبة لاستدرار الأموال من الدايات أو المتمردين عليهم .

وهكذا نجد أن التحول السياسي والاقتصادي الذي ألمحنا اليه كان مصحوباً بتحول أخلاقي ضاعف من انهيار القوى التي كان المفروض فيها أن تساهم مساهمة فعالة في مقاومة الاحتلال الأجنبي .

ويكفي للتأكد من هذه الحقيقة ، أي تحول عقلية الجهاد الى عقلية القرصنة وما صاحبها من تحول أخلاقي ، أن نلاحظ أن الباشوات الذين تعاقبوا من سنة ١٥١٥ إلى سنة ١٦٥٩ ، وعددهم أكثر من ثلاثين ، لم يقتل واحد منهم ما عدا واحد سقط تحت ضربات انتقام شخصي في حين أن كل الآغوات ، وحوالي نصف الدايات قتلوا قتلاً .

وبالرغم من أن النظام الجديد ، نظام الدايات كان ينص على انتخاب الداي من طرف الديوان ، فإن الأمور كانت تجري بخلاف ذلك . فعندما يموت الداي ميتة طبيعية (وهو ما لم يحدث إلا في إحدى عشرة حالة) أو يتنازل فان خلفه الذي يكون قد تم تعيينه قبل ذلك ، يسارع إلى أخذ احتياطاته ، ويتم انتقال السلطة دون معارضة . أما عندما يسقط الداي نتيجة للعنف ، فان قتلته يسارعون إلى الجنينة ويعلنون انتصاب من اختاروه منهم لخلافة المقتول . وكثيراً ما يحدث أن تنشب معركة دامية حول العرش إلى أن يعلن المتمردون شارة الانتصار فينتصب الداي الجديد ، وغير بعيد منه جثة سلفه المقتول .

وفي كل مرة تنشب فيها معركة من هذا النوع ، تخلو شوارع الجزائر وتقفر من المارة ، وتغلق الدكاكين أبوابها ، لأن الجنود الأتراك كثيراً ما يغتنمون هذه الفترة من شغور الحكم فيطلقون لأنفسهم عنان النهب والسرقات والاعتداءات. وبمجرد ما ينتصب الداي الجديد يرسل قواته تهدىء الخواطر وترجع الاطمئنان إلى النفوس بواسطة إعدام بعض المعتدين .

أعضاء الحكومة :

وقد تطور حكم الدايات إلى أن أصبح حكماً مطلقاً وصار اجتماع الديوان أمراً شكلياً، فالداي هو الذي يختار وزراءه الذي يتركب منهم مجلس الدولة . ويأتي في مقدمة هؤلاء الوزراء :

١ – الخزناجي الذي يتكلف بتسيير الخزينة العمومية وهو يمشي مباشرة وراء الداي، ويخلفه في حالة الغيبة أو العرض ، فيعتبر هو الوزير الأول .

٢ – آغا الصبايحية ، وهذا الوزير يقوم بمهام باي الجزائر وهو القائد العام للقوات البحرية .

٣ – وكيل الحرج ، وهو وزير البحرية ومسؤول الحظائر التي تبنى فيها البواخر .

٤ – بيت المالجي المكلف ببيت المال الذي يسهر على تسجيل العقود والمواريث ، وللحيلولة دون وقوع أدنى تزوير يتولى هو اعطاء رخصة الدفن .

٥ – خوجة الخيل الذي يتلقى ما يدفع للدولة والداي من هدايا وخراج وزكوات يقدمها رعاياه من نجوع عرب الصحراء .

وبعد مرتبة الوزراء يأتي الخزنادار ، وهو أمين المال الخاص بالداي .

وبعد ذلك تأتي مرتبة الخوجة أو الكاتب ، وهي أصناف :

– الباشكاتب الذي يتولى ضبط دفاتر الجند وموارد الحكومة .

– الباشدفترجي وهو الكاتب الثاني ، الذي يضبط نسخة ثانية من دفتر الجند .

– الكاتب الثالث وهو يضبط نسخة ثانية من موارد الدولة .

– خوجة العشور ، وهو الكاتب الرابع ويضبط موارد الديوانة – وهؤلاء الكتاب الأربع يتولون تحرير الرسائل للباب العالي والدول الأجنبية .

وهناك كاتبان آخران يتوليان تحرير الرسائل باللغة العربية ، وهي الرسائل التي توجه إلى البايات والقياد وسلطان المغرب وباي طرابلس ، وأحدهما يسمى كاتب السر ، وهو يتولى قراءة الرسائل الواردة على الداي والرد عليها ، والآخر يشتغل في الغالب مع خوجة الخيل ، لأن أعمال هذا الخوجة مع العرب كثيرة .

– وكيل الحرج الكبير وهو المكلف بالمخازن التي تحتوي على الأقوات والمؤن وغيرها .

– وكيل الحرج الصغير : معاون الأول .

وأخيراً يأتي الشواش ، وهم ضباط الأمن ، وهم لا يحملون أسلحة ، وعندما يكلفون بالقاء القبض على شخص ، يتقدمون نحوه ويقولون : تعال معنا . فإن أبدى مقاومته يصيحون في الجمهور : « شرع الله » فيعينهم الجمهور على القاء القبض عليه .

ويتولى الداي الفصل في الخلافات والنوازل في مجلس يعقده صباح كل يوم ما عدا يوم الراحة وأيام الأعياد ، ويوم الثلاثاء المخصص لاجتماع مجلس الوزراء في الجنينة . ويخصص ما بعد الظهر للشؤون السياسة فيجتمع بالقناصل ، والقياد والأغوات الموظفين السامين . ولا يخرج من قضاء الداي إلا الجنود اليولداش الذين يخضعون للآغا . والنوازل المدنية تحال على القضاة أو المفتين .

والمهنة الوحيدة التي كان يفر منها الأتراك ويرفضونها هي مهنة قائد الفحص الذي يتكلف بأمن الضواحي ويسهر على استخلاص الضرائب من دور الخنا .

وقد كان السكان مقسمين إلى جماعات ، لكل جماعة أمين مسؤول عنها .

والداي مطالب بالبقاء في الجنينة ، تحت حراسة جنوده . وهو يضطر إلى مغادرة عائلته فور انتخابه ، ولا يذهب إلى منزله الخاص إلا بعد أداء صلاة الظهر يوم الخميس ، ليغادره صباح الجمعة عند التوجه لأداء صلاة الجمعة . ثم يمكث بالجنينة إلى يوم الخميس المقبل وهكذا .

ولا يتلقّى الداي – نظرياً – من الدولة إلا مرتب خمسين بياستر في العام ، ويتولى البايليك كفالته وكفالة عائلته بما يحتاجونه ، لكن له مع ذلك مداخيل خاصة من الغرامات ونصيبه في غنائم عمليات القرصنة ، والهدايا التي يقدمها القناصلة الأجانب والبابات .. الخ .. ويشكل مجموع هذه المداخيل مبالغ ضخمة . وعندما يموت الداي مقتولاً تأخذ الدولة كل أمواله ، وقد وصف أسقف مسيحي ، هو جوان كانو ، حياة الداي في جملة رائعة إذ قال :

« هكذا يعيش هذا الرجل الغني الذي لا يتصرف في كنوزه ، أباً بدون أولاد ،

زوجاً بدون زوجة مستبداً بدون حرية ، سيداً للعبيد وعبداً لرعاياه .. »

فشل حملة دوكين :

كان أول داي هو الحاج محمد باشا ، وهو من طائفة الرياس . تقلد هـذا المنصب في سنة ١٦٧١ . وفي عهده أراد سلطان المغرب الأقصى الاستيلاء على ما يليه من أرض الجزائر فلم يستطع .

وفي عهد هذا الداي أبرم الهولنديون مع الجزائر معاهدة سلم طبقاً للشروط التي اشترطتها الدولة الجزائرية ومن ضمنها التعهد بتزويد الجزائر بالمدافع وكل ما يلزمها من عتاد، وبأربعين شراعاً بحرياً ، وخمسمائة برميل بارود وباخرة محملة بالحبال ، والالتزام بتجديد دفع كل ذلك في كل سنة .

وبعد ابرام هذه المعاهدة في سنة ١٦٧٩ قدم الى الجزائر مبعوثون فرنسيون للتفاوض مع الداي حول تبادل الأسرى من الجانبين. وقد تمت في ١٦٨١ المفاهمة على إطلاق سراح الأسرى من الجانبين . لكن في الوقت الذي وفى فيه الجزائريون بالتزاماتهم وأطلقوا سراح الأسرى الفرنسيين ، رفض الفرنسيون إطلاق سراح الأسرى الجزائريون وأرسلوهم عبيداً لخدمة المراكب والسفن الفرنسية الموجودة بالمشرق .

فثارت ثائرة الديوان الجزائري وأجمع على إعلان الحرب ضد فرنسا في ١٨ أكتوبر ١٦٨١ ، وظهرت نتيجة اعلان الحرب في استيلاء الرياس الجزائريين على ٢٩ سفينـة فرنسية وثلاثمائة أسير . وقد اغتنم الانكليز فرصـة قيام الحرب بين الجزائر وفرنسا فأبرموا مع الجزائر معاهدة وصفها أحد الفرنسيين في ذلك العهد بقوله :

« إن الانكليز قدموا تنازلات مزرية للجزائريين إذ قبلوا بإعطائهم كميات هامـة من البارود ومن قنابل المدافع ومن الحبال وكل ما طلبوه منهم لتجهيز بواخر القرصنة ، كما أعطوهم خمسين تركيـاً كانوا أسرى فوق باخرة الجنرال الانكليزي ، في الوقت الذي لم يتحصل فيه الجنرال الانكليزي على أسير واحد من الأسرى الانكليز الذين كانوا موجودين بالجزائر والذين كان عددهم كبيرا .. كما قبل الانكليز بأن يتولى القراصنة الجزائريون

رقابة كل البواخر الانكليزية التي يصادفونها في البحر » .

لذلك قرر الفرنسيون شن هجوم على الجزائر ، عهدوا بتنظيمه إلى الأمرال دوكين .

وما ان سمع الحاج محمد باشا داي الجزائر بنبأ الاستعداد الفرنسي للهجوم على الجزائر، حتى اعتزل الحكم ، وكان قد تجاوز الثمانين ، واستقر بطرابلس ، وترك الأمر لصهره بابا حسن ، وكان ذلك في سنة ١٦٨٢ .

فكان بابا حسن هو الذي واجه هجوم الأميرال دوكين الذي غادر مدينة طولون الفرنسية يوم ١٢ جويلية ١٦٨٢ على رأس ثلاثين باخرة . وقد بدأ يقذف مدينة شرشال بقنابل مدفعيته في ٢٥ جويلية ثم توجه إلى مدينة الجزائر وأطلق عليها مساء ٢٦ أوت أربع وثمانين قنبلة ، ثم قذفها في الليلة ما بين ٣٠ و ٣١ أوت مائة وأربع عشرة قنبلة ، واستمر رمي القنابل إلى يوم ١٢ سبتمبر . وفي هذه الأثناء قام القنصل الفرنسي بمحاولات صلح لم تنجح ، لأن الأميرال دوكين كان يريد التفاوض مع ممثلي الداي . وبعد ذلك توجه دوكين عائداً إلى فرنسا خشية أن تهب عليه عواصف الخريف .

وقد كان هذا الهجوم مثار سخرية الجزائريين ، إذ أن المصاريف التي كلفها لم تكن تتلائم مع النتيجة التي كانت عبارة عن صفر .

وقد أراد الفرنسيون أن يغسلوا هذه السخرية ، فأعادوا دوكين من جديد لمهاجمة الجزائر وأمروه بتدميرها عن آخرها . فتوجه دوكين على رأس ثلاثة وأربعين باخرة حربية ، ووصل أمام العاصمة في ١٨ جوان وأرسل إلى الداي بابا حسن يأمره « باطلاق سراح الأسرى الفرنسيين وكل الأسرى الآخرين من مختلف الجنسيات الذين اسروا فوق البواخر الفرنسية » .

ولم يتلقّ دوكين أي جواب عن هذا الانذار ، وشرع يقذف المدينة بقنابل مدفعيته يوم ٢٦ جوان .

وبعد محادثات تمهيدية عقدت هدنة لمدة أربع وعشرين ساعة ، وطلب دوكين إرجاع خمسمائة وخمسين أسير فرنسي ، وتقديم عدد من الرياس إلى فرنسا كرهائن . فاستلم

الأميرال دوكين الأسرى وبعض الرياس من بينهم الرايس حسين ميزو موزتو وهو من قدماء القرصان الايطاليين أسلم بالجزائر وأصبح ذا نفوذ كبير بين طائفـــة الرياس الجزائريين .

وفي هذه الأثناء ثار بعض الرياس بالعاصمة على محاولة الصلح مع فرنسا ، مما أدى إلى إطالة محادثات الصلح التي امتدت نصف شهر دون أن تسفر عن نتيجة .

حينذاك طلب حسين ميزو مورتو من دوكين أن يطلق سراحه ، وقال له انه سيفعل خلال ساعة من زمان ما عجز عنه الداي بابا حسن خلال خمسة عشر يوماً .

وما ان أطلق سراح حسين ميزو مورتو حتى اجتمع بطائفة الرياس ، وكانت العاصمة حينذاك مقسمة إلى قسمين : أنصار الاستمرار في الحرب ويتزعمهم طائفـــة الرياس ، وأنصار إبرام السلم .

وعندما اطلق سراح حسين ميزو مورتو وبلغ الى علم السكان أن الأميرال دوكـــين طلب من الجزائر ان تدفع له في الحال مليون ونصف ليرة كتعويض عن خسائره ، رجحت كفة انصار الاستمرار في الحرب ، إذ عم السخط عـــلى الفرنسيين . واغتنم حسين ميزو مورتو هذه الفرصة فكلف احد اتباعه المخلصين ابراهيم خوجـــة بقتل الداي ، وتزعم حركة الحرب ، وارسل الى دوكين ينذره بأن الاستمرار في الحرب سيعرض المسيحيـين الموجودين في الجزائر لأشنع ميتة . وتم ذلك في ٢٢ جويلية ١٦٨٣ .

وبعد ان انتخب حسين ميزو مورتو دايا مكان الداي المقتول قرر مقـاومة الهجوم الفرنسي بكل الوسائل ، وامام الخسائر التي ألحقتهـا القذائف الفرنسية ببعض المساجـد والمباني ، توجه سكان العاصمة الى مبنى القنصلية الفرنسية فنهبوه واخذوا الأب لوفاشي المسيحي الذي كان متهماً بالخيانة في الوساطة بين الجزائر وفرنسا الى المينـــاء وأجلسوه أمام مدفع أطلقوا ناره ، وكذلك فعلوا بعشرين فرنسيـاً ، واطلقوا على هذا المدفع اسم « القنصلية » .

استمرت المعارك حامية الى شهر أكتوبر ، دون ان يتوصـــل الفرنسيون الى فرض

إرادتهم على الجزائريين ، ومع مقدم اكتوبر أقلعت الوحدات الفرنسية خشية أن تأخذها عواصف الخريف .

وقد كلفت هذه الحملة الخزينة الفرنسية اكثر من خمسة وعشرين مليوناً ، دون أن تحقق منها نتيجة ، وقد ندمت فرنسا على عدم اخذها بنصيحة (درسو) الذي كان يرى ان فائدة فرنسا تتمثل في النزول عند رغبة الجزائريين لان احدى نقط الخلاف بين الفرنسيين والجزائريين تتعلق بالاسرى الفرنسيين الذين اسرهم الرياس الجزائريون فوق مراكب غير فرنسية فالنظرية الجزائرية تعتبرهم تابعين للمركب الذي كانوا في خدمته بينما النظرية الفرنسية تهمل اعتبار المركب ولا تنظر إلا إلى جنسيتهم الفرنسية إلا ان نظرة درسو كانت تختلف عن النظرة الرسمية الفرنسية ، فهو يقول ان النزول عند رغبة الجزائريين والتسليم في البحارة الفرنسيين الذين يكونون في خدمة المراكب غير الفرنسية من شأنه أن يقلل من فرار البحارة الفرنسيين من فرنسا والتحاقهم بمراكب القراصنة الأجانب بدافع البحث عن المغانم .

لذلك لم يكن من الغريب ان تكلف فرنسا درسو بالتفاوض مع الجزائر بعد فشل حملة دوكين الثانية التي كان من المقرر ان تؤدي الى نسف ميناء الجزائر والتي لم تسفر إلا عن تدمير حوالي مائة مسكن ومسجدين . وقد لوحظت أن الجزائريين احترموا المراكز التجارية الفرنسية بالجزائر فلم يمسوها بأذى خلال هذه الحملة .

وعندما جاء درسو للتفاوض مع الداي اعلمه هذا بأنه ان كان ملك فرنسا يرغب في السلم مرة فهو يرغب فيها عشر مرات ، لكنه لا يستطيع ان يتفاوض مع دوكين الذي يعتبره رجلا لا عهد له .

ابرام السلم بين الجزائر وفرنسا

في هذه الأثناء حاول باي تونس استغلال المصاعب التي كان يواجهها الداي ، فعمل على اثارة القلاقل بالجزائر ، وثارت قلاقل بالفعل وقامت معارك في الأنهج جرح فيها الداي نفسه ، وعندما أدرك الداي حسين ميزو مورتو أن باي تونس له يد في اثارة هذه

الفتن ، وجه ضده حملة بأمرة ابراهيم خوجة الذي توجه الى تونس صحبة أخوي الباي التونسي اللذين كانا ينازعانه العرش ، فاستولى ابراهيم خوجة على تونس بعد حصار طويل ونصب بها محمد باي .

وامام فشل حملة دوكين من جهة ، وتعزيز موقف حسين ميزو مورتو بالانتصار الذي أحرزه على باي تونس من جهة اخرى تذرعت فرنسا بالسلطان العثماني أن يتدخل لحمل الجزائر على ابرام الصلح مع فرنسا ، فأرسل السلطان نائباً عنه صحبة المندوب الفرنسي دي تورفيل الذي وصل الى الجزائر يوم ٢ أفريل ١٦٨٤ .

وبعد مفاوضات استمرت عشرين يوماً ابرمت معاهدة سلم مع فرنسا لمدة مائة عام .

١ – احترام المعاهدات المبرمة بين الجانبين .

٢ – التوقف عن اعمال القرصنة من كلا الطرفين ضد الطرف الآخر .

٣ – استقرار السلم بين امبراطور فرنسا وداي الجزائر ، وحرية التجارة وضمان الأمن لبواخر الطرفين .

٤ – اطلاق سراح الاسرى الفرنسيين في الجزائر ، وسراح الجزائريين في فرنسا .

٥ – البواخر الجزائرية تضمن للبواخر الفرنسية حرية المرور بمجرد استظهار هذه بجواز مرور يضبط طبقاً لهذه الاتفاقية . كما تضمن البواخر الفرنسية حرية المرور للبواخر الجزائرية بنفس الشرط .

٦ – بواخر كل من الطرفين تنجد بواخر الطرف الآخر عند الحاجة .

٧ – بواخر كل من الطرفين تحمي بواخر الطرف الآخر من كل اعتداء قد يشن ضدها .

٨ – اطلاق سراح الأسرى الفرنسيين الذين يأسرهم أعداء الامبراطور الفرنسي عندما يصلون الى الجزائر ولو أسروا من طرف قوات أخرى .

٩ – يتكلف الطرف الجزائري باحصاء العبيد الفرنسيين في الجزائر والسماح للقنصل الفرنسي بشرائهم وكذلك يفعل الطرف الفرنسي بالنسبة للاسرى الجزائريين .

١٠ – الأسرى الفرنسيون الموجودون في مملكة الجزائر سواء أسروا منذ ١٨ أكتوبر ١٦٨١ أو منذ المعاهدة المبرمة بين امبراطور فرنسا وباشا الجزائر في فيفري ١٦٧٠ يطلق سراحهم دون مقابل .

١١ – الأسرى الفرنسيون الذين أسروا قبل ١٦٧٠ يشترون بثلاثمائة ليرة للشخص الواحد .

١٢ – لا يمكن أسر الركاب الاجانب عندما يكونون على متن باخرة فرنسية أو الركاب الفرنسيين عندما يكونون على متن باخرة أجنبية كما لا يمكن أسر الركاب الاجانب على متن باخرة جزائرية أو الركاب الجزائريين على متن باخرة أجنبية .

١٣ – كل باخرة فرنسيـــة الى الشواطىء الجزائرية فارة من أعدائهـــا ، ينجدها الجزائريون دون أن يفرضوا على السلع الموجودة بها أية إتاوة الا اذا بيعت .

١٤ – يستطيع الجزائريون أن ينزلوا سلعهم بالسواحل الفرنسية ثم يأخذوهـا دون أن تفرض عليهم أية إتاوة .

١٥ – يمنع داي الجزائر على رعاياه أن يساهموا في الحرب والقرصنـــة ضد البواخر الفرنسية .

١٦ – لا تجبر البواخر الفرنسية على القيام بسفر لا تريده أو حمل شيء ضد ارادتها .

١٧ – يستطيع امبراطور فرنسا اقامة قنصلية بالجزائر لمساعدة التجار الفرنسيين ، ويملك القنصل الفرنسي حرية ممارسة شعائره الدينية في منزله ، وكذلك الفرنسيون الذين يريدون ممارسة الشعائر الدينيـــة في منزل القنصل كما يملك الجزائريون الذين يأتون الى فرنسا حرية ممارسة شعائرهم الدينية في بيوتهم .

١٨ – يختار القنصل ترجمانه وسمساره .

١٩ – عندما يحدث خلاف بين فرنسي وجزائري لا يمكن أن يفصل في ذلك قاضي عادي .

٢٠ – معاقبة القرصان الفرنسي الذي يهاجم البواخر الجزائرية والقرصان الجزائري الذي يهاجم البواخر الفرنسية .

وتنص المادتان الأخيرتان من هذا الاتفاق (الذي تبلغ عدد مواده تسعاً وعشرين) على ان البضائع الفرنسية تستطيع مغادرة الجزائر في ظرف ثلاثة أشهر بكل حرية ، في حالة وقف العمل بهذا الاتفاق وكذلك الامر بالنسبة للبضائع الجزائرية ، وعلى ان العمل بهذا الاتفاق يستمر لمدة مائة عام .

استئناف الحرب :

لكن هذه المعاهدة التي ابرمت لمدة مائة سنة لم تستمر طويـــلاً ، ففي صيف ١٨٨٦ جدت حوادث بين البواخر الفرنسية والجزائرية حاول كل من الطرفين القــاء تبعتها على الآخر ، وفي هذه السنة ١٨٨٦ تلقى الحـــاج حسين ميزومورتو قفطان الباشوية من القسطنطينية ، فعين ابراهيم جوجة على رأس حملة الى وهران لمقاومة الاسبان .

وبعد حوادث صيف ١٨٨٦ ، اتخذ حسين ميزومورتو احتياطاته العسكرية وارسل الى فرنسا يبلغها استعداده للتفـــاوض لكن الطرف الفرنسي صمم على الحرب ، فوصلت قوات الماريشال ديستري امام ابواب الجزائر يوم ٢٦ جوان وارسل الى الداي يهدده بأن استئناف عمليات القمع ضد الفرنسيين مثل التي ارتكبت في سنة ١٨٨٣ سيدفع الطرف الفرنسي الى ردود فعل مماثلة فأجابه الداي بأنه فيما اذا اقدم الفرنسيون على قنبلة مدينـــة الجزائر ، فسيكون القنصل الفرنسي هو اول ضحية للاعتداء ، وارسل الداي يقول للقائد الفرنسي على الاخص انه « يعتبر هذا النوع من الحرب غير شريف وان ذلك لن يحملـه على تغيير موقفه في الصمود ضد الفرنسيين حتى ولو كان والده من بين الاسرى المهددين بالموت . اما ان كان القائد الفرنسي مستعداً للحرب الشريفة فسيتولى الداي بنفسه حماية الأسرى الفرنسيين » .

وشرع الفرنسيون يطلقون قذائف المدافع يوم اول جويليـــة واستمروا كذلك الى يوم ١٦ منه فبلغ عدد القذائف التي اطلقوها عشرة آلاف واربعمائة وعشرين قذيفـــة

الحقت بالمدينة اضرارا مادية لم تتناسب مع مصاريف الحملة ولم يكن من شأنهـــا ان ترهب الداي .

ولم يكتف الداي برفض النزول عند مطالب الفرنسيين بـــل كان دائماً يشاهد في الصفوف الامامية يخوض المعركة بنفسه .

وما ان اقلعت الوحدات الفرنسية حتى سارع الداي بتسليح البواخر الحربية وانطلق الرياس يتربصون بكل البواخر الفرنسية في حوض البحر الأبيض المتوسط .

ووجدت فرنسا نفسها مهددة في تجارتها ومواصلاتها مع بلاد المشرق ، كما لاحـــظ مسؤولوها ان الانكليز قد يغتنمون هذه الفرصة لاحتكار التجارة مع بـــلاد المشرق ، لذلك ارسلت الحكومة الفرنسية الى الجزائر تفاتحها في اجراء مفاوضات من اجـــل تحسين العلاقات واعادتها الى سابق عهدها ؛ وهكذا تم الاتفاق على تجديد العمل بالاتفاق الذي ادخلت عليه بعض التحويرات وذلك في سبتمبر ١٦٨٦ ، اثر هذا الاتفاق اوفدت القسطنطينية اسماعيل باشا ليحتل منصب الباشوية الذي كان احتـله من سنة ١٦٦١ الى سنة ١٦٨٦ وكانت السلطات الفرنسية لم تدرك بعد طبيعة التحول الذي حدث مع نظام الدايات ، ولذلك سعت لدى السلطان العثماني كي يعهد بالباشوية الى هذا الشخص الذي كان الفرنسيون يعتبرونه صديقاً لهم .

الا ان اسماعيل عندما وصل أمام ميناء الجزائر ، صدر اليه الامر بأن يمسك عـــن دخول الجزائر ، وهدد باطلاق نيران المدفعية عليه ان هو لم ينسحب في الحال . فانسحب فعلاً وتوجه الى المغرب الأقصى .

وبعد هذه الحادثة بقليل ، تمرد الجنود الأتراك وطائفة الرياس وطالبوا برأس الحاج حسين ميزومورتو لأنه أبرم الاتفاق دون مشورتهم ولما وجد أنه عجز عـــن الصمود في وجههم انسحب الى تونس ثم التحق بالقسطنطينية ، حيث عين قبطـــان باشا أي قائداً عاماً للاسطول العثماني .

ومما يؤكد العلاقة بين التوقيع على الاتفاق مع فرنسا وبين المطالبة برأس حسين أن الداي الذي انتخب بعد ذلك وهو الحاج شعبان أبدى تخوفه من الاستمرار في العمل بمقتضى ذلك الاتفاق ولذلك اشترط الداي الجديد لموافقته على الاتفاق المذكور أن ترجع له فرنسا البواخر الأربع التي كانت احتجزتها في حملة سابقة .

طبعية السياسة الفرنسية ازاء الجزائر :

ينبىء الاتفاق السابق الذي أبرم اثر عروض جاءت من فرنسا بالخط العام الذي يبدو أن السياسة الفرنسية قد تبنته حينذاك فيما يتصل بالعلاقات مع الجزائر . فقد أبرم الاتفاق بعد تأكد الحكومة الفرنسية ان سياسة القذف بالقنابل عن طريق البحر غير مجدية . ومن هنا جاءت عروض المفاهمة بديلاً لا مفر منه لسياسة القوة التي كانت تحظى بتأييد سياسة الفرنسيين ولئن كان تكرر حوادث القرصنة من طرف الرياس الجزائريين في هذا العهد يعبر كما ألمحنا الى ذلك قبلا عن حاجة اقتصادية استتبعت تغييراً في الاخلاق وفي السياسة ، فان ما صدر عن الفرنسيين من تصرفات يحاولون تبريرها بشتى المبررات التي تختلف درجات صحتها أو بطلانها ، يجسم بدوره رغبة التوسع الامبريالي التي تستلزمها السياسة الاقتصادية القائمة على التوسع التجاري والتي كان يتزعم مدرستها الوزير الفرنسي كولبير .

ان تصور هذه الحقيقة ضروري لفهم التطور السياسي الذي أدى بعد ذلك الى الاحتلال الفرنسي . فالاحتلال الفرنسي كما سنتأكد من ذلك في الفصول اللاحقة لم يكن تعبيراً عن سياسة جديدة ولم يكن تحولاً مفاجئاً أحدثته ضربة مروحة حقيقية أو مزيفة ولكنه كان استمراراً لسياسة حالت ظروف موضوعية قاهرة دون ان تظهر قبل ١٨٣٠ سياسة ترجع بذورها الاولى الى التنازلات التي كانت قدمتها السلطنة العثمانية الى فرنسا في عهد الملك فرانسوا الاول والتي شرحنا طبيعتها قبلاً .

احداث تونس والمغرب :

ترتبت عن الغموض والفوضى التي سادت العلاقة بين القسطنطينية والجزائر منذ عهد

الباي لارباي، نتائج سيئة عديدة لم تكن قاصرة على الجزائر فقط، بل امتدت الى العلاقة بين دول المغرب العربي ، وعلى الأخص بين تونس والجزائر . فلئن كان البيت المالك في المغرب الأقصى منفصلا عن الباب العالي ، ولئن كانت العلاقة بين نظام المغرب علاقة حرب ظاهرة او خفية ، نتيجة للعداء الذي عززه العثمانيون في بدء التسرب التركي الى الجزائر طمعاً في بسط نفوذهم على المغرب الأقصى ، فان الأمر كان يختلف بالنسبة للعلاقة بين تونس والجزائر ، لأن تبعية كل منهما للسلطنة العثمانية جعل الغموض القائم في العلاقة بين كل منهما والقسطنطينية ينتقل الى العلاقة بين بعضهما بعض ؛ ومن هنا كان النظام الجزائري يعتبر تونس تابعة له او يجب ان تكون تابعة له، بينما كان نظام تونس يعتبر نفسه مساوياً للنظام الجزائري وانه تابع رأساً للقسطنطينية .

ان هذا الغموض هو الذي يفسر الحوادث التي جدت في عهد الدايات بين تونس والجزائر التي كشفت من جديد عن طابع العداوة بين نظام الجزائر ونظام المغرب ، وترتبت عن الوضع احداث أخرى في داخل الجزائر كشفت مرة اخرى عن الطابع السطحي للحكم التركي بالجزائر ، وعن طبيعته .

ان المتاعب التي تعرض لها داي الجزائر دفعت باي تونس الى مهاجمة الشرق الجزائري ، بالرغم من ان محمد باي الذي كان باياً في ذلك الوقت نصب في عرش تونس بقوة الجزائريين .

وقد كان الداي شعبان باشا الذي خلفه ، رجل حرب فنظم حملة ردت التونسيين على الاعقاب ، وقصد بعد ذلك الى تونس العاصمة فحاصرها حصاراً قصيراً نصب على أثره احمد بن تونس شركس باياً على تونس ، وكان ذلك في سنة ١٦٨١م ،لكن ما ان انسحبت القوات الجزائرية حتى ظهر محمد باي على رأس أنصاره وتمكن من طرد احمد بن شركس بسهولة من العرش .

وحدث في نفس الوقت ان سلطان المغرب مولاي اسماعيل أراد ان يستغل مصاعب الجزائر ، في توسيع نطاق مملكته الى تلمسان ، فسار نحوه الداي على رأس عشرة آلاف

تركي وثلاثة آلاف صبايحي ، وعدد كبير من الجزائريين معظمهم من قبائل زواوة ، ونشبت بين الجانبين معركة كبيرة على نهر الملوية يقول عنها المؤرخون الفرنسيون أن السلطان المغربي خسر فيها خمسة آلاف قتيل وتتبع الداي فلول الهاربين من جيش السلطان حتى وصل وراءهم الى فاس ، وكادت تنشب معركة جديدة ، لولا أن مولاي اسماعيل تقدم مكتوف اليدين الى الداي وقبّل الأرض بين يديه ثلاثاً وقال له ما معناه : أنت السكين وأنا اللحم .

عاد الأتراك من هذه الموقعة محملين بالغنائم ، لكنهم اصطدموا عند وصولهم الى الجزائر ، بجو مشبع برائحة التمرد والثورة .

ذلك أن باي تونس حاول استغلال السخط الخفي على الحكم التركي في الجزائر ، فبعث من يقوده ليضعف به داي الجزائر حتى يتلهى عنه إن لم يؤد إلى سقوط نظام الدايات دفعة واحدة .

وفعلاً فقد حدثت في غيبة الداي مفاهمة بين سكان العاصمة الذين يطلق عليهم اسم (البلدية) وبين القبائل وصمموا على طرد الجنود الاتراك .

واختفى المتآمرون بالمنازل في انتظار الساعة المؤاتية ، وكانوا قد ضبطوا حسابهم على أساس أن المغاربة هم الذين سيخرجون منتصرين من المعركة ، فيستغلون انكسار الاتراك وهبوط معنوياتهم بتنظيم ثورة تكنسهم من الجزائر .

وعند رجوع الأتراك نشبت معارك دموية في الأنهج ، لكن الداي تمكن من سحق التمرد وقطع ما يقرب من خمسمائة رأس ، وفرض على القبائل الذين ينتمون اليها ضرائب باهظة ، وصادفت هذه المجزرة اليوم الأخير من شهر رمضان سنة أربعة ومائة الف هجرية (١٦٩٢ م .)

ويبدو ان هذه المجزرة ولدت رد فعل عنيف عند السكان إذ اشتعلت النار بعد ذلك بأيام قلائل في حظائر الميناء ، وانتقلت النار إلى البواخر التي كانت راسية هناك ، فكانت الخسائر باهظة ، وجرى الحديث عن مؤامرة جديدة مما أدى إلى سقوط

رؤوس اخرى .

بعد ان استرجع محمد باي عرش تونس تحالف مع سلطان المغرب ضد داي الجزائر ، فقرر داي الجزائر الذي كان يناصره نظام طرابلس الغرب أن يطــرد محمد باي من عرش تونس ، وأدرك محمد باي أن حليفه المغربي لا يستطيــع أن يقدم له أدنى معونة ، فعرض على الداي تقديم جباية عنواناً لخضوعه ، لكن الداي شعبان باشا رفض العرض ، وتوجه إلى تونس ؛ التقى الجيشان بالكاف في ٢٤ جوان ١٦٩٤ م (ذو القعدة ١١٠٦ هـ .)

وبدأ محمد باي يشن الهجوم ، لكنه انهزم في اليــوم نفسه ، واستأنف المعركة من الغد فانهزم ايضاً وفي اليوم الثالث يوم ٢٦ جوان ، شن شعبان هجوماً خرق صفوف محمد باي وراح يلاحقها الى تونس العاصمة التي استولى عليها ونصب بها احمد بن شركس من جديد ، ثم عاد الى الجزائر في فيفري ١٦٩٥ (رجب ١١٠٧ هـ) محملاً بالغنائم الذي كانت — حسب دي غرامون — عبارة عن مائة وعشرين من البغال المحملة بالذهب والفضة وكمية من المدافع وعدد كبير من العبيد .

وأثر عودة الداي شعبان حاول مجهول اغتياله أثناء الصلاة في المسجد ، لكن المحاولة فشلت والقي القبض على المجرم التي اعترف برفاقه فاعدموا جميعــاً . لكن الانتصار الذي أحرزه الداي شعبان كان قصير المدى ، فقد تمكن محمد باي بعد ذلك بقليل في أول ماي ١٦٩٥ م (منتصف رمضان ١١٠٦) من طرد أحمد بن شركس والانتصاب من جديد على عرش تونس .

وكبر على شعبان أن تذهب ثمرة انتصاره بهذه السرعة ، فاستعد لتنظيم حمــلة أخرى ضد باي تونس ، لكن الضباط الأتراك كانوا قـــد تعبوا من الثلاث سنوات المتوالية التي قضوها في حروب متصلة ، فعارضوا في الحملة الجديدة ؛ واجه الداي هذه المعارضة باعدام بعض الضباط الاتراك ، مما أدى الى انتشار السخط في صفوف الجنود الأتراك ، وسرعان ما تحول السخط الى تمرد علني ، فهاجم الجنود القصر يوم ٥ أوت ١٦٩٥ (ذو الحجة ١١٠٦ هـ) ووضعوا شعبان باشا في السجن .

ومن الغد عثر بعض الجنود المتمردين بجندي تركي قـــديم ، اسمه الحاج أحمد أصبح

اسكافياً ، كان جالساً أمام منزله ، فحملوه على الأكتاف وأعلنوه داياً على الجزائر . وقد حكم الداي الجديد باعدام شعبان باشا .

وبعد انتصاب الحاج احمد دايا ، عقد باي تونس السلم مع الجزائر ، لكن هذا السلم لم يستمر طويلاً كما سنرى .

ولم يحدث في أيام الحاج أحمد باشا شيء يذكر سوى وباء أتلف كثيراً من الناس في الجزائر ، إذ استمر حوالي الأربع سنوات، وعندما مات الحاج أحمد باشا في سنة ١٦٩٨ خلفه حسن باشا الشاوش .

وفي هذه الاثناء كان محمد باي تونس الذي عقد السلم مع الجزائر قد توفي في عام ١٦٩٦م فخلفه أخوه رمضان . وأراد رمضان أن يتخلص من منافسه مراد ابن أخيه فأمر طبيباً جراحاً أن يعمي عينه . لكن الجراح أجرى العملية بكيفية تجعل مراد يبدو وكأنه أعمى مع انه احتفظ ببصره. وانسحب مراد إلى سوسة حيث جمع بعض الساخطين وأعلن نفسه باياً وقتل جنوده رمضان باي الذي تخلى عنه أنصاره في العاشر من مارس ١٦٩٩ م .

وبعد ذلك تحالف مراد باي مع خليل باي طرابلس ومولاي اسماعيل سلطان المغرب ضد داي الجزائر . ووعد سلطان المغرب باي تونس بتنظيم هجوم على الناحية الغربية من الجزائر ، على ان يهاجم باي تونس الشرق الجزائري . وسار مراد باي بالفعل في اتجاه قسنطينة ، في جويلية ١٧٠٠ م (أوائل ١١١٢ هـ) . ثم فرض الحصار على المدينة.

عندما بلغت هذه الانباء الى الداي اعتزل الحكم وطلب من الديوان تعيين داي آخر مكانه .

فتم انتخاب الحاج مصطفى الذي بدأ عمله بنجدة قسنطينة وتوجه نحو مراد باي الذي كان قد هزم باي قسنطينة وسار متجهاً نحو مدينة الجزائر . فالتقى الجمعان عند العلمة : على مقربة من سطيف يوم الثالث من اكتوبر ١٧٠٠ (ربيع الثاني ١١١٢ هـ) وشن الحاج مصطفى هجوماً عنيفاً ضد مراد باي الذي انهزم جنوده الى ما وراء حدود تونس ولم

يتمكن مراد باي من جمع شملهم إلا بالكاف .

ولم يتتبع الحاج مصطفى باشا فلول جند الباي ، وفضل البقاء بقسنطينة لتمهيد امورها ، فنصب بها أحمد بن فرحات مكان الباي الذي قتل في الحصار السابق .

في هذه الاثناء كان مولاي اسماعيل سلطان المغرب قد هجم على تلمسان طبقاً للاتفاق المبرم مع مراد باي ، لذلك توجه الداي ، الحاج اسماعيل باشا فور انتهائه من تسوية امور قسنطينة ، الى الغرب الجزائري ، حتى التقى مع الجيش المغربي الذي كان يعد خمسين الف جندي ، ونشبت المعركة بين الطرفين عند واد الجديوية ، من فروع الشلف يوم ٢٨ افريل ١٧٠١ م (ذو القعدة ١١١٢) هـ وبعد اربع ساعات من نشوب المعركة اندحر جيش مولاي اسماعيل وجرح هو نفسه بجروح بليغة ، وكاد يسقط اسيراً في يد الداي الجزائري. وعاد الداي الى العاصمة يحمل رؤوس ثلاثة الاف جندي وخمسين قائداً مغربياً، ومغانم كثيرة وعندما اراد مراد باي بعد ذلك ان يشن حملة جديدة ضد الداي ثار عليه جنوده اذ تسبب لهم في هزيمة شنعاء وقتلوه على ضفاف وادي الزرقة في ماي ١٧٠٢ مع افراد عائلته ، فخلفه ابراهيم الشريف الذي اعلن نفسه باياً ودايا وباشا .

* * *

هذه الانتصارات لم تفد الحاج اسماعيل باشا شيئا لأن خزينة الدولة لم يكن بها ما يكفي لمواجهة مطالب الجنود ذلك ان القرصنة لم تعد تؤدي الثمار التي كانت تؤديها قبلا لأن شواطيء اسبانيا وايطاليا زال ازدهارها وذوى من جهة ، ولأن البواخر التجارية الاروبية اصبحت تتنقل بصفة جماعية على هيئة قوافل بحرية مسلحة من جهة اخرى .

اما الضرائب التي ضوعفت ، فانها لم تسد الثغرة التي كانت في الخزينة لأن ارتفاعها جعل السكان يتحايلون على التهرب من دفعها بشتى الوسائل .

حينذاك فكر الداي في تنظيم حملة تجلب بعض المغانم ضد خليل باي طرابلس بدعوى ان هذا الباي كان قد حجز باخرة كانت تحمل له هدايا من باشا مصر ، ويقول هنري

غارو ان باي تونس كان ناقماً ايضاً على باي طرابلس لفعلة ارتكبها ضده من هذا القبيل ، ويضيف غارو الى ذلك قائلاً بأن كلا من داي الجزائر وباي تونس تحالفا ضد باي طرابلس ، وفي الوقت الذي استعد فيه الحليفان لشن الحملة على طرابلس في ربيع ١٧٠٥م اشاع الانكليز خبراً مفاده ان باي تونس ابرم اتفاقاً سرياً مع باي طرابلس على إيقاع الجزائريين في فخ ، ولم يتثبت الداي من هذا النبأ الذي يقول غارو انه لا اساس له من الصحة ، وتحصل من الديوان على اعلان الحرب ضد باي تونس .

وكان باي تونس قد توجه الى طرابلس فحاصرها الى ان اضطره الوباء الى رفع الحصار عنها ، فتوجه آنذاك الى الحاج مصطفى الذي بلغه نبأ سيره نحو تونس محارباً .

التقى الجمعان يوم الحادي عشر من جويلية ١٧٠٥ م (ربيع الاول ١١١٧ هـ) . بالقرب من الكاف ، فانهزم ابراهيم الشريف الذي تخلت عنه طائفة من انصاره ووقع في الأسر .

وكان حسين بن علي آغا الصباحية الذي تهرب من المعركة قد التحق بتونس العاصمة فبويع باياً ، وشرع ينظم الدفاع عن تونس .

وصل الحاج مصطفى امام تونس يوم ٢٨ أوت ١٧٠٥ ففرض عليها الحصار ، لكن الباي الجديد صمد في وجه الحصار بعد ان رفض الحاج مصطفى عرضاً مالياً قدمه له على ان يرفع الحصار وينصرف ، ولما طال الحصار انصرف الجنود الاضافيون التابعون لجيش الداي بعد ان لم يبق هناك شيء يستحق النهب ، فلم يجد الداي بداً من الانصراف ورفع الحصار في التاسع من اكتوبر ١٧٠٥ . ومن الغد عندما لاحظ حسين باي انصراف الداي شن عليه هجوماً عنيفاً فحول الانسحاب الى هزيمة . لكن رد فعل عنيف من طرف جنود الداي مكن من الحد من الخسائر ومن انقاذ فلول الجيش الجزائري .

بلغ نبأ الهزيمة الى العاصمة الجزائرية قبل ان يصلها الحاج مصطفى ، فأعلن الديوان عزله وانتخب مكانه حسين خوجة .

ما ان سمع الحاج مصطفى بالنبأ حتى عاد ادراجه الى أن وصل مدينة القل حيث اوقفه الجنود الاتراك الذين تتركب منهم حامية هذه المدينة وكان ذلك في الثالث من نوفمبر ، وقد اعدم الحاج مصطفى بعد ذلك .

اما الداي الجديد حسين خوجة ، فقد سارع بتعذيب زوجة الداي السابق وابنته حتى كشفتا عن مخبأ كنوز الحاج مصطفى . فوزع حسين خوجة تلك الكنوز على الجنود ، وتمكن من اخماد سخطهم الى حين . كما اطلق سراح ابراهيم الشريف ، باي تونس السابق ، مقابل غرامة مالية كبيرة ، وعلى امل ان يرجع الى تونس ويسترجع عرشها ويعترف بسيادة الداي . لكن ابراهيم عندما نزل بالارض التونسية تلقاه جند حسين بن علي ، وقضي عليه عندما نزل غار الملح .

وبمجرد ما نضبت الموارد السابقة وجد الداي حسين خوجة نفسه امام المشكل المالي الذي اودى بمنصب وحياة سلفه فعزله الديوان وانتخب مكانه محمد بقطاش باشا .

* * *

وبعد ذلك لم تحدث بين دول المغرب العربي إلا مناوشات لم يكن لها كبير تأثير ، ولم تدخل تغييراً كبيراً على بنية المغرب العربي السياسي .

عوامل استمرار الحضور الاسباني :

أثر المعركة التي نشبت بين الداي الحاج مصطفى باشا وسلطان المغرب مولاي اسماعيل ، وبعد الانتصار الذي أحرزه الداي ، اولى هذا الاخير مصطفى بوشلاغم بايا على المغرب الجزائري . وقد كان مركز باي الغرب حينذاك هو مازونة . لكن مصطفى بوشلاغم ، بعد توليته نقل مركزه من مازونة الى معسكر ، تمهيداً لتشديد الضغط على القاعدة الاسبانية التي كانت هناك .

والواقع ان العمليات ضد القاعدة الاسبانية في وهران ومرسي الكبير ظلت متواصلة وعلى الاخص منذ أواخر ١٦٩٨ .

الا ان الظروف السياسية التي كانت قائمة بالجزائر ، حالت دون التوجه الكلي لتطهير البلاد من المحتل الاجنبي . فقد تغيرت تلك الروح التي كان يمثلهـــا عروج وخير الدين ، وتحولت الطائفة التركية الى طبقة عسكرية مستبدة بالحـكم ، كل همها هو جمع الاموال ، وتأييد الأمتيازات مع تضخيمها .

وكما انشغل الحاكمون بهذا الجانب وما يستتبعه من معارك جانبية وسطحية ، انشغل السكان بالبحث عن أضمن طريق للتخلص من سيطرة مثل هذا الحـكم ، وظهرت محاولة التخلص من حكم الاتراك الطاغي في أشكال متعددة : ظهرت في قـالب ثورات وتمردات هنا وهناك ...

وظهرت في شكل التهرب من دفع الضرائب وظهرت في اللجوء الى تربيـــة المواشي وانتهاج طريق البدو الرحل في البحث عن المعاش حتى لا يقعوا تحت وطأة الجباةالاتراك. لان الاستقرار في مكان معين والتفرغ لخدمة الارض معنـــاه التعرض باستمرار لوحشية الجباة الذين لا يعرفون رحمة فيما يفرضونه على الفلاح من ضرائب يذهب أغلبها الى جيوبهم وأقلها الى خزينة الدولة .

* * *

هذا التشتت للطاقات الوطنيـة بالاضافـة الى التحول الذي طرا على طبيعة الحكم ، أدى الى القضاء على بعض مقومات الدولة .

ومن ثم لم يوجد اهتمام كبير بالقضاء على القاعدة الاسبانيـــة في وهران ، الى ان تمت تولية بوشلاغم الذي يبدو انه لعب دوراً أساسياً في لفت نظر العاصمة الى وجوب القضاء على هذه القاعدة الاجنبية ، كمايبدو انه كان اكثر ولاة الغرب الجزائري تفطناً الى نقط الضعف في هذه القاعدة .

وفعلاً فان العوامل السياسية والدينية والجغرافية تجتمع في صف واحد مؤكدة سهولة القضاء على هذه القاعدة ، بشرط أن يوجد تصميم وعزم من الدولة على ذلك .

هذه الحقيقة يؤكدها لنا ما يرويه التاريخ عن ثورة سكان المناطق المحيطة بوهران، بمجرد ظهور فرقة تركية ... ومعنى ذلك بعبارة اخرى ان شعور الثورة ضد المحتل الاسباني لم يخمد في يوم من الايام عند سكان المناطق المجاورة لوهران ولمرسي الكبير. لكن الحكم المركزي ترك اولئك السكان وشأنهم ولم يبق طيلة المدة التي تفصل بين هزيمة الاسبان امام مستغانم في ١٥٥٨ م. وبين طرد الاسبان من وهران ومرسي الكبير بعد ذلك بقرن ونصف قرن — محاولات جديدة ومتواصلة للقضاء على القاعدة الاسبانية.

وإلا فبماذا يمكن تفسير استقرار الاسبان في وهران طيلة هذه المدة، رغم العوامل التي تساعد على نجاح كل محاولة جدية مصممة للقضاء على وجودهم هناك؟

فوضعية وهران وسط سكان المناطق المجاورة، كانت وضعية حصن يحيط به الاعداء من كل جانب. وهذه الوضعية وحدها تفرض على المحتل جهداً منهكاً، لانها تستلزم حراسة مستمرة على كل منافذ المواصلات، كما تستلزم قوة عسكرية دائمة لمصاحبة الاغنام عند خروجها للمراعي، وحذراً دائماً من السكان الذين سيغتنمون ادنى فرصة للانقضاض على المحتلين. ثم ان وقوع وهران بين مستغانم من جهة، وتلمسان من جهة اخرى، يجعل في امكان السلطة المركزية بالجزائر ان تحشد قوة ضخمة منظمة تستطيع الانقضاض على الحامية الاسبانية في وهران ومرسي الكبير بسرعة.

واذا التفتنا الى العامل الاقتصادي نجد انه يسهل مهمة من يحاول القضاء على القاعدة الاسبانية، لانه قد قام الدليل على ان السكان رفضوا تمويل الحامية الاسبانية بمحض اختيارهم، ومن ثم كان الاسبان يشنون من حين لآخر حملات ارهابية ضد السكان لجلب التموين بالقوة، ومثل هذه الحملات من شأنها ان تدفع جانباً من السكان إلى الابتعاد عن المناطق المجاورة والرحيل الى حيث الأمن، وهو أمر يؤدي مع طول الزمن الى تضاؤل المحصول الزراعي.

وهناك عامل آخر لا يقل أهمية عن العوامل السابقة وهو متولد عنها في نفس الوقت:

ان هذه الوضعية وضعية الحرب الدائمة من غير وجود حرب دائمة ، ونقص الموارد والمحاصيل ، الذي يولد نقص التموين ويجعل الجنود الاسبان أحياناً محكوماً عليهم بانتظار وصول باخرة تحمل التموين من اسبانيا قد تصل وقد تقع في أيدي الرياس الجزائريين — هذه الوضعية اثرت على معنويات الجنود الاسبان وجعلتهم يطالبون بالرحيل في أول عهد الاحتلال الاسباني لوهران .

وقد كان من الممكن ترغيب المغامرين الذين لا يكونون قد عرفوا هذه الوضعية في التجند واستغلال جهلهم ، لكن المستعمرات الاسبانية في اميركا جعلت كل المغامرين ينصرفون إلى اميركا بحثاً عن الثروة والجاه .

والواقع ان الاسبان حاولوا خلال القرن السادس عشر الاستيلاء على كل من تلمسان ومستغانم ، لانهم أدركوا أن وهران مثل مرسي الكبير ستظل مهددة بالضياع ما دامت هاتان المدينتان بأيدي الأتراك . وقد أظهرت معركة مستغانم وهزيمة الاسبان فيها سنة ١٥٥٨ صحة هذا التحليل . لكن حسان باشا لم يعرف كيف يذهب بذلك الانتصار الى مداه الكامل : فلو انه استغل هزيمة الاسبان في مستغانم ، وسار على رأس قواته إلى وهران لسقطت في يده بكل سهولة إلا أنه قنع بحدود الانتصار الذي تم في مستغانم ، ووجد ان ما احرز عليه من مغانم كان كافياً في جعل الحملة التي قادها بطولية ماجدة .

استرجاع وهران ومرسى الكبير .

على هذا الاساس يمكن القول بأن مدينة وهران كان محكوماً عليها بالسقوط من يوم هزيمة الاسبان في مستغانم . ومن أجل هذا يمكن القول بأن عدم وجود تصميم لدى السلطة المركزية على تطهير وهران هو وحده الذي ضمن للقاعدة الاسبانية البقاء طيلة هذه المدة . ولذلك ما ان انعقدت النية على تنظيف وهران ومرسى الكبير من الاحتلال الاجنبي ، حتى كللت المحاولة بالنجاح .

فقد أرسل الداي محمد بقطاش باشا ، في نفس العام الذي بويع فيه دايا على الجزائر ، أي عام ١٧٠٧ صهره وزان حسان على رأس قوة كبيرة الى ناحيـــة وهران. وكان باي الغرب ، بوشلاغم ، قد نقل قبل ذلك مركزه إلى معسكر تمهيداً لعملية استرجاع وهران ، إذ تمكن بتحويل مركزه إلى معسكر من إقامة حصار عملي على القاعـــدة الاسبانية ، كما أشعر سكان الجهات المحيطة بوجود السلطة المركزية ، وهو أمر له تأثيره في دفع أولئك السكان الى الاقلاع عن كل تعاون مع الاسبان .

انضمت قوات بوشلاغم في بداية شهر اوت ١٧٠٧ وعملت القوتان على حفر خندق امام حصن سان فيليب الذي تمكن الجزائريون من الاستيلاء عليه صباح يوم التاسع من اوت . لكن الاسبان نظموا بالليل هجوماً تمكنوا به من استعادة الحصن ، فأعـــاد الجزائريون الكرة عليه وصمموا على استعادته ، واستمرت المعركة من أجل هذه الحصن الى منتصف شهر سبتمبر ، حيث تمكن المسلمون من تقويض كل الأبراج الدفاعية في هذا الحصن ، ومن قتل معظم المدافعين عنه ، بحيث لم يبق منهم إلا سبعة عشر شخصاً . وقد سقط حصن سان غريغوار في اول نوفمبر بعد معركة عنيفة . أما حصن سانتا كروز فقــد استسلمت حاميته دون دفاع — وتم جلاء الاسبان عن مدينة وهران في أوائل ١٧٠٨ والتجأوا إلى مرسى الكبير . فأقام وزان حسان الحصار على مرسى الكبير ، وسد عليه كل المنافذ حتى أصبح الاسبان مهددين بالمجاعة بعد أن انقطعت عنهم الامداد .

فاستسلم مرسى الكبير يوم الثالث من شهر أفريل ١٧٠٨ . عـــاد وزان حسان الى الجزائر العاصمة فوصلها يوم ٢٦ ماي ١٧٠٨ مستصحباً معه أكثر من الفي أسير من بينهم نحو مائتين من الضباط وفرسان مالطة .

وأثر هذا الانتصار نقل باي الغرب مركزه إلى وهران وعمت الأفراح الجزائر .

استغل الداي هذا الانتصار فبعث بالمفاتيح الذهبية الثلاثة لمدينة وهران الى الباب العالي ، وطلب بهذه المناسبة تعيين صهره باشا ، لكن الباب العـــالي لم يستجب لمطلبه ،

فسخط الداي وأبدى سخطه عندما رفض الاعتراف بالباشا الذي وجهته القسطنطينية ، وبعد أن زال مفعول الانتصار على الاسبان اصطدم الداي بنفس الصعوبات المالية التي اصطدم بها أسلافه ، وضاعف في مصاعبه ان باي قسنطينة فر في بداية سنة ١٧٠٩ مستصحباً معه كنوزه والضرائب التي جباها عام ١٧٠٩ .

هذه المصاعب ولدت حركة تمردية في ٢٢ مارس أودت بحياة الداي ، وحاول صهره وزان حسان أن ينجده ، فلقي نفس المصير ، وأعلن قاتلها ، واسمه دالي ابراهيم ، نفسه دايا ، لكنه لم يتمتع طويلاً بثمرة جريمته اذ قتله أحد الجنود في ١٤ أوت من نفس العام .

الباب العاشر

تأكد اتجاه الاستقلال عن القسطنطينية

- محمد بن حسن .
- كرد عبدي .
- الاسبان يعودون الى احتـــلال وهران ومرسى الكبير .
- العوامل التي حالت دون تطور نظام الدايات.
- ثورة الكراغلة .
- سياسة محمد بكير باشا .
- علي ملمولي .

الاستقلال عن القسطنطينية

بعد دالي ابراهيم بويع علي شاوش الذي اشتهر بالحزم والنزاهة والرزانة ، وقد وجد عندما تولى داياً وضعية مضطربة ، فالتمردات والثورات التي كانت تتوالى منذ حوالي عشرين عاماً ، تسببت في تكوين أوكار عديدة للعصابات التي وجدت مجالاً كبيراً للنهب والسلب ، فعم الشعور بانعدام الأمن وتعززت مشاعر السخط والنقمـــة بعوامل جديدة .

واجه علي باشا شاوش هذه الوضعية بحزم فشدد الخناق على قطاع الطرق وبذل كل ما في وسعه لإعادة الأمن إلى النفوس ، ويقال إن عدد الرؤوس التي قطعها خلال الأشهر الأولى من ولايته بلغت سبعمائة رأس ، وقد تمكن بهذا الحزم وهذه الشدة من التوطيد لحكمه ومن توجيه دفة الادارة في ظل استقرار نسبي .

والى علي باشا شاوش يرجع الفضل في رفع اللبس الذي كان قائماً بين منصب الداي ومنصب الباشوية : فعلى الرغم من أن الداي هو الحاكم الحقيقي ، فقد ظلت القسطنطينية تعتبره خاضعاً للباشا الذي كانت تعينه هي ، وعلى الرغم من أن هذا التعيين كان شكلياً ومن أن الجزائريين رفضوا الباشا الذي عينته القسطنطينية في مناسبات عديدة ، فقــد ظل منصب الباشوية مثاراً لفتن واضطرابات :

ذلك أن الباشا وإن لم يعد يتمتع في عهد الدايات بما كان يتمتع به قبل ذلك من نفوذ وسلطان ، فان الذي يحتل هذا المنصب يميل إلى الأمل في عودة العهد الماضي ، ويحدث تبعاً لذلك ، أن يستغله بعض المتمردين على السلطة المركزية ويستعملوا اسمه وعنوانـــه ومنصبه في تحطيم سلطة الداي .

لذلك لم يتردد علي شاوش عندما أرسلت القسطنطينية في عام ١٧١١ باشا عينته هي

على أمل أن يعيـــد النفوذ الفعلي للسلطان العثماني على الجزائر – لم يتردد علي شاوش في تهديد الباشا مبعوث القسطنطينية بالموت ان هو تجرأ على أن يطأ ارض الجزائر ،فانسحب الباشا وقذفت به العاصفة إلى شاطىء القل حيث مات .

ووجه علي شاوش بعد ذلك مذكرة إلى أحمد الثالث ، بسط فيها العواقب الوخيمة المترتبة على تعدد السلط وشرح الاسباب والعوامل التي تدعو إلى ضم الباشويـــة إلى خطة الداي .

فلم يسع السلطان العثماني إلا أن يقبل وأصبح الداي هو الباشا ، وأصبحت الجزائر تتمتع باستقــلال حقيقي وتأكد الطابع الشكلي للعلاقـــة التي تربطها بالخلافة العثمانية .

* * *

بعد تحقيق هذا المطلب من مطالب الطبقة الحاكمة في الجزائر وجدت هــذه نفسها امام نفس المشا كل القديمة فقد عرض الهولنديون والانكليز والاسبان والصقليون على علي باشا شاوش عقد السلم ، وقدموا له هدايا ضخمة ليقبل مهادنتهم . ثم تبعتهم الدانمارك والسويد . لكن علي باشا شاوش كان يدرك ان القرصنة تمثل المورد الاساسي للدولة ، وانه بدون قرصنة لا يستطيع ان يدفع مرتبات الجيش النظامي ، وان ابرام السلم مع تلك الدول كلها يعني نهاية له شبيهة بنهاية الدايات الذين سبقوه لذلك لم يبرم السلم إلا مع هولندا لمدة لم تستمر طويلاً.

وبالرغم من ذلك فقد حاول جمع من الجنود الاتراك قتله . ففي يوم ٢٣ جوان١٧١٣ ارتموا عليه لكنه كان على حذر فلم يصب الا بجروح خفيفة وهرب الجنـــود الى منزل قريب فحوصروا هناك ودافعوا عن انفسهم دفاعـــاً مستميتاً الى ان اضطر متتبعوهم الى تفجير جدران المنزل ، وتم شنق ثلاثين متآمراً بعد ذلك .

وفي يوم ٣فيفري ١٧١٦ (صفر ١١٨٢ هـ) هز مدينة الجزائر زلزال عنيف فتحطمت عدة منازل واشتعلت النيران وكثر السراق الذين يستغلون مثــل هذه الظروف للنهب والسلب ، فخرج الداي بنفسه على رأس شواشه يسير وسط الشوارع وبين انقاض المنازل

المهدمة يتتبع السراق ويعدم في الحين كل من امسك به في حالة تلبس بالجريمة .

وقد حاول جندي تركي هرم اثارة الجيش على الداي ، فزعم لهم انه شهد زلزالا من نفس النوع بالجزائر منذ اربعين سنة وأن الزلزال لم يكف إلا عند مقتل الداي .

وحوصر الداي بالفعل ، لكنه تمكن من فك الحصار والتغلب على المتمردين فعاقبهم بصرامته المعهودة .

وقد استمرت الهزات الأرضية الى شهر جوان ، ثم عادت الهزات الأرضية في عام ١٧١٧ واستمرت تسعة أشهر .

تسببت هذه السلسلة من الزلازل في خسائر كبيرة للدولة اضطرت معها طائفة الرياس الى مضاعفة هجوماتها على شواطىء اروبا ، وكسب الرياس مغانم كبيرة وانعدم الامن بالشواطىء الاروبية الى درجة ارتفعت معها نسبة التأمين البحري من واحد ونصف في المائة الى خمس واربعين في المائة ، وقد توفي علي باشا شاوش في بداية سنة ١٧١٨ بسبب حمى عنيفة ، وكان قبل ذلك ببضعة اشهر قد نجا من محاولة اغتيال جديدة .

محمد بن حسن :

عندما تولى محمد بن حسن خلفاً لعلي باشا شاوش وجد وضعية اقتصادية مضعضعة .

فالمصاعب التي خلفها الزلزال تضاعفت بفعل قحط اصاب المحصول الزراعي ودام ستة سنوات متوالية ، وبفعل هجوم الجراد فانتشرت مجاعة رهيبة ، ورفض سكان الارياف دفع الضرائب ، بل وهاجموا في بعض الجهات برج الحامية العسكرية كما حدث في برج منايل ، وعادت من جديد الاضطرابات التي كان قضى عليها علي شاوش .

وفي عهد محمد حسن باشا حاولت هولندا الحصول على معاهدة سلم مع الجزائر ، وتوسطت لهذا الغرض بالقسطنطينية التي اوفدت قابجي صحبة السفير الهولندي الى الجزائر فقال له الداي انه لا يرى مانعاً من عقد السلم مع كامل اوربا ان تفضل السلطان والتزم

بدفع مرتبات الجيش النظامي ، وبشراء الاسرى الجزائريين من القراصنة الاروبيين . فشعر مبعوث الخليفة العثماني بالاهانة ، وقال للداي ، بان هذا الموقف سيجر منع الداي من تجنيد الجنود من آسيا الصغرى ... فاجابه الداي ملوحاً باستعداده للاعتماد على الجزائريين فقط قائلاً ما معناه : « يدخل من باب عزون يومياً من الجنود الشجعان ما لا تستطيع تجنيده من ازمير خلال عام كامل » .

وهذه اول مرة يصدر فيها تصريح رسمي من الداي يظهر استعداد السلطة المركزية للاعتماد الكلي على ابناء الوطن الجزائري .

والواقع ان هذا التصريح لم يكن مجرد تهديد لفظي ، وكله ينم عن تطور حقيقي حدث في صفوف الطبقة العسكرية الحاكمة بالجزائر ، فمع مرور الزمن شعرت هذه الطبقة انها مرتبطة بالارض الجزائرية أكثر من ارتباطها بأي بلد آخر ، وأدرك قسم من سكان الجزائر ان الجزائر هي التي تستفيد في الدرجة الاولى من مغانم الاتراك وممتلكاتهم ، لا القسطنطينية .

ان هذا التصريح يسجل اذن بداية الوعي بهذا التطور من طرف المسؤولين الاتراك في الجزائر ، وستتأكد من هذه الحقيقة التي ستبرز لنا من خلال بعض الاحداث الآتية :

* * *

تخوف محمد بن حسن من ردود الفعل الاروبية ضد الجزائر فعمل على تعزيز الحصون الدفاعية في ميناء الجزائر وبنى برج الحراش .

ولم يتردد محمد بن حسن في معاقبة بعض الرياس الذين استغلوا وضعيتهم في ارتكاب أعمال نهب ، مما أثار عليه طائفة الرياس التي تآمرت عليه وقتلته . ففي يوم ١٨ مارس ١٧٢٤ م . (جمادى الثانية ١١٣٦ هـ) بينما كان الداي عائداً من مراقبة بعض التحصينات الجديدة ، اذ انطلقت رصاصة من اعلى ثكنة البحرية فأصابته بين الكتفين فسقط لحينه. فنظم الرياس آنذاك هجوماً قتلوا أثناءه الشاوش ، والخوجة ، وبعض الحراس ، ثم

انطلقوا نحو الجنينة ، لكن الخزندار ، بالرغم من اصابته بضربة سيف ، كان قد سبقهم الى هناك ، واغلق في وجوههم الباب ، واعلن دايا كرد عبدي آغا الصبايحية .

ولذلك وجد المتآمرون الرصاص في استقبالهم عندما هجموا على الجنينة ، ومن الغد القي القبض على من نجا منهم وأعدموا .

وقد اكد كرد عبدي استقلال سياسة الجزائر عن سياسة القسطنطينية ، ثلاث مناسبات علنية :

الاولى : بعد توليته ببضعة أشهر ، عندما أرسل الخليفة العثماني مبعوثين له الى الجزائر للتدخل لدى الداي كي يبرم السلم مع اسبانيا . وكان المبعوثان يظنان انهما سيلقيان كل حظوة لدى الداي بسبب انهما كانا يحملان معهما له قفطان الباشوية .

استقبل الداي مبعوثي السلطان بكل حفاوة في مجلسه العمومي الذي قرىء فيه نص الامر العلي وسط سكوت مطبق ، وراح القارىء يتلو القاب الخليفة العثماني الى ان وصل الى نعته بـ « سلطان الجزائر » . آنذاك أوقفه الداي كرد عبدي ، وقال صارخاً : كيف يطلق على نفسه لقب سلطان الجزائر . ومن أكون انا اذن ؟ وانقطع المجلس وسط هرج كبير .

ومن الغد عاد المبعوثان الى مجلس الداي وعرضا عليه مطالب الباب العالي دون ذكر القابه ، ومن بين هذه المطالب عقد السلم مع اسبانيا ، فرفض الداي .

وعندما اراد المبعوثان تذكيره بالاحترام الواجب نحو السلطان العثماني قال لهما كرد عبدي ما معناه : « من أين يريدنا أن نعيش ؟ ثم لماذا هذا التدخل في شؤوننا ؟ ألم يتركنا وحدنا عندما هوجمنا ثلاث مرات ولم ينجدنا في واحدة منها ؟ » .

ورجع المبعوثان دون أن يتحصلا على اية نتيجة .

الثانية : في السنة الموالية، عام ١٧٢٥ م . وجه الباب العالي الى الجزائر مبعوثاً مكلفاً بأن يطالب برأس شركس محمد ، باي القاهرة السابق ، الذي أراد الاستقلال بمصر ، وفر بعد هزيمته أمام الأتراك إلى الجزائر . وكلف المبعوث في نفس الوقت بتجديد عروض ابرام السلم مع اسبانيا .

لكن الداي لم يكتف برفض تسليم شركس محمد ، بل قال للمبعوث أنه لا يريد أن يسمع الحديث عن السلم مع اسبانيا إلا إذا استرجع محمد شركس سلطانه واعتباره .

الثالثة : في عام ١٧٢٩ (أواخر عام ١١٤١ هـ .) أرادت القسطنطينية إخضاع سلطة الداي لنفوذها ، فوجهت مبعوثاً خاصاً وأضفت عليه لقب الباشوية ، ليكون ممثل الخليفة الدائم بالجزائر ، وكان هذا الباشا مصحوباً بقايجي وبخمس وأربعين شخصية وزعت عليها المهام الاساسية في الدولة .

وكانت محاولة واضحة صريحة من القسطنطينية لبسط سلطتها المباشرة على الجزائر . وصلت الباخرة المقلة للباشا والقايجي والشخصيات المصاحبة لهما ، إلى الجزائر في الثلاثين من جوان ، فتلقت من الداي أمراً بأن ترسو في رأس ماتيفو ، وأن لا يحاول ركابها النزول إلى الأرض ، ان كانوا يرغبون في النجاة . وفي نفس الوقت استدعى كرد عبدي الديوان للاجتماع ، فقرر هذا الأخير عدم استقبال مبعوثي القسطنطينية فأبلغ القرار إلى مبعوث الباب العالي وطلب منه الانسحاب في الحين .

واضطرت الباخرة إلى الاقلاع والانسحاب رغم رداءة الطقس وإشتداد العاصفة التي قذفت بها بعد حين إلى ميناء الجزائر حيث اجبرت على الوقوف هناك فوجهت اليها التهديدات مرة اخرى باطلاق النار ، لكن الداي بعد ان رأى استسلام الاتراك منحهم مركباً أقوى حملهم إلى القسطنطينية .

الاسبان يحتلون وهران ومرسى الكبير من جديد .

أظهر الداي ، في هذه المناسبات والمواقف الثلاث عزم السلطة المركزية بالجزائر على تأكيد الاستقلال الفعلي الذي يرجع الى ما قبل هذا العهد .

ولئن اكد كرد عبدي في هذه المواقف ما اشتهر به من قوة الشخصية ، فقد حدثت في عهده حادثة حطمت معنوياته وقضت عليه .

ذلك ان اسبانيا كانت قد قضت ثلاث سنوات في تجهيز حملة عسكرية لاسترجاع مرسى الكبير ووهران ؛ فانطلقت من ميناء اليكانتي نحو وهران في ١٥ جوان ١٧٣٢ (اواخر ١١٤٤ هـ) ست عشرة باخرة حربية ، وخمسمائة مركب بحري تقل ثمانية وعشرين الف جندي . لكن فساد الطقس حال دون وصول المراكب الى وهران قبل ٢٩ جوان .

إلا أن باي الغرب ، بوشلاغم ، لم يكن يوجد تحت تصرفه إلا حوالي الثلاثة آلاف من

الجنود النظاميين ، ومع ذلك فقد صمم على المقاومة ، وابتدأت المعركة حامية صباح يوم ٣٠ جوان (صفر ١١٤٥ ﻫ) . وبعد أربع وعشرين ساعة من قتال دامٍ عنيف تمكن الاسبان من احتلال وهران ومرسى الكبير .

إلا أن بوشلاغم أرسل إلى الداي يطلب المدد ، فأمده بقوة عسكرية على رأسها ابنه، ضمها إلى قواته المحاصرة لوهران . وقد استشهد أحد أبناء بوشلاغم أثناء إحدى المعارك التي نشبت خلال الحصار ، وكان ذلك يوم الرابع من شهر نوفمبر ١٧٣٢ (جمادي الثانية ١١٤٥ ﻫ) .

وقد انتقم بوشلاغم لمقتل ابنه بقتله للمركيز دي سانتا كروز وعدد كبير من الاسبان يوم ٢٩ نوفمبر . وقد استمر الحصار على وهران عدة سنوات إلى أن استرجعها الجزائريون في ١٧٩١ م.

أثر احتلال الاسبان من جديد لوهران ومرسى الكبير ، تأثيراً كبيراً على الداي كرد عبدي وبلغ من حزنه أن امتنع عن الأكل والشرب إلى أن مات يوم الثالث من سبتمبر ١٧٣٣ (ربيع الثاني ١١٤٦ ﻫ) على سن تناهز الثمانية والثمانين . وخلفه الخزنادار ، صهره ، دون أن يلقى أية مقاومة . وهناك من المؤرخين من يقول أن سبب حزن كرد عبدي يرجع إلى كونه اعتبر نفسه قد قصر في توجيه النجدات اللازمة في الوقت اللازم إلى بوشلاغم .

العوامل التي حالت دون تطور نظام الدايات :

بعد تحقيق الاستقلال الفعلي عن القسطنطينية ، — فالداي بالرغم من أنه يتحصل على لقب الباشا من القسطنطينية فان الوجاق هو الذي ينتخبه داياً يضاف إلى ذلك ان التسمية أصبحت اجراء شكلياً — بعد ذلك كان من الطبيعي أن يتطور الحكم المركزي بالجزائر نحو الاستقرار ، وكان من الطبيعي ان يتجه تفكير الدايات إلى قرار نظام ملكي وراثي .

لكن شيئاً من ذلك لم يتم إلى أن جاء الاحتلال الفرنسي . فما الذي حال دون تطور هذا الخط الطبيعي ؟

يرجع ذلك إلى عدة عوامل :

العامل الأول – هو ان الداي كان يستمد قوته ونفوذه أساساً من الوجاق ومن الرياس . وقد قام الدليل في الاتجاه الاستقلالي عن القسطنطينية، على ان الدايات فكروا فعلاً في إقرار نظام ثابت مستقل . لكن قيام هذا الحكم وتطوره إلى المركزية لا يمكن أن يتم إلا بواسطة القضاء على سلطة ونفوذ الوجاق والرياس أو على الأقل الحد منهما . ذلك أن الاتجاه إلى الحد من الامتيازات الضخمة التي كان يتمتع بها أفراد الطبقة العسكرية الحاكمة في الجزائر يمثل الشرط الأساسي للقضاء على تلك التدخلات العديدة التي تولد الاضطراب وتعمم الفوضى ، وتجعل عموم الناس لا يشعرون بالاحترام نحو الدولة .

لكن محاولة الحد من سلطة أفراد الطبقة العسكرية جعل أفراد هذه الطبقة يزهدون في تحصين دولة الدايات وتدعيمها بما فيه الكفاية ، لأنهم كانوا يعرفون ان ذلك يعني نهاية امتيازاتهم . وهذا ما يفسر كثرة الاغتيالات للدايات .

العامل الثاني : شبيه بالاول بالرغم من انه يختلف عنه . فما قيل في افراد الطبقة العسكرية بالعاصمة ، يقال في غيرهم من المسؤولين الذين يقومون بدور الوسطاء بين الدولة والشعب . فشعور اولئك الوسطاء باتجاه الدولة نحو تدعيم وتقوية الحكم المركزي ، وادراكهم ان ذلك لا يمكن الا ان يكون على حسابهم ، يجعلهم لا يبذلون أي جهد لتعزيز الروابط والعلاقات بين الحكم المركزي وبين السكان ، وهو موقف من شأنه أن يؤدي الى تفكيك سلطة الحكم المركزي ونفوذه على السكان .

وقد كان من الممكن التطور بالحكم المركزي نحو القوة والاستقرار ، لو ان هذا الحكم وجد بديلاً عن أفراد الطبقة العسكرية الحاكمة والمسؤولين الوسطاء ، الذين كانوا يشكلون اقطاعاً ضخماً . لكن هذا البديل لم يوجد . لماذا ؟ الجواب عن ذلك نجده في :

العامل الثالث – الذي يتفرع في الواقع الى نوعين :

أ – كان من الممكن ان يوجد الدليل في طبقة موظفي الدولة التي كان يمكن أن تقوم في محاربة الاقطاع بنفس الدور الذي قامت به الطبقة البورجوازية باروبا في القضاء على

اقطاع القرون الوسطى وذيوله .

لكن قيام طبقة الموظفين وتطورها الى قوة اجتماعية منسجمة يمكن الاعتماد عليها في محاربة العقلية الاقطاعية ، يتوقف على وجود وضع اقتصادي وإداري منسجم بحيث يجعل افراد هذه الطبقة يعون قوتهم . لكن هذا الشرط كان مفقوداً : لان الموظفين لم يكونوا يتلقون اجوراً قارة لقاء خدماتهم ، بل كانوا يتلقون مقابل خدمتهم امتيازات ، وهو امر يقضي على وجود وضعية منسجمة ويحول دون نمو شعور مشترك ونظرة مشتركة الى المشاكل ، بل ان دفع اجور الموظفين في شكل امتيازات يعزز العقلية الاقطاعية ، ويدفع الموظف الى استغلال الامتيازات التي يتحصل عليها في بناء ثروة شخصية لاتتناسب مع وضعيته . وهكذا نجد ان طبقة الموظفين التي كان يمكن ان تلعب دوراً اجتماعياً تقدمياً بالقضاء على عقلية الاقطاع ، كانت بالعكس من ذلك عنصراً من العناصر التي غذت هذه العقلية .

ب – كان من الممكن ان يوجد البديل في الطبقة التي تتكون على طول الزمن من أبناء وأحفاد الطبقة العسكرية الحاكمة ، الذين سيصبحون مع مرور الوقت قوة اجتماعية وسياسية هامة . لكن افراد الوجاق لم يكونوا يجندون من الجزائر ، بل كانوا يجندون من الخارج ، وكانوا تبعاً لذلك يتغيرون بين جيل وآخر . أما أبناؤهم من النساء الجزائريات ، وهم الكراغلة ، فانهم لم يكونوا يرثون عنهم سلطتهم وامتيازاتهم ، وكان الارث قاصراً على الثروة المادية .

العامل الرابع – التنظيم الاداري الذي أقره نظام الدايات اقتصر على تجزئة الارض دون ان يتناول بالتنظيم البيئة الاجتماعية للسكان : فالهياكل الادارية التي ضبطتها السلطة التركية بالجزائر دخلت على الاجهزة الاجتماعية التي وحدتها دون ان تدخل عليها ادنى تغيير . فقد ظل النظام القبلي ونظام العروشية قائماً كما لم تتغير وضعية الارستقراطية التجارية التي كانت تمسك بزمام النشاط التجاري في المدن الخ ...

* * *

تلك هي العوامل التي حالت دون تطور نظام الدايات الى حكم مركزي قوي :

وذلك هو السبب في استمرار الاضطرابات الداخلية بالجزائر من جهة ، وفي عدم

وجود خط سياسي واضح للسياسة الخارجية للجزائر من جهة أخرى .

والواقع ان اضطراب السياسة الخارجية كان مرتبطاً أشد الارتباط بالبحث عن الموارد الاقتصادية ، فانخفاض الموارد المتأتية من القرصنة جعل الداي يبحث باستمرار عن موارد اخرى ، وهذا البحث عن الموارد الاقتصادية هو الذي كان يوجه سياسته الخارجية التي كانت تتأرجح يميناً وشمالاً حسب الظروف .

وقد تأكد هذا المعنى في عهد الداي ابراهيم باشا الذي خلف كرد عبدي ، وظهر ذلك في عدة مناسبات :

عرض عليه الانكليز توجيه اسطولهم لحصار القاعدة الاسبانية بوهران بحراً بينما يتولى الجزائريون الزحف على الاسبان براً . وطلب الانكليز مقابل هذه الخدمة اقامة مركز تجاري في مرسى الكبير وقد قبل الداى العرض لكن ضباط الجيش التركي عارضوه في ذلك لان القنصل الفرنسي أقنعهم بأن الانكليز سيكونون بمركزهم التجاري أخطر على الجزائر من الاسبان بقاعدتهم الحربية .

– في الوقت الذي أدى فيه انتشار الاضطرابات الداخلية الى انتشار المجاعة لان اضطرابات منعت تنقل كميات القموح داخل الجزائر – قطع باي تونس الضريبة التي كان يدفعها للداي ؛ ذلك ان باي تونس ، حسن بن علي ، كان قد تعهد للداي بدفع مبلغ مالي معين مقابل احتفاظه بعلي ابن اخيه في الاسر ، وكان قد لجأ الى الجزائر بعد فشله في الثورة على عمه .

وسواء أكان باي تونس لم يدفع المبلغ لانه لم يكن في متناوله ، أو قرر قطع دفعه لأنه اعتبر انه لم يعد هناك ما يخيفه من طرف الداي ، فقد كان ذلك سبباً كافياً عند الداي ليعلن الحرب على باي تونس .

واستغل علي الاسير هذه الوضعية ووعد الداي بكل ما يريد ، وطلب منه السماح له بتجهيز جيش ضد عمه الباي . فجهز ابراهيم باشا له جيشاً يضم سبعة آلاف تركي بقيادة ابراهيم ابن اخيه .

وسمع باي تونس بالنبأ فعرض على الداي مبلغ خمسين الف سكة مقابل الحصول على

السلم ، وأرسل في نفس الوقت يستنجد بالقسطنطينية ان تتدخل في الأمر للحيلولة دون الحرب . فوجه الباب العالي قايجي يحمل أمراً بتحريم كل حرب مع تونس . لكن القايجي وصل بعد انطلاق الحملة ، يضاف الى ذلك ان ابراهيم باشا كان ناقماً على الباب العالي اذ وعده بارسال نجدة لتطهير وهران من الاسبان، ولم ينفذ وعده لانه كان هو نفسه مشتغلاً بالحرب ضد روسيا .

إلا أن الوضعية الدولية للجزائر كانت في ذلك الظرف ضعيفة بحيث لا تسمح للداي أن يعصي علانية ، أمر القسطنطينية إذن فكيف العمل ؟

اهتدى الداي إلى حيلة تتلخص في التظاهر بامتثال الداي ، ووجه مع القايجي رسالة إلى القسطنطينية يفهم منها المسؤولون هناك أن القايجي قد حرف الأمر الذي حمله من الباب العالي . وفعلاً فلم يكد يصل القايجي إلى القسطنطينية حتى اتهم بالخيانة ونفذ فيه حكم الاعدام أن حَرَّفَ امر الخليفة .

التقى الجيشان التونسي والجزائري عند الحدود ، فانهزم حسن باي ، وفر بكنوزه صحبة ابنيه . وواصل الجيش التركي القادم من الجزائر سيره الى تونس العاصمة حتى بلغها في أوائل سبتمبر عام ١٧٣٥ م (ربيع الثاني ١١٤٨ هـ) ودخلها ، واعلن علي بايا واعترف بالتبعية للجزائر ، والتزم بدفع ضريبة سنوية تقدر بمائتي الف اوقية ، وبكمية من القمح لتمويل الجيش التركي . لكن التونسيين الذين اشتدت عليهم وطأة الضرائب ، ثاروا من كل جهة ، وعجز الباي الجديد عن الوفاء بالتزاماته ، وانتهت الحملة التي كان يعلق عليها الداي آمالاً كبيرة ، بفشل ذريع .

إذن فقد استمر البؤس يسيطر على الجزائر ، ولم يتحصل الداي على المبالغ اللازمة لتموين خزينة البايلك، في الوقت الذى كان أشد ما يكون احتياجاً لمواجهة الحملة الحربية التي كانت اسبانيا تعدها ضد الجزائر. ويقال بان تونس ساهمت في دفع نفقات التحصينات التي قام بها ابراهيم باشا وفي اعادة بناء قنطرة الحراس التي كان بناها الحاج احمد والتي حطمتها حملة مائية عنيفة ، كما يقال ان باي تونس هو الذي وجه له المهندس الذي اشرف على الاشغال – في هذا الظرف فكر الداي في مورد غريب لتمويل خزينته ، امر بشد الاسرى الاسبان في الاغلال والسلاسل وتشغيلهم في الاشغال الشاقة حتى يضطر ذووهم

الى دفع مبالغ مالية ضخمة لافتدائهم . وفعلاً فقد تحصل بهذه الفعلة على مبلغ مالي قدره مائتا الف اشبيلية . وقد احتذت هولندا والسويد وبريطانيا حذو اسبانيا في افتداء الاسرى ، فعاد الازدهار الى الجزائر من جديد ، وتمكن الداي من انجاد باي تونس الذي كان مهدداً بحصار عمه ، وقد مكنته هذه النجدة من دفع ما تأخر من الديوان للجزائر .

لكن سكان العاصمة لم ينعموا كثيراً بهذا الازدهار . ففي شهر جوان ١٧٤٠ (١١٥٣ هـ) عم العاصمة وباء جاءت به باخرة قادمة من الاسكندرية ، ذهب ضحيته في الاسبوع الاول الف نسمة . وقد كان عدد الوفيات يومياً يتراوح ما بين المائتين والاربعمائة خلال الشهر الاول ، ثم خفت وطأته بعد ذلك ، لكنه استمر ثلاث سنوات وامتد من الجزائر الى تونس حيث تسبب في ضحايا عديدين . في هذه الاثناء توسط ملك صقلية بالباب العالي في عقد السلم مع الجزائر ، الا ان الداي اشترط لابرام السلم دفع مبلغ باهظ بحيث فضل ملك صقلية استمرار حالة الحرب .

* * *

وفي هذه الاثناء ايضاً ، في صيف ١٧٤١ م) (١١٥٤ هـ) حدث حادث بين الجزائر وفرنسا ملخصه ان باخرتين جزائريتين نزلتا بمدينة تولون الفرنسية ومكثتا ما يقرب من اسبوعين . وعند خروجها من الميناء الفرنسي هجمت بواخر اسبانية فاستولت على الباخرة التي كان يقودها محمد رايس ، بينما تمكنت الاخرى ، بقيادة سليمان رايس من التوجه والوصول الى العاصمة حيث اعلم الداي بان الفرنسيين « باعوا » الباخرتين الجزائريتين للاسبان ، الذين تمكنوا من مفاجأتها ، كما يدل على ذلك هجوم البواخر الاسبانية فور الخروج من الميناء الفرنسي . وبالاضافة الى ذلك تعتبر الجزائر ان فرنسا مسؤولة عن الحادث لانه جرى في مياهها الاقليمية ، والملاحظ ان المعاهدة المبرمة بين الجزائر وفرنسا والتي كانت نافذة وسارية المفعول حينذاك ، تنص على تعهد فرنسا بحماية البواخر الجزائرية الموجودة في عرض المياه الاقليمية الفرنسية الى ثلاثين ميلاً .

بل ان الفرنسيين لم يكتفوا باعلام الاسبان بوجود الباخرتين الجزائريتين في المياه الاقليمية : فلئن كانت كتب التاريخ الفرنسية تزعم ان كلا من محمد رايس وسليمان رايس

لقي معاملة طيبة اثناء وجوده في ميناء « تولون » فان الحقيقـة خلاف ذلك ، والحقيقة تصورها رسالة تمكن من ارسالها محمد رايس من اسره في اسبانيا وهي حقيقة اكدتها رواية ركاب الباخرة الثانية التي تمكنت من الفرار . تقول رسالة محمد رايس ، ان الفرنسيين قد القوا القبض عليهم ، وعاملوهم معاملة شائنة ، ثم اجبروهم على مغادرة الميناء الفرنسي في الوقت الذي حدده الفرنسيون حتى يتمكن الاسبان من اسرهم .

واذ محصنا ما تشتمل عليه هذه الرسالة ، نجد انه غير مستبعد ، لان الفرنسيين كانوا يخشون ، ان هم اطلقوا سراح الرياس الجزائريين ، بعد ان اساءوا معاملتهم ، ان يدفع ذلك الداي لاعلان الحرب على فرنسا . لذلـــك دبروا خطة اسرهم مع الاسبان حتى لا يبقى هناك اثر لما جرى لهم في ميناء تولون ، وحتى تتحمل اسبانيا وحدها تبعيـــة الحادث .

وقد قرئت هذه الرسالة على الجمهور في العاصمة ، واثارت عاصفة من السخط ، ودفعت الداي الى سجن الفرنسيين الموجودين بالجزائر ، بما فيهم القنصل ، وفي نفس الوقت وجه الداي الى باي قسنطينة يطلب منه وضع المراكز التجارية الفرنسية في الشرق الجزائري تحت الحجز ، واستغلت بريطانيا هذه الفرصة فطلبت على لسان قنصلها « ستانيفور » ان يمكن بريطانيا من هذه المراكز ، لكن الداي رفض .

توترت العلائق بين الجزائر وفرنسا من جراء هذا الحادث ، وطلب الداي من فرنسا التعويض والاعتذار واعادة الباخرة التي اسرها الإسبان ، فوجهت فرنسا في الحين نائبا استرضى الديوان ، وعادت العلاقة بين الجزائر وفرنسا الى مجراها الطبيعي .

وفي عهد ابراهيم باشا ، توفي باي الغرب بوشلاغم (عام ١٧٣٦ م. ١١٤٨ ﻫ) . كما توفي باي قسنطينة بوكمية الذي دامت مدة ولايته اثنين وثلاثين عاماً .

وفي عام ١٧٤٥ (١١٥٨ ﻫ) ، اصيب الداي ابراهيم باشا بحمى الأمعاء ، وشعر بدنو أجله فتنازل لحفيده ابراهيم كوجوك .

ثورة الكراغلة :

كان يبلغ من العمر خمساً وأربعين عاماً عندما تقلد خطة الداي . وقد بدأ أعماله

بشن حملة ضد باي تونس الذي توقف عن دفع ما كان التزم به للجزائر ، والذي هاجم باي طرابلس حليف داي الجزائر وحاصره إلى أن اجبره على الانتحار . توجه الجيش التركي من الجزائر يوم ٦ أفريل ١٧٤٦ م (ربيع الأول ١١٥٩ هـ) وتعزز في طريقه إلى تونس بوحدات عسكرية من قسنطينة ، إلى أن وصل مدينة الكاف؛ وهناك وقعت مناوشات لم تسفر عن انتصار أحد الجانبين ، واستمرت إلى خريف ١٧٤٧ ، دون أن يحصل أحد الطرفين على نتيجة كبيرة ، فتم حينذاك عقد السلم لان باي تونس اعترف من جديد بتبعيته للداي ، من جهة ، ولان الداي كان من جهة اخرى في أشد الحاجة الى قواته ليرسلها إلى وهران : ذلك ان الكراغلة ثاروا على ظلم الاتراك وأرادوا أن يبعثوا من جديد ، لفائدتهم ، مملكة تلمسان . التي ثار بها القائد رجم البجاوي الذي طرد الحامية العسكرية منها واستقل بها ، وقد وجه الداي ضدهم قوة عسكرية انتصرت عليهم .

وقد أثارت حركة الكراغلة في وهران مخاوف الداي الذي تيقن أن ثورة الكراغلة في وهران كانت على اتصال بحركة مماثلة كان كراغلة الجزائر يستعدون للقيام بها وقلب نظام الحكم ، فصمم على إبادة الكراغلة الموجودين بالعاصمة ، لكن مات فجأة قبل أن ينفذ خطته في الثالث من فبراير ١٧٤٨ ، (صفر ١١٦٢ هـ) مسموماً على ما يبدو .

إن هذه الحركة التي قام بها الكراغلة في وهران ، والحركة الأخرى التي تيقن ابراهيم كوجوك من أن الكراغلة كانوا يستعدون لتنظيمها بالجزائر ، وانهم كانوا على اتصال باخوانهم في وهران ، تؤكد ما كنا لاحظناه في مطلع هذا الفصل مما يتعلق بأزمة تكوين الدولة الجزائرية ، وحركة تلمسان تؤكد أن طبقة الكراغلة ، كان من الممكن ، لو فتح لها المجال مبكراً أن تلعب نفس الدور الذي لعبته البورجوازية باروبا في القضاء على الاقطاع. لكن هذه الطبقة ليس فقط لم يتح لها المجال في الوقت اللازم لتسليم المناصب والمسؤوليات الإدارية والحكومية ، بل لقد تعرضت لضغط كبير دفعها إلى ثورة ، كان فشلها عاملاً آخر من عوامل ضعفها .

سياسة محمد بكير باشا :

بعد موت ابراهيم كوجوك تولى خطة الداي محمد بكير باشا،الذي كان خوجة الخيل.

وقد اشتهر بالذكاء ، وبهواية الأدب والعلم ، فقد كان هو نفسه أديباً . وقد اهتم قبل كل شيء بإعادة الأمن الى الداخل والقضاء على كل الاضطرابات ، وتطهير البلاد من قطاع الطرق الذين يكثرون في أزمة الفوضى والاضطراب . وقد شهد القنصل الفرنسي لهذا الداي بالحصانة في تدبير شؤون الجزائر فكتب يقول عنه :

« لم تعرف مدينة الجزائر مثل هذا الاستقرار قبلاً . فبوليسها الآن منظم مثل بوليس مدن اوربا . وهو ما لم يحدث في عهد أسلافه ، وعلى الاخص في عهد الداي الاخير » .

وقد عرف الداي محمد بكير كيف يمهد السلام مع الدول الاوربية في الخارج ، فيبدو من الاتفاقات التي أبرمها مع الدول الاوربية انه ضبط خطة ماهرة قرأت حساباً للحاضر والمستقبل ، ويبدو انه فهم ان نشاط الرياس الجزائريين ضد البواخر الاوربية سيؤدي حتماً مع طول الزمن ، الى أن تتوحد القوى الاوربية ضد الجزائر وتحطم قوتها العسكرية واسطولها البحري . وبناء على ذلك فلا بد من تعزيز الدفاع الجزائري. لكن كيف يمكن تعزيز الدفاع الجزائري ؟ ان الخزينة الجزائرية لا تستطيع ذلك بمفردها . اذن فليضرب عصفورين بحجر واحد، وليبرم السلم مع الدول الاوربية الصغيرة التي لا تنتظر من الجزائر الا اشارة بسيطة لتعرض عليها ما تريد مقابل توقف حملات الرياس الجزائريين .. ولكن ما تطلبه الجزائر من هذه الدول الصغيرة عبارة عن عتاد حربي .

هذه هي الخطة التي نستشفها من وراء استقراء المواقف التي اتخذها الداي فيما يتعلق بالسياسة الخارجية . فقد وجهت الدنمارك للجزائر أربعين مدفعاً وعشرين الف قذيفة وستة آلاف قنبلة مدفعية وكمية هامة من مواد البناء .

وبعثت هولندا الى الجزائر بكميات هامة من البارود والرصاص والقذائف .

ووجه السويد الزفت ، والحبال والشراعات اللازمة لصنع البواخر ، وخمسمائة قنطار من البارود ، وعشرين الف قذيفة . وقد وقع ما توقعه الداي ، فقد قام البابا بمساع لدى بعض الدول الاروبية لشن حرب صليبية ضد الجزائر ، وسارعت مالطا والبندقية ، وجنوة وصقلية ببذل وعد المساهمة في هذه الحملة . وتقرر ان تنطلق الحملة الصليبية من

القاعدة الاسبانية بوهران ، وبدأت الامداد والذخائر الحربية ترد على وهران استعداداً لليوم الموعود .

وما ان سمع الداي بنبأ هـذه الاستعدادات ، حتى سارع يطلب من القسطنطينية ان تمده بالاعانات العسكرية اللازمة لصد هذا الهجوم الصليبي المتوقـع ، لكن القسطنطينية اجابته بأن عصيان الرياس الجزائريين والجيش التركي بالجزائر يتطلب درساً بليغاً يعلمهم عواقب عصيان الخلافة العثمانية . على ان القسطنطينية رغم ذلك وجهت بعض المدافع والرماة .

وتأكد الداي ان الجزائر أصبحت معرضة لخطر كبير ، فضاعف من الجهود المبذولة لتحصين البلاد ، وعمل في الوقت نفسه على توطيد السلام مع معظم الدول الاروبيـة ، وعرف كيف يفرق كلمتها حتى لا تجتمع ضده .

وقد حاول الانكليز استغلال هذه الفرصة، لينتزعوا من الجزائر مراكز تجارية هامة، ووصلوا الى حد التهديد بالقوة ، لكن محمد بكير صمد في وجههم وذكّرهم بنتيجةالقطيعة الاخيرة التي حدثت بينهم وبين الجزائر والتي أسفرت عن خسارة بريطانيا لمائتين وخمسين باخرة تجارية . واعتبر الانكليز بما سبق ، ولم ينفذوا تهديدهم بشن الحرب .

وهكذا عرف محمد بكير بسياسته الماهرة التي تزاوج بين الاستعداد للمكروه وبـين دفعه ، كما تزاوج بين سياسة اللين والسلام وسياسة الصمود ورفض التنـازلات التي تمس بالسيادة — عرف بذلك كله كيف يجنب الجزائر اخطاراً ماحقة كانت تهددها في منتصف القرن الثامن عشر .

الا ان الجزائر لم تتمتع طويلاً بالثمرة التي حققتها سياسة محمد بكير الخارجية . ففي ليلة الثامن من سبتمبر ١٧٥٠ (شوال ١١٦٤ هـ) انفجر مخزن بارود كان يشتمل على الف وخمسمائة قنطار من البارود فحصد حصداً برج مولاي محمد والديار المجاورة له . وطلب الداي من الدانمارك والسويد تعويض الذخيرة التي ضاعت ، ففعلتا .

وفي ١٧٥٢ (١١٦٦ هـ) هجم على الجزائر وباء آخر استمر أربع سنوات، فانتشرت المجاعة من جديد ، ونجمت اضطرابات أدت الى مقتل محمد بكير .

ففي الحادي عشر من شهر ديسمبر ١٧٥٤ (صفر ١١٦٨ هـ) تظاهر جندي من أصل الباني اسمه وزان علي ، بتقبيل يد الداي ، وضربه بسيفه ضربات عديدة الى ان قتله .

وفي نفس الوقت كان المتآمرون مع وزان علي يقتلون الخزنادار وبعض الشخصيات البارزة في الدولة . وصعد وزان علي الى منصة العرش وراح يصيح : « انا هو الداي... سأضاعف لكم المرتبات » . في هذه اللحظة دخل خوجة الخيل على رأس النوبتجية وهجم على المتمردين . وحاول وزان علي الفرار فوجد الباب مغلقاً فعاد يجلس على العرش في انتظار ان يقتل . وقتل فعلاً . وكانت مجزرة رهيبة وتقول الاشاعات التي حول هذه القتلة انه تم انتخاب خمسة دايات قتلوا على التوالي، قبل ان تجتمع الاصوات على آغا الصبايحية علي ملمولي ، الذي توجه الجنود الى منزله في الريف وجاءوا به وبايعوه داياً .

علي ملمولي .

كان علي ملمولي من اصل متواضع : فقد اشتغل ، قبل ان ينخرط في الجيش ، حارس حيوانات ، ولم يكن يخفي مهنته الأصلية ، فقد كان يظهر اصبعاً له مقطوعة ويقول قطعها لي حيوان كنت أحرسه . ولذلك لقب بـ بوصباع .

وقد بدأ حكمه بالقاء القبض على كل المتآمرين الذين تمردوا في الحادي عشر من ديسمبر ، واعدم بعضهم ، وجلد بعضهم الآخر حتى الموت . وقد واجه بنفس الصرامة والشدة تمرداً جديداً قام به بعض الضباط في الجيش، في شهر افريل سنة ١٧٥٥ (١١٦٨ هـ)، مما اثار عليه الجيش مرة اخرى في شهر سبتمبر من نفس السنة .

ولم تكن الوضعية ، داخل البلاد بأحسن منها في مدينة الجزائر : فقد استمرت الثورة التي شنها القبائل في العام السابق ، حتى تمكنوا من هزيمة وقتل باي تيطرى . كما ثار سكان تنس في وجه السلطة المركزية ، وحاربوا حرباً لا هوادة فيها قبل ان يستسلموا .

وفي أول نوفمبر ١٧٥٥ (١١٦٩ هـ) حدث زلزال رهيب استمر شهرين كاملين . وتقول روايات التاريخ ان احد الشهود اكد بأنه لم تبق هناك دار لم تتأثر بالزلزال . وكان هذا الزلزال مصحوباً ، كالعادة ، بالاضطرابات الاجتماعية التي تولدها الزلازل .

وفي عهد هذا الداي حدثت معارك بين باي قسنطينة وباي تونس ، وجه على أثرها الداي جيشاً من خمسة آلاف جندي إلى تونس ، فبدأ بالاستيلاء على الكاف ثم باجة ، ثم استولى على تونس العاصمة بعد حصار دام شهرين .

لكن ذلك لم يمنع استمرار الاضطرابات في داخل الجزائر ، ففي ١٦ جويلية ١٧٥٧م (شوال ١١٧٠ هـ) استولى القبائل على برج بوغني الذي حطموه اثر معركة عنيفة ، وفي شهر اوت هاجموا برج البويرة ، واستمرت القلاقل الى منتصف عام ١٧٥٧ م .

وكما كانت الوضعية مضطربة في الداخل ، كانت في الخارج . فاضطراب الوضع الداخلي جعل الداي عاجزاً عن اتخاذ مسؤوليته كما يجب ، واغتنم الرياس هذا العجز في مهاجمة البواخر الاجنبية في عرض البحار ، وعندما ترفع الدول صاحبة البواخر المتعرضة للهجوم الامر اليه يكتفي الداي بان يقول لممثليها . لا أستطيع شيئاً .

الباب الحادي عشر

ولاية محمد عثمان باشا

- العلاقات مع البلاد الاوربية .
- حرب الدانمارك .
- أسبانيا تشن حملات متوالية على العاصمة .
- اضطرابات داخلية وعواملها .
- الجلاء النهائي للاسبان عن وهران ومرسى الكبير .
- مقتل صالح باي .

محمد عثمان باشا

تعددت المؤامرات على بوصباع : فلا يكاد يخمد فتنة حتى تثور اخرى ، وفي بداية ١٧٦٥ (١١٧٨ هـ) القي القبض على أخيه آغا الصبايحية ، ووكيل الخرج ، (مسؤول البحرية) وأربعين تركياً ، ونفاهم الى أزمير ، بعد أن حجز ممتلكاتهم .

وقد اصيب الداي ، بمرض الزمه داره مدة عام توفي على اثره في الثاني من فبراير ١٧٦٦ م . (شعبان ١١٧٩ هـ) وقد حاول الجيش التركي التمرد عدة مرات ، خلال مرض الداي ، لكن صرامة محمد عثمان وضعت حداً لكل تمرد .

وقد اعجب الداي المريض بصرامة محمد عثمان ، فجمع وزراءه واوصاهم بولاية محمد عثمان . ولذلك بُويِعَ محمد عثمان باشا بالاجماع بمجرد موت علي بوصباع .

ويقال ان ارتقاء محمد عثمان باشا الى هذا المنصب كان وليد صدفة غريبة . ذلك انه كان جندياً بسيطاً عندما جاء ذات يوم مبعوث يطلبه لمقابلة الداي ، وكان الداي قد بعث في طلب شخص آخر اسمه محمد ايضاً ، ليكلفه بمهمة . وعندما لاحظ الداي انه ليس هو الشخص المطلوب ، شتمه وطرده .. ثم تساءل في نفسه وقال من يدري ، لعل هذا الخطأ يشتمل على الهام من الله ، فدعاه من جديد وعينه خوجة ، ثم رفعه بعد ذلك الى مرتبة الخزناجي .

وقد تبين بعد ذلك ان هذا الاختيار المتولد عن الصدفة كان اختياراً موفقاً . فقد اشتهر بالعدل والانصاف ، وبحسن التصرف في شؤون الحكم ، واجمعت كلمة المؤرخين على انه كان احسن داي على الاطلاق .

وقد استمر في الحكم خمساً وعشرين سنة ، على الرغم من المؤامرات العديدة التي فجرتها صرامته ، فبعد شهرين فقط من توليته ، حدث تمرد اول في الحادي عشر من ابريل ، واجهه الداي باعدام سبعة من المتآمرين ، وفر ثلاثون متآمراً الى بلاد القبائل .

وفي شهر جوان وقعت محاولة لاغتياله امام المسجد ، فاعدم شنقاً ثلاثة عشر متآمراً . وفي الثاني عشر من شهراوت عزل وكيل الحرج الذي اشتهر بالفساد وقبض الرشاوى ، ونفاه مع المتواطئين معه . وفي شهر اكتوبر من نفس السنة اعدم اربعة من الجنود في الوقت الذي كانوا ينادون فيه بالثورة ، لكن الجيش التركي كان قد تغلغل فيه داء التمرد وسرطان المؤامرات ، فلم تستطع صرامة محمد عثمان ان تشفيه منذلك وظلت المؤامرات تتجدد الى نهاية حكمه .

العلاقات الخارجية مع بلاد اوروبا :

اراد عثمان باشا ان يحافظ على السلم مع فرنسا وانكلترا ، ومع غيرهما من البلاد الاوربية ، لكن الحاجة المستمرة الى سد عجز الخزينة ، دفعته الى ان يزيد في الاتاوات المفروضة على الدانمارك والسويد وهولندا والبندقية وقد حاولت البندقية التخلص ، لكنها اضطرت بعد ذلك الى المفاهمة مع الداي . وحاولت هولندا ان تدفع هدايا اخرى غير الذخيرة الحربية المطلوبة منها ، فصدر الامر الى القوات الجزائرية بمنع بواخرها من الدخول الى ميناء الجزائر اذا كانت حمولتها شيئاً آخر غير الذخائر الحربية . وقد كانت السويد اول من استجاب لطلب الداي دون ابداء اية معارضة .

أما الدانمارك فقد حاولت أن تعارض ، ووجهة وحدات بحرية إلى ميناء الجزائر . أطلقت القذائف المدفعية على العاصمة ، لكن دون جدوى ، فاضطرت الى النزول عند رغبة الداي وأبرمت الصلح مع الجزائر في اوت ١٧٦٧ (ربيع الثاني ١٨٨١) وفي عام ١٧٦٩ تأخر الدانمارك عن دفع ما عليه : وحمى بعلَمِه بواخر من هامبروغ ، فأشهر عليه محمد عثمان باشا الحرب . وبعد ذلك بحوالي عام ، في جويلية ١٧٧٠ ، رست بالجزائر اربع بواخر حربية دانماركية تحمل العلم الأبيض . فوجه اليها الداي قبطان الميناء ليقول لقائد الوحدات الدانماركية : إن كنت جئت بوصفك عدواً فنحن على استعداد لاستقبالك ، وتستطيع أن تشرع في ضرب الميناء في الحال ، وان كنت تريد التفاوض ، فلماذا استصحبت بواخر حربية ؟

فأجابه انضابط الدانماركي بأنه جاء يطلب الغنائم التي استحوز عليها الرياس

الجزائريون في البواخر التي كانت تحمل العلم الدانماركي ، وانه يعلن حالة الحصار على ميناء الجزائر ، طالما لم تعد تلك الغنائم إلى أصحابها .

وشرعت المدفعية الدانماركية توجه قنابلها إلى العاصمة من يوم الخامس من جويلية إلى اليوم العاشر منه دون انقطاع . وبينما كانت البواخر الدانماركية توجه قنابلها ، إذ تمكنت بعض البواخر الجزائرية ، من الخروج من أمكنتها ودخلت معها في معركة ، ووقع ضرب شديد انتهى بهزيمة الدانماركيين وانسحابهم من الجزائر .

وقد استمرت حالة الحرب عامين آخرين مع الدانمارك وجدت هذه خلالها ان الخسائر التي تلحقها على يد الرياس الجزائريين أضعاف ما طلبه منها الداي . فوجهت في عام ١٧٧٢ الأميرال هوغلاند ، للتفاوض مع الداي. فطلب الداي مليونين ونصف مليون دورو ، وأربع مدافع من البرونز وأربعمائة قنبلة ، وأربعين مدفعاً من الحديد ، وخمسمائة قنطار من البارود وخمسين شراعاً كبيراً وما يلزمها من الحبال والخشب اللازم لصناعة البواخر ، ودفع ما تخلف في ذمة الدانمارك خلال سنوات الحرب هذه ، وفي مقابل هذا لا تعيد الجزائر شيئاً للدانمارك .

الحروب مع اسبانيا :

بعد الانتصار الذي أحرزه الداي على الدانمارك ، تفرغ لتحصين العاصمة حتى تثبت في وجه كل محاولة اوربية للاعتداء عليها ، وكان يشرف بنفسه على الأشغال ويوزع الأموال على العمال القائمين باشغال التحصين تشجيعاً .

ووجه في نفس الوقت تعليمات واضحة ومحددة إلى البايات كي تكون جيوشهم دائماً على استعداد لخوض المعارك والتحرك لنجدة العاصمة لاول إشارة تصدر من الداي، وراح علماء الدين من مختلف الجهات يدعون الناس إلى الاستعداد للجهاد .

وفي هذا الوقت كانت اسبانيا تستعد استعداداً حثيثاً لخوض معركة فاصلة مع الجزائر ، لان العصابات والهجومات المتكررة على قاعدتها بوهران ، انهكت الجيش الاسباني ، وجعلت اسبانيا ترى انه لا مناص لها من احد حلين : ان تنسحب عن وهران أو تخضع العاصمة . واختارت الحل الثاني .

لذلك أمر شارل الثالث بجمع «عمارة» في قرطاجنـة تضم ست بواخر حربية كبيرة وخمسمائة مركب ما بين متوسط وصغير لنقل اثنين وعشرين الفاً وستمائة جندي ، ومائة مدفع ، وعين دون بتروكاستخون قائداً للاسطول ، بينما كان الليوتنان جـنرال اوراي يتولى قيادة الجيش . وتحركت الحملة من قرطاجنة في اسبانيا ، قاصـدة الجزائر في يوم ٢٣ جوان ١٧٧٠ م (١١٨٤ هـ) فوصلت أمام العاصمة في غرة جويلية .

ولـكم كانت دهشة الاسبان عظيمة عندما شاهدوا شواطىء العاصمة محصنة بالمدافع . فترددت القيادة الاسبانية طويلاً قبل ان يقع اختيـارها على الطريقة التي تخوض بها غمار المعركة : هل تكتفي بقذف العاصمة أم تختار موقعاً برياً تنزل به وتزحف منه عـلى العاصمة .

وقر رأيها اخيراً على الطريقة الثانية ، فنزل الجيش الاسباني غربي مصب نهر الحراش يوم ٨ جويلية . وتمكن الاسبان ، في ظرف أربع ساعات من انزال سبعة آلاف وسبعمائة جندي واثني عشر مدفعاً . لكن سرعان ما انتشر الخـبر ، وقدمت فرق صالح باي فتحصنت بالكديات التي كانت تحف بالمكان، وراحت تصب نيرانها على المحتلين، ووجد الاسبان انهم وقعوا في فخ ، وان النيران تحصدهم حصـداً دون ان يتمكنوا ، من أن يردوا عن انفسهم بدفاع. وحاول الاسبان أن يتسربوا الى كدية مرتفعة تبعد عن الشاطىء بنحو ستمائة متر ، لكن المنازل والمزارع التي تفصل بين تلك الكدية وبين موقع الاسبان في الشاطىء ، كان يخفي آلاف الرماة الذين منعوا الاسبان من الوصول إلى أعلى الكدية . وفي نفس الوقت كانت الجيوش الجزائرية تشدد الخناق على الجنود الاسبان من كل جهة . ووجد الجيش الاسباني نفسه واقعاً داخل حصار محكم في ظرف قليـل ، بحيث خسر في أقل من خمس ساعات ١٩١ ضابطاً و ٢٠٨٨ جندياً . وفي الوقت الذي كان فيه عـدد القتلى الاسبان يتضاعف من حين لآخر ، كانت صفوف المقاتلين الجزائريـين تتضخم من حين لآخر بالامداد القادمة من كل مكان . لذلك قررت القيادة الاسبانية الانسحاب .

أحدثت هزيمة الاسبان ردود فعل متعددة : فقـد فجرت حماس الشعراء ، وجنى الداي ثمار استعداده الطويل للمعركة إذ أنه لم يكد ينزل الاسبان حتى وجدوا في مواجهتهم جيشاً هاماً بقيادة صالح باي قسنطينة يعسكر في رأس مـاتيفو ، وجيشاً ضخماً عسكر

بالمتيجة تحت قيادة باي القيطرى ، وجيشاً ثالثاً في القليعة بقيادة خليفة باي الغرب ، وعسكر آغا الصبايحية في باب الواد ، ووكيل الحرج في الميناء ، وجنود زواوة في رأس كاكسين ، وانتشر الرواة في كامل الشمال الافريقي يقصون أنباء الانتصار العظيم .

بعد هذه الهزيمة ، حاول شارل الثالث ، امبراطور اسبانيا ، تقديم تنازلات الى الجزائر ليتحصل على ابرام الصلح معها . لكن محمد عثمان باشا رفض العروض الاسبانية ، لانه كان متيقناً من سوء نية شارل الثالث ، فقد كان على علم بالمفاوضات التي كانت مدريد تجريها في ذلك الوقت نفسه مع جنوة ونابولي ومالطة وليفورن لحملهم على المساهمة في الحملة الصليبية ضد الجزائر ، التي كان يدعو اليها البابا بيوس السادس والتي كان من المقرر أن تتم عام ١٧٨٠ لولا الهزيمة التي مني بها الاسطول الاسباني في ميناء « قاضي » امام الاسطول الانكليزي .

ومن الجدير بالتسجيل ان محمد عثمان باشا لم يتضعضع أمام الاستعدادات العسكرية التي كان ينظمها الغرب ضده ، بل انه قد أبدى نشاطاً متزايداً وبنى اثني عشر مركباً حربياً جديداً . وصنع أيضاً مائة زورق لحمل المدافع المخصصة للدفاع عن الميناء ، وعمل على تدريب اكبر عدد ممكن من الجنود على اساليب الدفاع الحربي الجديد ، وقد بذل الداي كل هذا المجهود وسط مجاعة شديدة كانت منتشرة في البلاد بسبب حملة الجراد خلال عامي ١٧٧٨ و ١٧٧٩ .

* * *

في الوقت الذي كان فيه محمد عثمان باشا متفرغاً للاعدادات العسكرية ينظم الدفاع ضد الحملة الاسبانية المتوقعة ، كانت اسبانيا قد احرزت انتصاراً حربياً كبيراً ضد الاسطول الانكليزي في ميورقة . وقد أضعفت هذه المعركة بالاضافة الى حرب الاستقلال الاميركية موقف بريطانيا الى درجة ان الداي رفض مقابلة القنصل الانكليزي وأمر بطرده من الجزائر في جانفي ١٧٨٣ (١١٩٧ هـ) .

شعرت اسبانيا بأن موقفها قد تعزز بهذا الانتصار ، فابرمت الصلح مع الخلافة العثمانية ، وطلبت من القسطنطينية ان تتدخل لدى الجزائر كي تحملها على ابرام الصلح

مع اسبانيا . وكان في حساب شارل الثالث الاسباني ان هذا الانتصار مضافاً الى تدخل الخليفة العثماني سيجعل الداي مستعداً للتفاهم معها .

وقد استجابت القسطنطينية لمطلب اسبانيا فوجهت قابجي مبعوثاً للتفاوض مع الداي لفائدة اسبانيا ، لكن محمد عثمان باشا رفض وقال ما معناه : انه يعرف ان شارل الثالث بصدد اعداد عمارة حربية ضخمة ضد الجزائر وانه – اي الداي – لا يريد التفاهم مع اسبانيا حتى لا يظهر في مظهر الخائف .

كبر على اسبانيا ان تتلقى هذه الصفعة من الجزائر ، وهي في أوج زهوها بانتصارها على الانكليز . فوجهت في الثالث عشر من جويلية ١٧٨٣ م (شعبان ١١٩٧ هـ) ، اسطولاً بقيادة دون انتونيوبارسولو يضم أربع بواخر كبيرة ، وست مراكب حربية ، واثني عشر شباك ، وعشر زوارق ، وأربعين لنجورا (اى زورقاً) مزودة بالمدافع والمهازر (أي المورتيي) . وبدأت الوحدات الاسبانية في مهاجمة العاصمة يوم أول أوت. واستمرت تطلق قذائف مدفعيتها الى اليوم التاسع من نفس الشهر ، وهو اليوم الذي انسحبت فيه بعد أن نفدت ذخيرتها .

وكان الرياس الجزائريون ، قبل ذلك ، وابتدأ من اليوم الرابع من اوت ، قد خرجوا لمقاومة الاسطول الاسباني وأجبروه على التقهقر بحيث لم يكن لهجوماته الاخيرة أدنى مفعول . وقد ألقى الاسبان خلال الحملة بثلاثة آلاف وسبعمائة واثنين وخمسين قنبلة مدفعية ، وثلاثة آلاف وثمانمائة وثلاث وثلاثين من « الكور » . وقد وصف القنصل الفرنسي بالجزائر في ذلك العهد ، هذا الهجوم في مذكرة وجه بها إلى حكومته ، جاء فيها على الأخص ما يلي :

« وصل الاسطول الاسباني إلى مياه الجزائر في ٢٩ جويلية وبدأ الاسبان باطلاق النيران يوم أول أوت ، على الساعة الثالثة بعد الظهر ، ولم يدم الهجوم الأول إلا نحو ساعة وربع ، لكن الجزائريين كانوا هم آخر من توقف عن الضرب .. وقد سمح الداي ، عندما شاهد مفعول القنابل – سمح للسكان بالانسحاب عن مدينة الجزائر . وقد سقطت عدة قنابل على قصر الداي والجهات القريبة منه ، بحيث وجد انه من الأليق له اللجوء

إلى قصر القصبة ، وفي يوم ٢ اوت ابتدأ الهجوم الثاني في منتصف النهار، وفي يوم ٤ اوت ابتدأ الهجوم الثالث على السادسة صباحاً ، وقد كان الهجوم الثالث والخامس رهيباً ، اما الهجومات الاربع الأخيرة فقد كانت عبارة عن لعب لان القذائف كلها كانت تسقط في البحر (طبقاً لما أوردناه من أن الرياس أجبروا الاسطول الاسباني على الانسحاب) .

وقد انسحب الاسطول في يوم ٩ أوت » .

أما عن الخسائر التي لحقته بالعاصمة ، فيصفها القنصل الفرنسي في نفس المذكرة قائلاً :

« اصيب أكثر من أربعمائة ما بين منزل ومتجر ومسجد وقبة وبنايات أخرى باضرار متفاوتة . ومن بين المنازل الاثني عشر التي تحتلها فرنسا اصيب ثمانية ، وقد اشتعلت النار في منزل قنصل السويد .. لكن الذي يبعث على اعتزاز الحكومة (الجزائرية) هو أن الحصون البحرية لم تمس إلا بإضرار تافهة .. ويقول الجزائريون ان عدد الأموات في الميناء لم يتجاوز مائة .

وقد كان هناك ثلاثمائة من العبيد يستخدمون في اشغال الميناء ، لكن لم يصب واحد منهم بأذى . أما الجزائريون الذين كانت نيرانهم حادة فقد أطلقوا ما بين اثنتي عشر وخمس عشرة الف طلقة مدفعية ..

« .. ولم يفقد الجزائريون الشجاعة ، بل ضاعفوا مجهوداتهم حتى لا يكون للهجوم الثاني نفس مفعول الهجوم الأول . »

وباختصار ان هذه الحملة لم تحقق النتيجة التي كانت تعلقها عليها اسبانيا . وقد كان الداي قبل ذلك قد وجه الى مختلف الاوطان (أي المقاطعات) يطلب منها المدد ، بحيث حل بضواحي العاصمة ، قبل هذا الهجوم بشهر واحد، خمس وعشرون الف جندي قدموا من قسنطينة ، وعشرون الف من معسكر ، وخمسة آلاف من التيطرى .

ولم يكد الاسطول الاسباني ينسحب حتى وقع الشروع في الترميات بنشاط كبير ، لان الداي كان يتوقع تجديد الكرة من طرف الاسبان ، وبنى الجزائريون حصناً جديداً

لا تؤثر فيه ضربات القنابل ، ووضعت زوارق مزودة بالمهازر في مدخل الميناء للدفاع عنه ، وقد وجهت كل من هولندا والسويد والقسطنطينية الذخائر التي كانت الجزائر في حاجة اليها وقد تمت الترميمات والاصلاحات بسرعة كبيرة ، بحيث وجد دون انتونيودي بارسولو ، عندما رجع بعد ذلك بعام ، في ٩ جويلية ١٧٨٤ (١١٩٨ هـ) لمهاجمة الجزائر – وجد امامه مدينة الجزائر « وكأنها لم تتعرض لادنى هجوم ، ولم تلحقها ادنى خسارة » .

وكان الاسطول الاسباني ، هذه المرة ، يشتمل على مائة وثلاثين مركباً حربياً مختلفة الاحجام . والملاحظ ان كلا من نابولي ومالطا ساهمت في هذه الحملة الثالثة بمراكبها . لقد كانت حملة صليبية حقيقية شجعها البابا وباركها . ابتدأ اطلاق النار على الجزائر في الثاني عشر من جويلية على الساعة الثامنة صباحاً .

لكن الزوارق الجزائرية المزودة بالمدافع سارعت بالخروج الى البحر وراحت تطلق قذائفها على وحدات العدو فاجبرتها على الانسحاب ، واستمر الرياس الجزائريون يخوضون غمار المعركة في البحر ، الى ٢١ جويلية . وفي مساء هذا اليوم عقد الاميرال الاسباني مجلساً حربياً طالب فيه بشن هجوم عام على الميناء وعلى المدينة . لكن اعضاء المجلس الحربي عارضوه بالاجماع ، وطالبوا بالانسحاب فوراً . وانسحب الاسطول الاسباني بالفعل مساء الثالث والعشرين من جويلية . وقد علق دي غرامون على فشل هذا الهجوم بقوله :

« انه امر جدير بالاهتمام ، ان تفشل امة لم تنقصها الخصال العسكرية في كل هجوماتها ضد الجزائر ، رغم ما جندته من قوات اكثر من الكفاية » .

* * *

بعد هذه الهزيمة عرضت اسبانيا من جديد الصلح على الجزائر . وقبلت الجزائر ، لكنها اشترطت لذلك شروطاً عديدة في مقدمتها جلاء اسبانيا من وهران ومرسى الكبير . واستمرت المفاوضات عاماً كاملاً اضطرت اسبانيا في نهايتها الى النزول عند الشروط الجزائرية .

الوضع الداخلي :

اما فيما يتعلق بالوضع الداخلي خلال حكم محمد عثمان باشا ، فقد تميز بعصيان سكان جبل فليسة الذين رفضوا دفع الضرائب ، فوجه لهم الداي فرقة عسكرية منيت بالهزيمة وكان ذلك عام ١٧٦٧ م (١١٨١ هـ) .

فوجه لهم الداي ، في العام الموالي بقيادة خوجة الخيل اربعة الآف بولداش واثني عشر الف جندي من التيطرى وعزز باي قسنطينة هذا الهجوم بسيره نحو سطيف .ومني الجيش النظامي مرة اخرى بهزيمة كبيرة، ولاحق الثوار فلول الجيش النظامي الى ابواب العاصمة ، ثم انتشروا في المتيجة واراضي الساحل يقطعون الطرق وينهبون قوافل القمح، مما تسبب في انتشار مجاعة رهيبة . وكان ذلك مثار سخط تسبب في ست محاولات لاغتيال الداي .

وفي عام ١٧٦٩ وجه الداي حملة اخرى ضد الثوار لكنه هذه المرة اصدر الأوامر الى قادته العسكريين بأن لا يتوغلوا في الجبل. ويكتفوا باحتلال أهم المواقع ومحاصرة الثوار. وقد أسفرت هذه الخطة عن نتيجة ايجابية بالنسبة الى الحكم ، إذ ان المحاصرة تسببت في قطع التموين عن الثوار ، فانتشر في صفوفهم الجوع ودب بينهم الخلاف . لكن هذه الحرب الاهلية استمرت مع ذلك سبع سنوات ، من ١٧٦٧ الى ١٧٧٤ .

وفي شهر جويلية ١٧٧٢ (١١٨٦ هـ) طلب سكان جبال البليدة ويسر السلم . وفي عام ١٧٧٣ تمكن باي قسنطينة من اخماد اضطرابات الحضنة . وقد تغذت هذه الاضطرابات بعنصر جديد في ١٧٦٨ نلخصه فيما يلي :

في ١٧٦٨ اشترت اسبانيا اسراها من الجزائر ، مقابل اطلاق سراح الجزائريين الذين كانوا اسرى في اسبانيا .

وكانت هذه أول مرة يحدث فيها تبادل الاسرى بين اسبانيا والجزائر ، ذلك ان العداوة الدينية القديمة بين اسبانيا والاسلام، كانت تحمل اسبانيا على معارضة اطلاق سراح كل الاسرى المسلمين حتى لا تكون قد أعطت الاسلام قوة .

ونجم عن هذا الوضع ، أن كل الجزائريين الذين يقعون في اسر الاسبان ، يعتبرهم

أهلوهم في حكم المفقودين او الأموات فيورثون كما لو كانوا قد ماتوا فعلاً .

وعندما تم اطلاق سراح الاسرى الجزائريين لأول مرة ، ومعظمهم من الاتراك سكان العاصمة ، لم يجدوا شيئاً من أرزاقهم إذ كانت قد قسمت بمقتضى الارث . فسخط هؤلاء الامرى الذين اطلق سراحهم ، وانضموا الى الثوار العصاة وراحوا يساهمون في عمليات النهب .

* * *

وبعد انتهاء الحرب الاهلية في ١٧٧٤ ، عرفت الجزائر فترة من الهدوء والاستقرار لم تدم طويلاً ، فعلى الرغم من أن الغنائم التي جلبها الرياس بلغت قيمتهـا اثني عشر مليوناً خلال الثمانية أشهر الاولى من عام ١٧٨٦ ، فان السكان عرفوا فترة جديـــدة من البؤس بسبب قلة المحصول الزراعي ، وعلى الأخص بسبب الوباء الذي عرفته العاصمة في ١٧٨٧ ، متسبباً في نحو سبعة عشر الف ضحية ، وبلغ الوباء إلى وهران التي لم تجد العدد الــكافي من العمال اللازمين للقيام بالحصاد .

وقد جرت العادة أن يوجد دائماً من يحاول استغلال الاضطرابات في تنظيم مؤامرات ضد الداي،وقد بلغ إلى علم محمد عثمان باشا ان الخزناجي دبر مؤامرة ضده، فجمع الديوان، وأبلغه الخبر وحكم باعدامه .

وفي عام ١٧٩٠ م . (١٢٠٥ هـ) نظم القبـــائل ثورة اخرى ، فتوجه لهم آغا الصبايحية ووضع حداً لثورتهم التي استمرت عاماً كاملاً .

وفي الثاني عشر من جويلية ١٧٩١ (ذو القعدة ١٢٠٥ هـ) ، توفي محمد عثمان باشا ، فخلفه حسن الذي كان قد رشحه ، وبادر حسن بأخــذ احتياطه فالقى القبض على آغــا الصبايحية الذي كان ينافسه في خلافة محمد عثمان ، وحجز أملاكه ونفاه الى القلعة ، حيث عثر عليه مذبوحاً بعد ذلك .

الجلاء النهائي للقوات الاسبانية :

رأينا في الفصل السابق ان الصلح الذي ابرم بين اسبانيا والجزائر عام ١٧٨٥ كان ينص على جلاء القوات الاسبانية عن وهران ومرمى الكبير . لكن الاسبان تلكأوا في

الجلاء على أمل أن يساوموا به ليأخذوا مقابله امتيـــازات تجارية . لكن الحكومـــة الجزائرية رفضت ذلك لانها كانت تدرك ان الاسبان لم تكن لهم طاقـة على تحمل متاعب واعبـــاء الاحتلال العسكري لمرسى الكبير ووهران ، لان الجزائريين كانوا يحاربونهم باستمرار ويقطعون عليهم طرق التموين ، بحيث بلغت تكاليف احتلال هاتين القاعدتين اربعة ملايين والف جندي قتيل في كل سنة .

وقد ازدادت وضعية القاعدة الاسبانية تدهوراً عندمـا حاصر باي الغرب ابراهـيم وهران في نهاية ١٧٧٥ م (نهاية ١١٨٩ هـ) وهو حصار واصله خلفه خليل الذي تمكن في شهر اكتوبر ١٧٧٧ (رمضان ١١٩١ هـ) من الزحف الى الحصون الاسبانية وراح يستفز الجنود الاسبان للمعركة . وفي ١٤ سبتمبر ١٧٨٠ م (رمضان ١١٩٤) فعل محمـد بن عثمان نفس الشيء ، وخرب المسالك المائية التي تمون المدينة . وقد توصل الجزائريون في ١٨٨٤م (١١٩٩ هـ) الى رفـع علمهم فوق القصر الاحمر ، وفي الوقت الذي كانت تجري فيـــه المفاوضات مع الاسبان حول الجلاء . وبينما كان الاسبان يساومون بالجلاء من اجل الحصول على امتيازات تجارية ، اذ حدث في الليلة ما بين ٨ و ٩ اكتوبر ١٧٩٠ زلزال رهيب قوض المنازل والبناءات العسكرية ، واشتعلت النار في الباخرة الاسبانية « بريانت » التي كانت مزودة بأربعة وسبعين مدفعاً ، ولا يستبعد ان يكون الجزائريون قد وضعوا فيها النار ، وقد استمرت الهزات الارضية الى الثـاني والعشرين من نوفمبر . لكن الزلازل لم تمنـــع الجزائريين من مواصلة الحصار ، بل لقد تمكنوا خلال هذه المدة من احــداث ثلمات في الاسوار ، ونشبت معارك ومناوشات ، بعث على أثرها قائد الحامية الاسبانية الى اسبانيا يطلب الامداد . وأرسل باي الغرب ، محمد بن عثمان الى الجزائر العاصمـــة يطلب المدد بدوره . لكن الامداد الاسبانية وصلت في اوائل ١٧٩١ .

اما « الوجاق » فقد أمسك عن بعث الامداد الى محمـد بن عثمان ، لانه كان يعرف من جهة ان القاعدة الاسبانية هناك مآلها السقوط بصفة أو باخرى ، ولانه كان من جهـــة اخرى متخوفاً من مطامح محمـــد بن عثمان ، فلم يرسل اليه بالمدد خشية ان يكسبه ذلك شعبية كبيرة تخدم مطامحه وتغذيها . ولكن محمد بن عثمان واصل حرب العصابات ضـــد الاسبان الى منتصف صيف ١٧٩١ .

وكانت الحكومة الاسبانية خلال هذه الفترة قد اقتنعت ان استمرار هـــذه المعارك يكلفها غالياً : لانها اما ان تصمد مهما كان الثمن ، وذلك يضطرها الى ارسال مزيـد من الامداد والقوات . والى اعادة بناء الحصون التي أصابها التخريب ونالها الهدم ، واما ان تنهزم فيكون ذلك ضربة قاصمة لها في كامل حوض البحر الابيض المتوسط . وقد رأت الحكومة الاسبانية ان تنهج طريقاً ثالثة في الحل ، فوجهت سفارة الى الداي في افريـل ١٧٩١ تعرض عليه التخلي عن القاعدة العسكرية مقابل منحها مركزاً تجارياً في وهران . لكن الداي رفض – وكان حينذاك هو محمد عثمان باشا – .

وأعاد شارل الرابع بعث سفارة اخرى في شهر سبتمبر من نفس العـام على امل ان يتحصل من حسان باشا على ما لم يتحصل عليه من سلفه. فوافق حسان باشا على منح الاسبان مركزاً تجارياً في جمعة الغزوات . وعلى هذا الاساس ابتدأ الجلاء في ١٧ ديسمبر ١٧٩١ . ولم يتم الا في شهر مارس ١٧٩٢ .

وقد كلف هذا الجلاء اسبانيا ثمناً غالياً ، لان الجزائر اشترطت عليها دفع مبلغ سنوي قدره مائة وعشرون الف جنيه استرليني ، كما اشترطت عليها ان تعيد من قرطاجنـة (باسبانيا) الى الجزائر كل المدافع التي كانت لها بوهران والتي حملتها معهـــا ، واشترط عليها الداي ايضاً ان تتولى بعثة اسبانية حمل مفتاحين ذهبيين يمثلان مفاتيح وهران ، الى السلطان العثماني وقلتين مملوءتين بماء عيون وهران . ونفذت اسبانيا كل هذه الشروط ، وتلقى حسان باشا من القسطنطينية ، قفطان الباشوية اثر ذلك .

مقتل صالح باي

بعد ان تحصل حسان باشا على قفطان الباشوية ، أراد أن يتخلص من منافسيه ، وقد رأينا منذ قليل ان منافسه في منصب الداي ، آغا الصبايحية ، عثر عليه مقتولاً .

وقد شاعت حينذاك معلومات لا يستطيـع الانسان الآن التأكد من صحتها أو زيفها، مفادها أن باي تيطرى ، وباي قسنطينة من أنصار آغـا الصبايحية المقتول . لذلك صمم حسان باشا على التخلص من باي تيطرى مصطفى الوزناجي ، بمجرد ما يقدم هذا الى العاصمة ليدفع الدنوش . لكن مصطفى الورناجي عندما قدم إلى الجزائر ، في ٢٩ أفريل ١٧٩٢ اخبر بأن الشواش يبحثون عنه ، فخاف على نفسه والتجأ إلى ضريح أحد الاولياء ، فعين

الداي مكانه محمد الدباح .

أما باي قسنطينة فلم يكن سهلاً على الداي ان يتخلص منه بنفس السهولة .

ويقدم نقيب أشراف الجزائر في مذكراته عن محمد عثمان باشا،رواية اخرى وتفسيراً آخر لتصميم حسان باشا على التخلص من صالح باي . وملخص روايته ان صالح باي ، عندما قدم في إحدى زياراته إلى العاصمة على الداي محمد عثمان باشا ، سأله عن سبب تعامله مع المراكز التجارية الفرنسية رغم أن التعليمات التي صدرت من الداي تقضي بخلاف ذلك ، فاستظهر صالح باي له بتعليمات كتابية وردت عليه من الخزناجي يأمر فيه صالح باي بأن يترك الوسق حراً لمن بيده كتاب منه (أي من الخزناجي) .

فأثار هذا التدخل من الخزناجي في شؤون يعتبرها الداي من اختصاصه ، وحكم بقتل الخزناجي .

وبعد ذلك أمر الداي بتعيين حسن وكيل الحرج في منصب الخزناجي وأولى على برغل الخزندار وكيلاً للحرج . ويقول نقيب الاشراف أن كلا من هذين كانا متزوجين بابنتي الخزناجي المقتول ، اللتين عرفتا أن صالح باي هو المتسبب في مقتل أبيهما .

وعندما تقلد حسن خطة الداي حرضته زوجته على قتل صالح باي .

ذلك هو ملخص التفسير الذي يقدمه نقيب الاشراف . والواقع أنه لا يكفي وحده لتفسير الحادثة .

فالمؤرخون يجمعون على أن صالح باي قد برهن على أنه رجل حرب كما أقام الدليل على أنه رجل يعرف تدبير شؤون الحكم ، وخبير بأمور الادارة . فاذا أضيفت هذه الخصال إلى المدة التي قضاها بايا لقسنطينة وهي إحدى وعشرون سنة ، استطعنا أن نتصور بسهولة مبلغ النفوذ والسلطان الذي تحصل عليه صالح باي ، فإذا اضيف إلى ذلك أن الشرق الجزائري الذي كان يقع تحت نفوذه هو أوسع المقاطعات وأهمها استطعنا أن نتصور تخاوف الداي من قوة هذا الباي الذى لا يستبعد – أي الداي – في ظل ظروف مثل تلك الظروف ، أن تدفع تلك القوة صالح باي إلى التفكير في الانفصال عن العاصمة

والاستقلال بالشرف الجزائري ؛ والذى لا شك فيه هو أن الداي اتصل بمعلومات أو وشايات تحذره من صالح باي ولا شك أن تلك الوشايات لم تدعم الحجج التي تقدمها للداي : مثل التحصينات التي أقامها صالح باي بقسنطينة . فيكفي أن يقال للداي أن الهدف من تلك التحصينات هو تمكين قسنطينة من الدفاع عن نفسها عندما تقرر الانفصال عن الجزائر ، لتثور مخاوف الداي وتتضخم ويسارع بإقصاء صالح باي عن منصبه . وهو ما حدث فعلا .

وهناك احتمال آخر ، يخطر على البال ، وإن لم أعثر له عند المؤرخين الذين قرأت لهم على ذكر : وهو أن حسن باشا خشي من أن يؤدي طغيان نفوذ صالح باي ويدفعه إلى التفكير في احتلال منصب الداي وضم الجزائر كلها تحت سلطته . وهذا الاحتمال الذي نسوقه هنا ليس مجرد نظرية لا تعتمد على أدنى استنتاج ، بل هي تستند إلى ملاحظات أساسية .

أولاً – ان صالح باي هو أول باي اتسع نطاق شهرته وفاض على حدود المقاطعة التي كان مكلفاً بادراتها .

ثانياً – الاتصالات التي أجراها صالح باي مع باي وهران عندما اجتمع به على أبواب العاصمة لدفع الهجوم الاسباني الذي تحدثنا عنه .

ثالثاً – تصرف صالح باي في مدة ولايته تصرف «الجزائري» الذي يفكر في نطاق جزائري ومنطلقاً من اعتبارات جزائرية ، ولم يكن تصرفه تصرف التركي او المحترف (فهو من مواليد مدينة ازمير) الذي لا يهمه الا الجاه والنفوذ ، وبعبارة اخرى ان صالح باي اندمج في المجتمع الذي كلف بسياسته إلى درجة أن ذلك المجتمع أصبح يعتبره من أبنائه ، **لأنه كان احسن من عكس** مشاعر الجماهير وعرف كيف يعبر عنها .

رابعاً – المجهودات التي بذلها في تحقيق الوحدة الوطنية أعانت على ترشيحه في أعين كثيرين لمنصب الداي .

نعم قد يقال انه لم تجر العادة في نظام الوجاق ، أن يتقلد خطة الداي مسؤول محلي ، حتى ولو كان باياً .

لكن هذا الاعتراض لا يثبت عندما نوضح أن تفكير صالح باي في تقلد خطة الداي ،

كان يمثل بالضبط – لو وقع – عملية انقلابية في نظام الحكم المركزي الجزائري ، وكان يعد هو نقطة التحول التي كانت ستسجل ذوبان طائفة من الطبقة الحاكمة في الشعب الجزائري وانصهارها معه .

ولعل محمد عثمان باشا لم يشعر بالحاجة الى التخلص من صالح باي ، لأن شخصية محمد عثمان باشا كانت بدورها شخصية عظيمة ، أما حسن باشا فقد كان يشعر ان صالح باي يستطيع بما لديه من سلطان ونفوذ وسمعة وهيبة ، أن يزحف ، في مناسبة من المناسبات ، على العاصمة ويحقق ذلك التحول الانقلابي الذي كان سيضع حداً نهائياً للوضعية التي كانت عليها الجزائر ، والتي لم تكن تبعية مطلقة للقسطنطينية ولم تكن استقلالاً تاماً عنها .

ويرجح هذا الاستنتاج ، ما يستروحه الباحث في بعض المناسبات ، خلال عهد الدايات ، من تعبير الحكم المركزي بالجزائر عن المصلحة العامة للجزائر كوطن اكثر من التعبير عن مصلحة الباب العالي .

* * *

ومهما يكن من شيء ففي الثامن من اوت ١٧٩٢ م (ذو الحجة ١٢٠٦) عين الداي قايد سباو ، ابراهيم بوصباع ، باياً لقسنطينة . ولم يكن في نية صالح باي أن يقاوم الامر الصادر من الجزائر ، وعزم فقط على أن يفر بنفسه وكنوزه إلى عنابة ليبحر منها إلى الخارج . لكن حراسته الخاصة من الاتراك والجزائريين منعوه ، وقتلوا الباي الجديد . وصلت أنباء الحادثة إلى العاصمة في الثالث والعشرين من أوت (اوائل عام ١٢٠٧) فأمر الداي في الحال بتعيين ابن بو حنك مكانه ، ووجهه إلى قسنطينة على رأس جيش وضع تحت قيادة وكيل الحرج ، وآغا الصبايحية الجديد . وصدر الامر إلى الحامية التركية بقسنطينة أن تمتثل في الحال لامر السلطة المركزية . وامتثل الجنود الاتراك للأمر واستولوا على صالح باي وقتلوه شنقاً . وعادت الفرق التي أرسلت – عادت إلى الجزائر محملة باثني عشر مليون من الذهب وبكنوز يقال انها كانت تقارب ما كان في خزينة الدولة بالعاصمة أو تزيد عنها .

* * *

وهكذا خسرت الجزائر ، بمقتل صالح باي ، قائداً محنكاً من احسن قادتها الذين

جمعوا بين حسن السياسة والخبرة الحربية ، فيكفي التذكير بالمعارك التي ساهم فيها صالح باي لرد العدوان الاجنبي عن العاصمة وعن الحكم المركزي ، ويكفي التذكير بالنصيب الذي قام به في القضاء على الاضطرابات الداخلية ، ويكفي التذكير بمجهوداته في الجنوب عندما نجح في ضم قسم هام منه ، وعلى الاخص الاغواط وبلاد ميزاب وتقرت وجبال عمور ، وبالدور الذي قام به في الحد من نفوذ مشائخ الطرق بالجنوب — يكفي التذكير بكل هذه المجهودات ، لنتبين قيمة الرجل ، ومبلغ ما اسداه في سبيل تحقيق وحدة الجزائر .

ان الاعمال البارزة التي قام بها صالح باي شاهدة على انه لم يكن رجل ثورات وحركات تمردية ، بل تؤكد انه كان رجلاً يعمل في نطاق الحكم المركزي ، ويحترمه .

ولئن كان تصميم حسن باشا على ازاحة صالح باي وخلعه ، يدل على تخوف الداي من كل حركة انفصالية ، وعلى حرص الحكم المركزي على المحافظة على الوحدة الوطنية ، ولئن كان حسن باشا قد قصد قبل كل شيء الى التوقي ضد مكروه متوقع ، فان الاضطرابات والقلاقل التي ادى اليها خلع صالح باي ، قد قضت على جانب من الاستقرار الذي حققه صالح باي ، واحيت من جديد بذور الشك في الحكم المركزي من طرف المسؤولين المحليين ، الذين اصبحوا يحرصون على كسب رضا السلطة المركزية بمختلف الوسائل ، مهملين شؤون الحكم المحلي وما يتطلبه من انجازات ومهام .

ومعنى ذلك بعبارة ادق ان التحول الذي كان سيحدث عاجلاً لو نجح صالح باي في بسط نفوذه على كامل الجزائر ، والذي كان سيتم بصفة تدريجية لو لم يعقه الاحتلال الفرنسي — قد اصيب بنكسة بسبب عزل صالح باي ومقتله ، وعادت الى الظهور اساليب ومشاعر والوان من التفكير كانت بصدد الانقراض ، ولسنا نبالغ عندما نقول ان هذه النكسة كانت من بين العوامل النفسية والاجتماعية التي اعانت على ايجاد بعض الظروف الملائمة للاحتلال الفرنسي .

الباب الثاني عشر

ثورة وطنية

- سيطرة بوشناق وبوخريص على التجارة الجزائرية .
- القسطنطينية تلح في اعلان الحرب على فرنسا .
- مقتل بوشناق وبوخريص .
- تسليم المركز التجاري الى الانكليز .
- استمرار الاضطرابات الداخلية .
- ضعف الاسطول الجزائري .
- مؤتمر فيينا وخطة الانكليز .
- التحول الى القصبة .
- مؤتمر ايكس لاشابيل .

سيطرة بوشناق وبوخريص على التجارة الجزائرية

تطور الصراع بين فرنسا وبريطانيا ، خلال السنوات الماضية ، تطوراً كبيراً بفعل التحولات التي طرأت بفرنسا . وقد ظهرت نتائج هـذا التطور في الصراع بين البلدين الاوربيين على الأسواق والمراكز التجارية في المغرب العربي- ظهرت في علاقات كل واحد من البلدين مع الجزائر ، وتسببت في إثارة حوادث داخل الجزائر أثرت على الوحـدة الوطنية الناشئة ، ذلك ان حسان باشا كان قد ابدى ميله إلى فرنسا دون انكلترا ، إلى درجة انه أقرض فرنسا في عهد الديريكتوار ، قرضاً مبلغه خمسة ملايين فرنك (بحساب ذلك العهد) دون فائدة .

وقد لعب رؤوس التجار اليهود في الجزائر دورا كبيراً في هذا الصراع بين انكلترا وفرنسا . ذلك ان التجار اليهود الذين قدموا من اوربا في بداية عهد الدايات ، عرفوا كيف يستغلون المصاعب المالية التي كانت تواجهْ الدايات أحياناً في الحصول على احتكار التجارة لفائدتهم — وقـد كان رأسا هذه الطائفة هما نفطالي بوشناق ويوسف بوخريص .

وقد عرف هذان اليهوديان كيف يستحوذان على ثقة حسان باشا ، إذ انهما استغلا شبكاتهما التجارية بداخل البلاد في اقتناء مختلف المعلومات السياسيـة ، أي ان شبكاتهما التجارية كانت في نفس الوقت شبكات جوسسة مكنتهما من الاطلاع في الابان على بعض المشاريع والمؤامرات السياسية التي قـد تنظم في الخفاء ، كما مكنتهما من الاطلاع على خفايا البايات ومناوراتهم ، وبواسطة إبلاغهم هذه المعلومات الى الداي ، تمكنـا من الاستحواذ على ثقته ، وأصبحـا يملكان بين أيديهما عزل وتعيين البايات ، ومعنى ذلك بعبارة أخرى ، أنهما أصبحا يسيطران على الجهاز الاداري الجزائري بأكمله ويتحكمان في تكييفه حسب شهوتهما ومصالحهما ...

وقصة الوزناجي تكشف عن نوع الأساليب التي كانا يستعملانها في تعزيز مصالحهما وثروتهما . في سنة ١٧٩٢ عندما احتمى الوزناجي بضريح أحد الأولياء بعد سماعه بأن شواش الدّاي يبحثون عنه ، اتصل به بوشناق وزوده بالغذاء وطمأنه ، وأقرضه مبلغاً مالياً كبيراً ، وسعى لدى الداي كي يتحصل على عفوه لفائدة مصطفى الوزناجي .

ولا شك أن بوشناق نفسه هو الذي سعى بعد ذلك بعامين لدى الداي ، كي يعين الوزناجي في منصب باي قسنطينة ، وهو ما تم فعلاً عام ١٧٩٤ . وقد بادر بوشناق إلى مطالبة باي قسنطينة الجديد بالثمن ، فسيطر على تجارة القمح بكامل الشرق الجزائري ، ولم يعد في استطاعة أي أحد أن يشتري القمح من مقاطعة قسنطينة دون رضا بوشناق .

هذه الخطوة التي نالها اليهوديان ، جعلت الانكليز يلجأون اليهما كي يتدخلا لدى الداي من أجل أن يمنع عن فرنسا القموح التي كانت في أشد الحاجة اليها ، وقد أقنع الانكليز اليهوديين بأن الحلف الأوربي ضد فرنسا الجمهورية سيحطمها ، لذلكساير بوشناق وبوخريص الانكليز . لكن عدم رجحان الانتصار بصفة حاسمة لفائدة أحد الجانبين جعل كلا من بوشناق وبوخريص يحاول اللعب على حبلين بين فرنسا وانكلترا . وفي فترة من فترات تلونهما لفائدة فرنسا تحصلا مع الداي على السماح بتزويد فرنسا بالقموح التي كانت من بين الأسباب المباشرة التي تذرعت بها فرنسا لتبرير حملة الاحتلال .

بعد أن فشلت محاولة الانكليز في تجويع فرنسا بواسطة منع القمح الجزائري عنها ، كلفت الحكومة الانكليزية قنصلها في الجزائر ، بأن يعمل بكل ثمن على إبرام معاهدة صلح بين البرتغال والجزائر . وهدف الانكليز من وراء ابرام هذه المعاهدة بين البرتغال والجزائر ، هو تمكين بواخر الرياس الجزائريين من عبور المضيق بكل سهولة ، لمضايقة البواخر الأميركية التي تحمل الحبوب إلى الموانىء الفرنسية في مقاطعة بروطانيا وبحر المانش .

وأدرك القنصل الفرنسي الغرض الكامن وراء مسعى القنصل الإنكليزي ، فسارع

بدوره يتدخل عند الداي لحمله على إبرام معاهدة صلح مع اميركا .

وقد خرق البرتغال بعد ذلك معاهــدة الصلح ، فتوترت العلاقات بين الجزائر وانكلترا ، لأن الدّاي حمّل الانكليز تبعة هذا الخرق .

وباختصار ، ان المؤرخين يجمعون على ان بوشناق وبوخريص لعبــا دوراً كبيراً في تذبذب السياسة الخارجية الجزائرية ، وتأرجحها بين عدة احلاف ، من غير ان تكون خاضعة لخط سياسي واضح .

لكن دور بوشناق وبو خريص لم يكن قاصراً على الميدان الخارجي ، فقــد ادت تدخلاتها في شؤون الادارة الداخلية الى احداث عدة هزات كان من نتيجتها ان تسرب الوهن الى الوحدة الوطنية . فقد كثرت في عهــدهما وبسببهما قرارات العزل والولاية ففي التيطري القي القبض على محمد الدباح بعد عامين من الحــكم وعوض في ١٧٩٤ بابراهيم البورصالي الذي سجن بدوره في سجن شرشال عــام ١٧٩٧ . وفي قسنطينة القي القبض على خلف صالح باي ، حسن بن بوحنك ، في نوفمبر ١٧٩٤ م . (١٢٠٩ هـ) وعين مكانه الوزناجي الذي اعدم عند عودته من تونس في ديسمبر ١٧٩٧ (رجب ١٢١٢هـ). فعين مكانه انكليز باي . والباي الوحيد الذي لم يتناوله العزل هو محمد بن عـثمان ، باي الغرب ، لكنه مات فجأة عند عودته من الجزائر في ١٧٩٦ م (١٢١١ هـ) ويقال انــه مات مسموماً .

ان هذا الاضطراب الذي طبـع الادارة الجزائرية بسبب تدخلات بوشناق وبوخريص لم يكن وليد الصدفة ، بل ان سياسة التغير الدائم للبايات ، كان الهدف منهــا – في نظر اليهوديين – هو تمكين خزينة الداي من الحصول على مكاسب واموال جديدة ، لان كل باي يعزل او يوقف تحجز املاكه ، وبهذه الطريقة يصرفان الداي عن مطالبتهما بدفع ما كانا يجمعانه من ثروات .

وقد اصبحت هذه السياسة التي املاهــا بوخريص وبوشناق على حسان باشا هي السياسة المتبعة . فعندما مات حسان باشا ، وتولى مكانه مصطفى باشا (الخزناجي) في اوائل ١٧٩٨ (شعبان ١٢١٢ هـ) سلك الداي الجديد نفس السياسة فخلع باي التيطري

عام ١٨٠١ ، وباي قسنطينة عام ١٨٠٣ ، وجرد ابن محمد بن عثمان الكبير ، من كل املاكه عام ١٨٠٠ .

القسطنطينية تلح في اعلان الحرب على فرنسا

في هذه الاثناء لم ييأس الانكليز من امكانية اضرام نار الحرب بين فرنسا والجزائر . ولما فشلوا في ذلك عن طريق مساعي قنصلهم في الجزائر ، حاولوا ان يحققوا مبتغاهم عن طريق مساعي سفيرهم في القسنطيطينية . وقد استغل الانكليز احتلال الفرنسيين لمصر وما انجز عنه من اعلان الباب العالي للحرب على فرنسا — في دفع القسطنطينية الى مطالبة الجزائر باعلان الحرب على فرنسا . لكن الجزائر رفضت ؛ وصدر اليهـا امر ثان من القسطنطينية في نفس المعنى في الثاني والعشرين من نوفمبر عام ١٨٠٠ (شعبان ١٢١٥ هـ) ورفضت الجزائر ثانية . فوجهت القسطنطينية مبعوثا خاصاً في التاسع عشر من ديسمبر يطالب بضرورة شن الحرب على فرنسا ، ونشب نقاش حاد بين مصطفى باشا ومبعوث القسطنطينية ، فاضطرت الجزائر اخيراً الى اعلان الحرب على فرنسا في الرابع العشرين من جانفي عام ١٨٠١ (شوال ١٢١٥ هـ) . لكن مصطفى باشا اتصل مع ذلك بالقنصل الفرنسي ومنحه الوقت اللازم لتمكين الفرنسيين من مغادرة الجزائر مستصحبين معهم اموالهم ، واخبر مصطفى باشا القنصل الفرنسي انه اضطر اضطراراً الى اعلان الحرب على فرنسا . لكن هذه الحرب لم تطل ، اذ ابرمت معاهدة صلح بين الجزائر وفرنسا في ١٨ ديسمبر ١٨٠١ (شعبان ١٢١٦ هـ) .

ان رفض الجزائر اعلان الحرب على فرنسا رغم أوامر الباب العالي ، يجسم ذلك التطور الذي كنا أشرنا الى بدايته ، والذي يتمثل في تقديم الداي لمصلحة الجزائر على مصلحة الخلافة العثمانية ، فالداي بحكم جواره وقربه من فرنسا وبحكم خبرته لقوتها ، يعرف انه لن يستفيد شيئاً من اعلان الحرب عليها ، ويعرف ان استمرار استغلال التناقضات القائمة بين البلاد الاروبية أضمن من قلب الاحلاف الذي قد يؤدي الى تكوين جبهة متحدة اروبية ضد الجزائر ، وآنذاك قد لا تتدخل القسطنطينية لفائدة الجزائر ، عندما تكون مصالحها في المشرق وفي اروبا الشرقية مضمونة .

ولذلك ما استتب السلم بين فرنسا والباب العالي ، حتى عمل مصطفى باشا على كسب ود فرنسا على حساب الانكليز ، فطرد قنصلهم ، في الوقت الذي قدم فيه ترضيات الى الحكومة الفرنسية التي طالبت بمعاقبة بعض الرياس الجزائريين الذين هاجموا بواخر فرنسية.

وكبر على انكلترا ان تذهب كل مساعيها الماضية سدى ، فحاولت ان تهدد الجزائر بالقوة ، وتوجه الاسطول الانكليزي فعلاً بقيادة الاميرال نلسون الى الجزائر مرتين ، لكن تمسك الداي بموقفه أزاء الانكليز اضطر الاسطول الانكليزي في آخر الامر الى الانسحاب دون معركة ، ان الانكليز فضلوا طريقة اخرى لاثارة المصاعب في وجه الداي ، سنرى تفاصيلها فيما بعد .

مقتل بوشناق وبوخريص

في هذه الفترة كثرت أعمال الاحتكار في القمح والحبوب من طرف بوخريص وبوشناق، فارتفعت الاسعار وانتشرت المجاعة ، كل ذلك والدّاي ساكت على أعمال بوخريص وبوشناق لانه كان يتقاسم معهما الأرباح .

وقد بدأت مختلف الأحاديث تروج في الشوارع عن سيطرة بوشناق وبوخريص على الباشا وتحكمهما في امور الدولة . ولو أنّ بوشناق وبوخريص لم يتدخلا في شؤون الدولة. والادارة الداخلية للبلاد لما ثارت ضدهما ثورة ، لكن كثرة تدخلهما في الشؤون الادارية ألّب ضدهما المسؤولين المحليين والرأي العام . واجمع كل الناس على ضرورة القضاء على نفوذهما ، فالرأي العام ، حملهما تبعة انتشار المجاعة ، والبايات أخذوا عليهما تدخلهما في أوامر العزل والخلع والسجن وحجز الاموال ، وأصحاب الحظوة من الأتراك في العاصمة، أخذوا عليهما احتلالهما لمكانة يرون انها موقوفة على الاتراك دون غيرهم . وقد كانت النتيجة الطبيعية لهذا الوضع هي قيام حركة ضد اليهوديين ، وضد الداي الذي ربط مصيره بهما .

وهو ما حدث فعلاً .

ففي أواخر جوان ١٨٠٥ (ربيع الأول ١٢٢٠) : بينما بوشناق خارجاً من قصر

الجنينة صباحاً ، إذ هجم عليه جندي تركي وقتله بعـد ان ناداه بـ « ملك الجزائر » . وعندما سارع نوبجية القصر ، الى مكان الحادث ، شاهرين سيوفهم قال لهم الجنـدي : « لقد قتلت اليهودي ، فهل انتم كلاب اليهودي ? » حينذا أخلوا سبيله ، وتوجه الجندي الى الثكنة ، فحمله اليولداش على الاكتـاف وراحوا يتدافعون من أجل تقبيل اليد التي خلصتهم من اليهودي .

بلغ النبأ إلى مصطفى باشا فخاف على نفسه ، وخشي أن تتحول الثورة على اليهوديين إلى ثورة ضده ، فبعث بالامان الى الجندي قاتل بوشناق .

لكن ما ان انتشر النبأ في المدينة ، حـتى انفجر السخط الذي كان مكبوتاً ، وراح السكان على اختلاف طبقاتهم يبحثون عن اليهود لقتلهم .

امام هذا الانفجار ، لم يسع الداي إلا أن يوزع الذهب يميـناً وشمالاً لينقذ رأسه ، ونفى إلى تونس عدداً من اليهود الذين بقوا على قيد الحياة ، ووعد فرقة اليولداش بأنه لن يقبل في المستقبل يهودياً واحداً في قصر الجنينة .

لكن شيئاً من ذلك لم يفده ، فقد أعلن اليولداش أحمد خوجة الخيل السابق داياً ، لان بوشناق كان تسبب في عزله . ورخص مصطفى باشا للجنود في نهب المدينة على أمل ان يحققوا طلبه في السماع له بالابحار متوجهاً الى المشرق ، لكن الجنود رفضوا مطلبه ، وقتلوه ، ثم سحبوا جثته امام باب عزون .

وقد كان بوخريص حينذاك في عنابة ، مهتماً بتصدير الحبوب ، فنجا من القتل .

لكنه لم يتعظ من تلك الحوادث واستمر يتدخل في شؤون الدولة ، الى درجة انـه تدخل بعد ذلك بسنوات لدى الباب العالي من أجل الحصول على خلع الداي حاج علي ، فوشى به منافسه اليهودي ابن ثابت ، فقطعت رأسه امام الجنينة ، بامر من الديوان ، في اوائل فيفري ١٨١١ م (ربيع الأول ١٢٢٦ هـ) .

ثورة وطنية عامة :

بعد مبايعة احمد خوجة دايا ، لم يستتب الامن بسرعة ، بـل استمرت الاضطرابات

حوالي شهر كامل ، ذلك ان آغا اليولداش كان يطمع في ان يكون دايا ، فراح يغذي الاضطرابات على امل ان يستفيد منها في نهاية الأمر . وحاول استمالة الجنود وسكان العاصمة بان يذل لهم وعدا بتنظيم عملية قتل جديدة ضد اليهود . وقد اضطر الداي امام استمرار الاضطرابات ، الى القاء القبض عليه وقتله ، وبعد ذلك بدأ الهدوء يعود تدريجياً الى البلاد .

بدأ احمد داي بمعالجة الشؤون الداخلية التي كانت في أوج الاضطراب . ولكي نفهم بعض العناصر الهامة في الاضطرابات التي كانت منتشرة حينذاك ، يجب ان نرجع قليلاً الى الوراء .

في سنة ١٨٠٠ كلف محمد بن الاحرش مقدم مولاي العربي الدرقاوي الذي ينتمي الى الطريقة الشاذلية ، بقيادة وفد من الحجيج المغاربة الى مكة . عندما وصل المغاربة الى مصر في الطريق الى مكة ، وجدوها محتلة من طرف الفرنسيين . فساهموا في المعارك التي نظمت لاجلاء الفرنسيين عن مصر . وفي المعركة ضد الفرنسيين لمع اسم محمد بن الاحرش ، مما لفت اليه نظر بعض القادة الانكليز الذين اتصلوا به على امل ان يستخدموه في المغرب العربي ويجب ان نتذكر في هذا المجال ، فشل المحاولات التي كان قام بهـا الانكليز ازاء الداي لاثارته ضد فرنسا .

اتصل الانكليز بمحمد بن الاحرش الذي اشتهر باسم «الشريف» وحملته باخرة انكليزية الى عنابة ، وطلب منه الانكليز ان يثير اضطرابات وقلاقل في البلاد ، ولا شك ان الانكليز أقنعوا ابن الاحرش بان الداي متواطىء مع فرنسا ، وان الحرب ضده اذن واجب ديني وجهاد . وفي نفس الوقت روج الأنكليز أخبـار مفادها ان ابن الاحرش يعمل لحساب الفرنسيين ، فيضربون عصفورين بحجر واحد .

ذهب ابن الاحرش الى قسنطينة حينذاك تحت ولاية عثمان باي الذي كان قد انتهى من القضاء على ثورة نشبت بالنمامشة اثر الثورة التي كان قام بها الحنانشة والتي قضى عليهـا سلفه انكليز باي .

اتصل ابن الأحرش بإخوان طريقته في قسنطينة ، وكوّن منهم جهازاً سرياً يكون

على استعداد لمساندته عندما يزحف على المدينـــة . وبعد ذلك توجه إلى جبال الشمال القسنطيني ، واستطاع في مدة قصيرة نسبياً أن يجمع قوات هامة احتل بها مدينتي جيجل والقل ، ومن مدينة جيجل التي اتخذها مقراً له اعلن الجهاد ، واستولى في القالة على ستة بواخر فرنسية كما أسر الفرنسيين الذين كانوا موجودين بها للبحث عن المرجان ، ثم بنى حصناً في وادي زهور .

وفي هذا الوقت كان عبد الله الزبوشي مقدم الطريقة الرحمانية قد ثار في بلدة رجاس ، واتصل مع ابن الاحرش وعرض عليه توحيد قواتهما والاستيلاء على قسنطينة .

وتوحدت قوتا الرجلين وسارتا في اتجاه قسنطينة قوة واحدة تضم ستين الف مقاتل نهبوا ضواحي المدينة . وكان الباي عثمان متغيباً آنذاك من عاصمته ، إذ ذهب إلى نواحي سطيف والجنوب لجلب المغارم والعشور. وقد فوجىء نواب الباي أول الأمر بهذا الهجوم ففروا ، لكن ابن الاحرش طاردهم في طريق ميلة واضطرهم إلى خوض معركة كانت نتيجتها وبالاً على الثوار ، إذ قتل منهم خلق كثير ، وجرح ابن الأحرش ، ففروا ، لكن عثمان باي الذي كان يسمع النبأ ، حث السير اليهم وأدركهم عند واد القطن ، شمال شرقي ميلة ، والحق بصفوفهم خسائر فادحة .

انسحب ابن الأحرش إلى حصنه يداوي جراحـــه ، بينما اتصل عثمان باي بتعليمات وأوامر من الجزائر تأمره بان لا يتوقف عن الحرب ضد ابن الأحرش إلى أن يقطع رأسه . فسار عثمان باي على رأس قوة هامة ، والتقى بقوات ابن الأحرش في بني فرقان قرب الميلية ، ونشبت المعركة حادة في وادي زهور ، وآنذاك ارتكب عثمان باي خطأ حربياً إذ دخل المعركة فور ملاقاته لقوات ابن الأحرش دون أن ينظم صفوفه ، ولا شك انـــه استخف بقوات ابن الأحرش التي اشتهرت بقلة النظام ، ودفع ثمن هذا الخطأ هزيمة شنعاء أودت بحياته . فاتعظ عبد الله باي ، خلفه بذلك ، وعرف كيف يواجـــه قوات ابن الأحرش فانتصر عليه في ميلة ، وشتت صفوفه . وفي نفس الوقت كان الرايس حميدو يحتل مدينة جيجل ويسلط عقاباً شديداً على الذين تعاونوا مع ابن الأحرش .

اعتصم ابن الأحرش بجبال الشمال القسنطيني ثم حاول اثارة القبائل المجاورة لبجاية ،

كما حاول الاستيلاء على مدينة بجاية ، لكن دون جدوى . بل لقـــد حدثت ردود فعل عنيفة ضده ، ذلك انه بعد أن نجح في اثارة سكان الحضنة ، اصطدم بمقاومة آل المقراني الذين هزموه . فالتجأ بعد ذلك إلى ناحية فليتة ، بين وادي مينة ووادي جديوية ، وقتل في احدى المعارك . وبعد مقتله حاول محمد بن عبد الله الذي يقول انـــه ابن الأخ ابن الاحرش أن ينظم ثورة جديدة ، لكن مصطفى باي تتبعـــه وحاصره حصاراً شديداً فحرمه من كل تموين . وبعد أربع سنوات من المعارك الجزئية قتل في كمين نصبـــه مي أمقران .

ولم يكن غرب الجزائر باكثر هدوءاً من شرقه ، ذلك ان استيلاء الداي السابق على املاك عثمان باي المغرب ، بعد عزله ، كان قد أثار سخطاً كبيراً اغتنمه احد الدرقاويين في اضرام نار الحرب ضد الأتراك ، وقد رحب السكان بالثوار الدرقاويين في كل مكان ، وفتحوا لهم أبواب كل مدن الداخل بعد أن قتلوا الحاميات التركية . وكانت ثورة عامة في الغرب الجزائري من مليانة الى تلمسان ضد الوجاق الذي لم يبق له علم قائم الا في مستغانم ووهران ومرسي الكبير .

رأى الداي ان الباي الذي عينه خلفاً لعثمان أظهر عجزاً كبيراً ، فاضطر الى ان يعين مكانه محمد المكلش ، شقيق عثمان وابن محمد باي الكبير ، واضطر الباي الجديد الى ان يسلك طريق البحر الى وهران ، لان كل المسالك البرية كانت بأيدي الثوار . واجـه محمد المكلش الوضعية بحزم ، واضطر الى ان يدافع عن كل شبر من مقاطعته ، ونجح في آخر الأمر بعد معارك دامت اربع سنوات ، وتمكن من قتل قائد الثوار الدرقاوي الذي اشتهر باسم « ابن الشريف » على أبواب معسكر . ووجه آلاف الرؤوس الى الجزائـــر بعد ان استعاد تلمسان التي اباحها للنهب .

وقد استطاع هذا الباي أن يحرز على اعجاب السكان واعجاب الجنود الأتراك في آن واحد ، اذ استطاع مواجهة وضعية ميئوس منها ، وقلبها رأساً على عقب لصالحه وصالح الوجاق . لكن هذا الانتصار الذي أحرزه والسمعة التي كسبهـــا من ورائه ، كان هو بالضبط السبب الذي أودى بحياته . ذلك انه وجد – كما هو الشأن دائمـــا – من آثار

مخاوف الداي احمد من محمد المكلش . فوجه الداي الآغا عمر لاجراء تحقيق كانت نتيجته معروفة مسبقاً ، فقد قتل بعد ان عذب تعذيباً شديداً لحمله على الاعتراف بالمكان الذي خبأ فيه كنوزه .

* * *

وهناك لا بد من ان نقف وقفة قصيرة عند هذه الحركات والثورات التي اندلعت كلها في وقت واحد تقريبــا وعمت أهم مناطق الجزائر . فليس من الممكن ان يكون ذلك مجرد صدفة . وليس يهمنا هنا أن نبحث عن وجود أيد أجنبية وراء هذه الحركات ، لان الايدي الأجنبية ان كانت تفسر نقطة الانطلاق لحركة واحدة فانها لا تفسر انطلاق كل الحركات وسرعة الانتشار لها جميعاً ... سرعة الانتشار التي تدل على وجــود استعداد مسبق للقيام بهذه الثورات لدى الاوساط الشعبية .

ولسنا نستطيع أن نفهم المحرك الداخلي لهذه الثورات اذا لم نربطه بالزوايا التي تبنته. ان تبني الزوايا لهذه الثورات يدل على ان لها قاعدة دينية ، والقاعدة الدينيــة الوحيدة التي من شأنها ان تجند الجماهير الشعبية في الجزائر ضد حكم الاتراك الذين هم مسلمون مثــل الجزائريين ، هي قاعدة المساواة الاسلامية التي تتنافى مع التمييز الذي فرضه الاتراك في الجزائر متحكمين في رقاب اخوانهم المسلمين كما يتحكمون في رقاب الذميين . بل ان الاتراك لم يتوقفوا — في نظر مسؤولي الزوايا — عند هذا الحد ، فتواطئوا مــع التجار اليهود وممثلي المصالح الاوربية الاجنبية ، فكل ذلك قد جعــل الثورة في نظر الزوايا ، شرعية ضد الأتراك ومعنى ذلك بعبارة اخرى ان هذه الثورات كانت في مجموعها تقدمية لانها كانت تهدف من جهة الى اقرار مساواة تجسم في الواقع وجود أمة كاملة لافضل فيها لطبقة على اخرى ، ولانها من جهة اخرى كانت تحارب محاولات السيطرة الاجنبية على الاقتصاد الجزائري .

وهذا لا ينفي وجود زوايا اخرى كان لها منطلق رجعي ، لا تقدمي .

العلاقات مع الدول الاوربية :

في هذه المدة ، ظلت العلاقات مع الدول الاوربية يسيرها نفس المنطــق السابق ،

محاولة الحصول على اكبر قسط ممكن من الموارد المالية . على هذا الاساس رفض الداي عرضاً تقدم به البرتغال لابرام السلم مع الجزائر ، على ان يدفع للخزينة خمسين الـف بياستر سنوياً طيلة احدى وعشرين سنة ، وطلب الداي لابرام السلم مليوني بياستر في الحال . وفي عام ١٨٠٧ تحصل الداي من اسبانيا على مبلغ مالي قدره اثنا عشر الف ، ومن بريطانيا على عشرة الآف ، ومن الولايات المتحدة الاميركية على مائة الف ، ومن هولندا على اربعين الفاً ، ومن النمسا على خمسين الفاً .

وقد اراد الداي ان يفرض على فرنسا دفع مبلغ مماثل للجزائر ، فرفض ممثلهـا . آنذاك سلم الداي المركز التجاري الفرنسي في القالة الى الانكليز مقابل خمسين الـف بياستر سنويا .

لكن باي قسنطينة ، عبد الله ، تدخل لدى الداي من اجل اعادة المراكز التجارية الى فرنسا . فغضب الداي لهـذا التدخل وحـكم بقتله ، كما اتهمه بالتواطىء مع باي تونس .

استمرار الاضطرابات الداخلية

ذلك ان الداي احمد طلب من باي تونس ان يدفع ضريبـة التبعية للجزائر وان يتخلى عن اعتبار طبرقة خاضعة لسيادته . وبعد محادلات لتحقيق المفاهمـة اندلعت الحرب ، وسار الـكاهية سليمان الى قسنطينة على رأس خمسين الف تونسي ، وهزم باي قسنطينة الجديد ، حسين بن صالح ، الذي فر الى جميلة . فنصب التونسيون حصاراً على قسنطينة وراحوا يقذفون المدينة من اعالي المنصورة بمدافعهم طيلة ثلاثين يوماً . لكن سكان المدينة ، دافعوا عن انفسهم دفاعاً شديداً رغم تخلي الباي .

اما القوات التي وجهتها العاصمة لانجاد قسنطينة قد تعطلت في الطريق بعض الشيء ، بسبب ثورة قبائل فليسة التي قطعت عليها الطريق . فاضطر قائد العدد ، آغا الصبايحية ان يتفاوض مع الثوار ويتفق معهم ، وحـدث الاتفاق وانضم ثوار فليسة الى الأتراك وساروا جميعاً لفك الحصار عن قسنطينة . عندما سمع سليمان بقدوم الامداد ، رفـع

الحصار وعسكر في بو مرزوق ، ونشبت معركة دامت ثلاثة ايام اسفرت عن هزيمة سليمان هزيمة ماحقة . آنذاك سارت القوات التركية والجزائرية الى تونس بقيادة حسين ابن صالح الذي اخطأ عندما اراد محاصرة الكاف رغم ما تتمتع به من دفاع قوي . يضاف الى ذلك ان الفلاحين الذين كان يتركب منهم قسم هـام من الجيش ، فضلوا العودة الى اراضيهم للقيام بالحصاد .

لذلك انهزم الاتراك هزيمة شنعاء عندما نشبت المعركة في العاشر من جويلية عام ١٨٠٧ وشتت شمل الجنود الاتراك . فبعضهم انضم الى الجيش التونسي والبعض الآخر بقي بقسنطينة ، والذين عادوا الى العاصمة ، حكم الداي بشنقهم في باب عزون ، كما حكم باعدام باي قسنطينة المهزوم .

عين الداي باياً جديداً هو علي باي الذي سار على رأس جيش جديد ضد تونس . وعندما وصل علي باي الى معسكر وادي الرمال اغتاله أحد الجنود اسمه أحمد شاوس وأعلن نفسه باياً لقسنطينة ، وكتب الى باي تونس ، حمودة باشا يَعرِضُ عليه التعاقد معه ضد الجزائر . واجتازت قسنطينة فترة من الاضطراب والفوضى استمرت خمسة عشر يوماً ، حطمت خلالها صناديق الخزينة ، ووزعت الأموال على الجنود توزيعاً ، وابيح لهم نهب المدينة .

ولم تتنفس قسنطينة إلا عند مقدم الباي الجديد أحمد طبال ، الذي حث السير إلى قسنطينة ، فقتل أحمد شاوش وسلط عقاباً شديداً على الذين تعاونوا معه .

بعد انتصاب الباي أحمد طبال في قسنطينة ، ثار الجنود الاتراك بالجزائر على الداي أحمد وقتلوه في نوفمبر ١٨٠٨ وعينوا مكانه علي الغسال الذى كان غسالاً للموتى – كما يدل على ذلك اسمه قبل أن يصبح خوجة . ويبدو أن الجنود لم يغفروا للداي أحمد سلسلة الهزائم التي لحقت بهم في عهده .

لكن عهد علي الغسال كان عبارة عن اضطرابات متواصلة . ولذلك لم يدم إلا بضعة أشهر .

وقد انقسم الجنود اليولداش إلى قسمين بعد انتخابهم علي الغسال داياً : ذلك أنهم

طالبوا بتوزيع أموال خزينة الدولة عليهم ، فأجابهم علي الغسال بأن لهم الحق في ذلك، لكن يجب بعد ذلك أن يخرجوا من الجندية نظراً لعدم تمكن الداي من دفع مرتباتهم .

آنذاك عقد الجنود مجلس الديوان ، وناقشوا مسألة تنظيم نهب المدينة كحلّ لمطالب بعضهم. وقد كاد يتم الاتفاق على هذا الحل لولا أن الجنود الأتراك المتزوجين والذين كانت لهم أملاك عارضوا في ذلك ، وهددوا بتنظيم المقاومة مع سكان العاصمة . فتبودلت الشتائم وألوان السباب ، لكن المطالبين بالنهب تراجعوا عن خوض معركة يعرفون مسبقاً أنهم خاسروها . وانقسمت المدينة إلى قسمين ، كل واحد منها يتوقع أن يكون عرضة من حين لآخر لهجوم من طرف الآخر، وبعد أيام من ذلك الاجتماع،وجه المطالبون بالنهب وفداً للداي يطالبونه بأن يبيح لهم نهب المدينة . فقال للوفد : لكم ذلك ، لكن يجب أن تتفقوا حتى لا تقع فتنة ، كما يجب أن تنظموا النهب تنظيماً ، داراً داراً ، وان تجمعوا حصيلة النهب التي ستوزع بعد ذلك توزيعاً عادلاً على الجنود .

في هذه الأثناء عادت مَحَلَّةُ وهران التي ضخمت صفوف المعارضين للنهب ، وعسكرت في الثكنة الخضراء تحت قيادة عمر آغا. وهناك عقد المعارضون للنهب اجتماعاً تقرر فيه قتل علي الغسال .

وفعلاً فقد هجموا في السابع من فيفري ١٨٠٩ على قصر علي الغسال وأرادوا إجباره على أن ينتحر بالسّم . فرفض محتجاً بأن الدين يمنعه من ذلك ، فقتلوه شنقاً ، وعرضوا على عمر آغا أن يبايعوه داياً . لكن عمر آغا رفض ، فبويع خوجة الخيل ، حاج علي .

أظهر حاج علي ، تعطشاً غريباً للدماء ، تجاوز به ما عرف عن معظم الدايات : فقد كان يعدم لأتفه الغلطات ، وقد أمر بإعدام أحمد طبال باي قسنطينة لأنه باع القمح لليهود ، وأثار إعدام أحمد طبال سكان الشرق الجزائري .

وفي عهد حاج علي رجعت القلاقل بين تونس والجزائر ، وأخذ القرصان من الفريقين يعملون في البحر : فسار الرايس حميدو إلى تونس وقهر الاسطول التونسي عند مرسى سوسة وضبط سفينة أمير البحر التونسي ، محمد المورالي .

وقد أراد حاج علي الاستعانة بباي الغرب محمد بوكابوس في معركة ضد باي تونس ، فرفض بوكابوس السير إلى قتال التونسيين محتجاً بأنه لا يريد مخالفة أوامر السلطان العثماني. وقرر الداي أن يخوض المعركة ضد بوكابوس فعزله ، ولكن بوكابوس ثار ، ونشبت معركة قتل فيها بوكابوس ووجه أثرها جلده إلى العاصمة بعد أن حشي تبناً .

وقد استمرت الحرب مع تونس ، وسار الجيش التونسي إلى قسنطينة كما سار الجيش الجزائري إلى تونس وفشل كل منهما في احتلال بايلك الآخر . وكان الباب العالي قد حاول عدة مرات أن يتدخل لاقرار السلم بين تونس والجزائر . لكن حاج علي أجاب في إحدى المرات مبعوث السلطان العثماني قائلاً : لا نتلقى أوامر من أحد ، فنحن هنا سادة في مملكتنا . لكن السلطان محمود كان حازماً ،فأرسل إلى حاج علي يعلمه انه سيرسل اسطوله إلى الجزائر لتأديب كل من تحدثه نفسه على الثورة في وجه السلطان . فخضع حاج علي ، واستتب السلم بين تونس والجزائر .

إلا أن الهدوء لم يستقر في الداخل فقد عمت الثورة فيما بين سطيف والمدية الى بوسعادة والاغواط بسبب المجازر التي ارتكبها محمد شاكر باي قسنطينة ورغم هذه الاضطرابات الداخلية فلم يتردد الداي في اعلان الحرب على الولايات المتحدة الأميركية وفي سجن قنصلها .

في هذه الأثناء راجت خرافة ــ لا شك ان الجواسيس الفرنسيين هم الذين روجوها ــ مفادها ان احد الأولياء خرج من ضريحه بالقليعة ، وتنبأ بقدوم الكفار ولعن الداي . وراح الداي يعاقب كل من يروج هذه الأنباء ، ومع ذلك فقد استمرت تتناقلها الألسن . وأخيراً قرر الجنود الأتراك أن يتخلصوا من الداي ، فأوعزوا إلى شاب زنجي يثق فيه الداي ثقة عمياء ، ان يقتله . فقتله الزنجي الذي قتل بعده فوراً، فاعلن تنصيب الخزناجي محمد الذي قتل بعد توليته بأقل من شهر ، لأنه أراد ادخال نظام مالي جديد ، وعرض منصب الداي مرة اخرى على عمر آغا الذي اضطر هذه المرة إلى قبوله .

ضعف الاسطول الجزائري

بعد ان عين عمر باشا دايا ، وصل الجزائر القنصل الفرنسي ديبوا تانفيل الذي عينته

فرنسا في هذا المنصب للمرة الثانية . لكن الداي رفض قبول القنصل الا اذا اعطى له جواباً صريحاً فيما يتصل بالديون التي في ذمة فرنسا لبوخريص . فتعلل القنصل بضرورة مراجعة باريس ، لكن تعليمات باريس لم تصل ، لأن سقوط نابليون الاول ادى الى تعويض القنصل ديبواتانفيل بآخر هو ديفال . وسنرى فيما بعد الدور الذي لعبه هذا القنصل في تهيئة وتبرير الاحتلال الفرنسي للجزائر .

ومهما يكن من شيء ، فان عهد عمر باشا هو الذي يجسم ذلك التحول الذي بدأ في الواقع قبل هذا الوقت بكثير ، لكنه لم يظهر قبل عهد عمر باشا بمثل هذا الوضوح .

والتحول الذي نشير اليه الآن هو ضعف القوة البحرية الجزائرية ، وتكتل دول اوروبا واميريكا ضد الجزائر ، وغير ذلك من العوامل التي سبقت مباشرة الاحتلال الفرنسي للجزائر .

فبعد شهرين من ولاية الداي عمر وجهت اميركا جزءا من اسطولها الى الجزائر ، رداً على اعلان الحرب من طراف الداي السابق وكان الاسطول الاميركي يحمل مطالب معينة تتلخص في اطلاق سراح الاسرى الاميركان ، وفي الغاء المعلوم الذي الفت اميركا دفعه الى الجزائر .

اصدر عمر باشا الامر الى الرايس حميدو بمواجهة هذه القوة البحرية الاميركية التي انقسبت المعركة ضده في الحال ، وواجهها الرايس حميدو بشجاعة ، وراح يواجه المعركة بباخرته الوحيدة الى ان استشهد في السابع عشر من جوان عام ١٨١٥ .

آنذاك لم يجد الداي بدا من ان يتفاهم مع الاميركان ، ويبرم معاهدة مع الولايات المتحدة الاميركية في السابع من جويلية ١٨١٥ .

بعد ذلك بقليل ارادت هولندا ان تحذو حذو اميركا فوجهت قوة بحرية لحصار العاصمة على امل ان تتحصل منها على الغاء المعلوم الذي كانت تدفعه للجزائر .

واستخلص الداي عمر العبرة من هذه التحركات ضد العاصمة ، فانصرف الى بناء

تحصينات جديدة وتعزيز دفاعها فور ابرام المعاهدة مع اميركا . فادخـــل اصلاحات جديدة ووضع مدافع جديدة في الجهة الشرقية . ثم عمد الى حماية الناحية الشمالية بوضع سلسلة من المدافع على شكل نصف دائرة وعلى ثلاث طبقات ، تشتمل على اربع واربعين مدفعاً كما احاط المنار بحماية مماثلة ، واضاف الى حماية الجهة الشرقية من الميناء الـتي كانت تشتمل على ستين مدفعاً – اضاف لها سبعين مدفعاً جديـداً ، ووضع عند مدخل الميناء مدفعين كبيرين عيار ٦٨ . كما وضع عدة مدافع قوية في الجهة البحرية تمنع البواخر المهاجمة الاقتراب من الارض . ووضع في الجهـــة الغربية سبعين مدفعاً ، كما عزز الدفـــاع عن الوجه الشمالي للميناء بمائة فوهة نارية .

في الوقت الذي كان فيه عمر باشا متفرغاً لتحصينات العاصمة ، كان الرايس مصطفى التونسي يبحث في البحر عن وحدات الاسطول الجزائري ليدخل معها في معركة . ولما لم يلتق بها اراد تشغيل رجاله بالهجوم على جزيرة سنت اونتيوش التي أخـــذ منها ثمانية وخمسين ومائة أسير .

مؤتمر فيينا وخطة الانكليز :

في هذه الاثناء كانت الدول الاروبية مجتمعة في مؤتمر فيينا، فاستغل ممثل بريطانيـــا هذا الهجوم لاثارة الدول الاروبية ضد الجزائر ، وقرر مؤتمر فيينا بالفعل وضع حد نهائي لتصرفات القراصنة في حوض البحر الابيض المتوسط ، ولاسترقاق المسيحيين .

وتعهدت بريطانيا – طبعاً – بتنفيذ هذه المقررات ، وطلبت تعويضـــاً مسبقاً عن مجهوداتها يتمثل في وضع الجزر الايونية تحت حمايتها .

وكعادة بريطانيا في سياستها التي تحاول دائماً ضرب عصفورين بحجر واحد ، وجهت اللورد ايكسموث على رأس وحـــدات من الأسطول الانكليزي الى الجزائر للمطالبة بالأسرى الذين هم من الجزر الايونية فتكون بذلك انكلترا قد جسمت حمايتهـا على تلك الجزر عندما طالبت بفك أسر أبنائها باعتبارهم رعايا انكليز ، وتكون قد قامت في نفس الوقت بتصفية حسابها القديم مع الديوان ، وكل ذلك تحت عنـــوان تنفيذ مقررات مؤتمر فيينا .

عندما سمع الداي بسير الوحدات الانكليزية ، وضع القنصل البريطاني في السجن . وقد عرضت وحدات الاسطول الهولندي التي كانت في الطريق الى الجزائر حسبما أسلفنا اقتداء بأميركا – عرضت على اللورد ايكسموث ان تنضم اليـه . فقبل هذا الأخير ، وسارت القوة البحرية الانكليزية – الهولندية المشتركة الى ان وصلت امام العاصمة مساء السادس والعشرين من شهر أوت ١٨١٦ – وسارع اللورد الانكليزي من الغد بتوجيه انذار الى الداي يطلب فيه باطلاق سراح القنصل الانكليزي حالاً ووضع حد لاسترقاق المسيحيين .

وقد انشب الانكليز المعركة قبل أن يتصلوا بجواب الداي قبـولاً أو رفضاً . والملاحظ ان وحدات الأسطول الانكليزي تقدمت من الميناء تحمل الراية البيضاء التي يحملها المتفاوضون . ولذلك تركتها المدفعية الجزائرية تتقدم دون ان تطلق عليها النار . ومعنى ذلك ان الانكليز خدعوا الديوان بالراية البيضاء . ولولا هذه الخديعـة لما تمكن الانكليز من التقدم الى الميناء وإلحاق خسارة بالغة بالاسطول والدفاع الجزائري .

وكانت معركة عنيفة لعب فيها عنصر المفاجأة لفائـدة الانكليز ، فاسفرت عن خسائر فادحة في صفوف القوات المدافعة عن الميناء كما قتل عدد هام من السكان المدنيين الذين جاؤوا للفرجة ، لانه لم يكن يخطر على بال احد ان المعركة ستنشب في ذلك الحين وتحطمت في هذه المعركة عدة تحصينات ، وأضرمت النار في كل البواخر الجزائرية التي كانت راسية في الميناء .

وكانت النتيجة الحتمية لهذه الهزيمة هي قبول الداي بالنزول عند شروط الانكليز التي كانت تتمثل في :

اولاً : وضع حد لاسترقاق المسيحيين .

ثانياً : اطلاق سراح كل الاسرى المسيحيين الذين كان عددهم حوالي ١٢٠٠ .

ثالثاً : دفع تعويضات للذين كانوا دفعوا مبالغ مالية لافتداء الاسرى المسيحيين .

والملاحظ ان الانكليز ، لم يطالبوا بوضع حد للقرصنـة ، في حين ان هذا المطلب كان احد المطالب الاساسية لمؤتمر فيينا ، التي تعهد الانكليز بتنفيذها .

والسبب في ذلك واضح : ان الانكليز استغلوا مؤتمر فيينا ، لخدمـــة مآربهم ، ولم يطالبوا بوضع حد للقرصنة ، لانهم كانوا يأملون أن تعرقل اعمال القرصنة تجارة البـلاد الاروبية المجاورة ، وعلى الأخص تجارة فرنسا التي كانت تستعد لاستلام المراكز التجارية في الشرق الجزائري التي انتهت مدة كراسها للانكليز .

ولا حاجة الى التنصيص على ان الخطة والخدعـة الانـكليزية كانت ضربة قاسية على الأسطول الجزائري .

وقد تشاءم الجنود الأتراك من ولاية عمر باشا وقالوا انه منحوس . فقال لهم الداي : انه لم يطالب بهذا المنصب وانه مستعد للتضحية بحياته ان كان في ذلك فائدة للجند .

وتمكن عمر بهذه الشجاعة من الحصول على بضعة أشهر اخرى من الراحة والاستقرار. لكن ظهور وباء شديد اكد نحس عمر في نظر الجند التركي ، فقرروا التخلص منـــه ، وهجم عليه بعضهم في قصر الجنينة ، في الثامن من اكتوبر ١٨١٧ ، ولم يبدِ أية معارضة، فشنقوه .

التحول الى القصبة .

انتخب علي خوجة داياً .

وكانت أولى أعمــاله هي التخلص من سيطرة اليولداش هؤلاء الجنود الأتراك الذين لا يعرفون نظاماً ولا يتقيدون بأي شيء. فغادر الجنينة وتحول الى القصبة ، واختار حاميته الخاصة من بين سكان الجزيرة الذين اختار من بينهم الفي رجل لحراسته وحراسة خزينة الدولة . ونقل في نفس الوقت كنوز الخزينة الى القصبة ، التي اشتهرت بعد ذلك بكنوز القصبة . وهناك رواية تاريخية تقول ان هذه الكنوز قد نقلت ليلاً ، بحيث لم يسمع الجنود الأتراك بتحول الكنوز والداي إلى القصبة إلا من الغد بعد ان تم الانتقال فعلاً. ويبدو من بعض الوثائق التي سلمت الى لجنة تحقيق فرنسية بعد الاحتلال ، كلفت باجراء تحقيق حول كنوز القصبة ، ان هذه الكنوز بلغت الف وستمائة وخمسين حمولة بغل .

والواقع ان الانتقال الى القصبة كان عبارة عن تحول سياسي هام : فهو يسجـــل

نقطة تحول في تاريخ الحكم التركي بالجزائر ، ويبرز بوضوح ذلك التطور البطيء الذي ظهر في فترات متفرقة ، والذي يتمثل في رغبة بعض الحكام الأتراك في الاندماج في الشعب الجزائري ، والاعتماد على القوة الشعبية والتخلص من سيطرة فرقة اليولداش .

لكن هذا التحول جاء متأخراً عن أوانه ، لذلك لم تظهر نتائجه الاجتماعية والاقتصادية .

ولم يتردد علي خوجة بعد أن تحول إلى القصبة في القضاء على رؤوس الفتنة من الجند التركي . وأظهر بوضوح تصميمه على حل الفرقة التركية والقضاء على امتيازاتها ، فسلح الكراغلة الذين كانوا قبل ذلك مبعدين عن شؤون الحكم والوظائف السامية . وأعاد عدداً من الجنود الأتراك إلى المشرق،وأبعد البغايا اللائي كن يسكن إلى جنب الثكنات التركية، وأوقف العمل بتجنيد الجنود من المشرق .

لم ترق هذه التصرفات للجنود الأتراك الذين فوجئوا بتدابير تقضي على كيانهم العسكري وامتيازاتهم من أساسها، فحاول بعضهم التمرد، لكن حراسة الداي التي كانت تتكون من الجزائريين فقط قضت على محاولتهم في المهد .

فقتل بعضهم وفر آخرون إلى المحلة الشرقية التي تمردت وسارت في اتجاه العاصمة للقضاء على علي خوجة . فوجه علي خوجة مبعوثين إلى بلاد القبائل يطلبون من سكانها سد الطريق على المتمردين في ناحية البيبان حتى لا يتمكنوا من اللحاق بالجزائر . لكن المبعوثين وصلوا بعد أن اجتاز المتمردين البيبان ، لأنهم كانوا يحثون السير ، ووصلوا إلى العاصمة في نهاية شهر نوفمبر ، وطالبوا برأس الداي .

لكن علي خوجة كان قد أخذ احتياطاته ، فشكل جيشاً من الكراغلة حظي بتأييد السكان وحاول المتمردون التفاوض ، لكن يحيى آغا الذي وجه اليهم وهو من أبناء القبائل طلب منهم الاستسلام دون قيد ولا شرط .

ونشبت المعركة ، وراحت حراسة الداي المتكونة من الجزائريين ، تهاجم المتمردين باعانة الكراغلة المسيحيين ، ومن ورائهم كل السكان يؤيدونهم . وهزم اليولداش في هذه المعركة التي امتد ميدانها من حصن الامبراطور الى باب عزون هزيمة منكرة ، وقتل

منهم الف ومائتا جندي ومائة وخمسون ضابطاً ، وفي يوم الثاني من شهر ديسمبر طلب الباقون على قيد الحياة الامان من الداي ، فمنحه لهم . وبعد ذلك طلب عدد كبير منهم العودة الى أزمير والقسطنطينية فرخص لهم في ذلك . وفي نفس الوقت كان أولاد دراج قد ثاروا على الباي شاكر الذي نزل عند مطالبهم ، وكثرت بعد ذلك الاضطرابات في مقاطعة قسنطينة ، فاتهم وزراء الداي شاكر باي بانه متواطىء مع باي تونس ، فعزل ، وعين مكانه قارة مصطفى ، الذي أعدمه شنقاً لانه حاول التمرد .

وقد احتفل الداي بانتصاره على اليولداش احتفالاً فخماً فأقام أفراحاً دامت ثلاثة أيام ، وتقبل تهاني السلك القنصلي. لكنه لم يستمر في الحكم طويلاً ، فقد مات بالطاعون، في اول مارس ١٨١٨ ، وعندما شعر بدنو أجله ، عين لخلافته حسين خوجة الخيل .

ورفض حسين هذه المسؤولية ، لكن محيطه ألح عليه حتى قبل . ولم يكد يمكث بضعة أيام في الحكم حتى حاول بعض الجنود الاتراك اغتياله ، فتحصن بالقصبة ، واعتمد مثل سلفه على الحراسة الجزائرية بعض الوقت ، ثم نشب خلاف بين الداي ويحيى آغا انتهى بعزل الآغا . وعندما ثارت القبائل تخوف الداي من الحراسة الجزائرية وأعفى أفرادها .

وجد الداي حسين أمامه وضعية معقدة : ففي الناحية الشرقية ، أعلن النامشة والاوراس ووادي سوف الثورة على باي قسنطينة . ولئن تمكن الباي أحمد من أخضاعهم بعد حرب دامت ثلاث سنوات ، فانهم قد عادوا إلى الثورة من جديد في عام ١٨٢٣ . وفي عين ماضي أعلن محمد الكبير ، ابن سيدي أحمد التيجاني استقلاله ، فوجه له الداي يحي آغا ، وحاول يحي آغا الاستعانة بقوم عمراوة الذين رفضوا وقالوا ان واجب الجندية لا يتعين علينا إلا في بلاد القبائل ، ووقع خلاف تسبب في اضطرابات أدت الى تحطيم برج بوغني . ونشبت معارك بين يحي آغا ومحمد اوقاسي انتصر فيها هذا الاخير ، لكنه اغتيل بعد ذلك غدراً في ١٨٢٠ ببرج سباو .

وفي ١٨٢٣ ثار سكان المناطق المحيطة ببجاية، واحتل بنوعباس البيبان، ولم يتمكن ابن كانون من اجلائهم عنها إلا بشدة .

إلا أن الثورة استمرت رغم ذلك في وادي الساحل . وحاول يحي آغا أن يلقن بني عباس درساً قاسياً فاضرم النار في كل شيء اعترضه في طريقه إلى قلعة بني عباس . لكن ذلك لم يمنع بني عباس من الثورة من جديد في ١٨٢٦ .

وفي الناحية الغربية ، عمد باي وهران إلى اعدام من وقع تحت يده من رجال الزوايا الذين كانوا يدعون إلى الثورة ويبشرون بقرب زوال الحكم التركي . وأوشك محي الدين والد الأمير عبد القادر أن يقتل هو أيضاً في هذه الحوادث ، لولا تدخل امرأة باي وهران، مما جعل الباي يكتفي بسجنه. وحاول الباي حسن القضاء على ثورة التيجانية، فلم يستطع ، وولّد هذا الفشل ثورة عامة في جنوب وهران . وفي ١٨٢٧ سار الشيخ محمد الكبير التيجاني لمحاصرة معسكر ، لكن الباي حسن انتصر عليه في عين بيضاء ، وقتله ، ثم تمكن من إخضاع منطقة تلمسان في معركة سيدي مجاهد .

مؤتمر ايكس لاشابيل .

إلى هذه الوضعية الداخلية المضطربة يجب أن نضيف وضعية خارجية لا تقل عنها خطورة ، فقد عقدت الدول الاوربية في ٣٠ سبتمبر ١٨١٨ في « ايكس لاشابيل » مؤتمراً جديداً قررت فيه مطالبة الجزائر وتونس وطرابلس النهائي على القرصنة . كما قررت ابلاغ الدول الثلاث، أن كل نيل ومساس بتجارة إحدى الدول الاروبية، يتسبب في رد فعل سريع من طرف الدول الاروبية المتحالفة . وكلفت بريطانيا وفرنسا بأن تبلغا إلى الدول الثلاث قرارات ايكس لاشابيل .

عندما أبلغ الداي حسين هذه القرارات أجاب شفاهاً بأنه لا يستطيع أن يتخلى عن حقه في التعرف على البواخر الاجنبية ، لأن تلك هي الوسيلة الوحيدة التي يستطيع بها أن يتعرف بها على البواخر العدوة من الصديقة .

وفي اكتوبر ١٨٢٣ قرر الداي القاء القبض على من كان بالعاصمة من أبناء القبائل كرد فعل على الثورة التي نشبت في القبائل . وكان هناك عدة مستخدمين من أبناء القبائل يشتغلون في القناصل الأجنبية . فعمدت القنصلية الفرنسية والهولندية الى انذار مستخدميها بالأمر وتركت لهم حرية الفرار . لكن القنصل الانكليزي أراد أن يحمي

مستخدميه محتجاً بالحصانة القنصلية ، فهوجم منزله وأخذ المستخدمون بالقوة. وتسبب هذا الحادث في قطع العلاقات بين الجزائر وانكلترا .

وبعد بضعة أسابيع قدم الاميرال الانكليزي سيرهاري بنال على رأس ثلاث وعشرين باخرة ، يطلب تعويضاً عن الاهانة التي لحقت بانكلترا في شخص القنصل ، ويطالب بغرامة مالية كبيرة وبالاعتراف بهيمنة بريطانيا على كل الدول الاخرى . لكن الداي حسين رفض هذه المطالب رفضاً باتا . فانصرف الاميرال الانكليزي ، لانه لم تكن لديه تعليمات عما يجب أن يفعل ، لكنه عاد الى الجزائر في الثاني والعشرين من مارس ١٨٢٤ ، وانصرف كما جاء دون ان يتحصل على طائل . وعاد مرة ثالثة في الثاني عشر من جويلية من نفس العام بعد أن صدرت اليه الاوامر بضرب العاصمة ، لكن الجزائريين كانوا قد اتعظوا من معركة ١٨١٦ فخرجوا لمقابلته وأنشبوا مع الانكليز معركة في عرض البحر حالت دون اقترابهم من الأرض . واستمر تبادل اطلاق النار الى يوم التاسع والعشرين من شهر جويلية ، وهو اليوم الذي انصرف فيه الانكليز بعد أن نفذت ذخيرتهم .

حاول حسين أن يستخلص العبرة من هذا الهجوم فعمل على تعزيز المواقع الدفاعية عن الميناء ، وعلى تحصين كل النقط الموجودة على الساحل القريب والتي يمكن أن يتخذ منها العدو مسرباً الى الداخل .

الباب الثالث عشر

تاريخ محاولات الاحتلال الفرنسي للجزائر

- قصة ديون بوشناق وباكري .
- حادث المروحة .
- إنذار فرنسي غريب .
- مناعة ميناء الجزائر .
- البحث عن طريق الاحتلال .
- تعليمات نابليون .
- الحروب الصليبية .
- التفكير في استعمال محمد علي .

حادث المروحة

تضخمت الديون التي في ذمة فرنسا نحو شركة بوخريص وبوشناق ، الى درجة دفعت أصحاب الشركة الى التلويح للوزير الفرنسي الداهية تاليران وللقنصل الفرنسي في الجزائر ديفال باعطائهما نصيباً من الديون ان نجحا في حمل الحكومة الفرنسية على تسديدها . وقد تدخل بالفعل تاليران في القضية ، وحمل الحكومة الفرنسية على تسديد الديون . لكن فرنسا دفعت عدة أقساط الى عائلة بوشناق وبوخريص (الذي تجنس بالجنسية الفرنسية في هذه الفترة وأصبح يدعى باكري) دون أن تدفع شيئاً الى الخزينة الجزائرية ، وأبقت نصيباً من الديون تحت الرهن في حالة ما اذا كان هناك أشخاص أو شركات لهم دين على بوشناق وباكري .

وهذا الاجراء الذي عمدت اليه فرنسا كان من الممكن أن يكون عادياً لو أن الأمر تعلق بدين عادي ، لكن الأمر خلاف ذلك ، لانه يتعلق بدين بين دولتين ، لان المبالغ التي اقرضت الى فرنسا ونصيباً هاماً من القموح التي دفعت لها ، دفعت من الخزينة الجزائرية ، يضاف الى ذلك ان كلا من باكري وبوشناق كانت عليهما ديون للداي ولخزينة الدولة ، فالاجراء الطبيعي في هذه الحالة ، هو أن تصفي الديون في الجزائر وأن تعطي فرنسا ما عليها من مبالغ الى الداي مباشرة . لا بواسطة وفي فرنسا كما حدث... وليس خافياً أن الطريقة التي دفعت بها المبالغ المدفوعة الى باكري وبوشناق كانت تهدف الى تهريب هذين من أن يدفعا ما عليهما للخزينة الجزائرية .

وباختصار أن هناك مبالغ ترجع قانونا وواقعاً للخزينة الجزائرية ، لكن فرنسا دفعتها لباكري وبوشناق . وقد فر بوشناق بعد تسلمه المبلغ الى ليفورن بايطاليا بينما تجنس باكري بالجنسية الفرنسية ولم يرجع الى الجزائر .

وقد اتضحت للداي المؤامرة ، وعرف ان خيطها في الجزائر هو القنصل ديفال ،

ورأسها في باريس هو تاليران . وأدرك ان الاتصال بالحكومة الفرنسية عن طريق قنصلها لن يؤدي الى نتيجة ما دام القنصل طرفاً في القضية . (وقد اتهمت الصحافة الفرنسية المتحررة آنذاك القنصل ديفال بانه أخذ مليوني فرنك من المبالغ التي دفعت لبوشناق وباكري) . ولذلك لم يتردد الداي في اتهام القنصل بالتواطؤ مع اليهوديين اللذين خانا الداي والخزينة الجزائرية ، واستحوذا لانفسهما على المبالغ التي هي من حق الخزينة الجزائرية. وبناء على ذلك ، طلب الداي من الحكومة الفرنسية سحب قنصلها في الجزائر. وتوجيه اليهوديين بفرنسا الى الجزائر ، لانهما ليسا الا وسيطين بين الدولة الجزائرية والدولة الفرنسية .

وقد صادف في هذا الوقت ان كانت أحسن البواخر الحربية الجزائرية في المشرق حيث ذهبت لنجدة القسطنطينية وبطلب منها . فأرادت الحكومة الفرنسية أن تستغل هذه الفرصة ، وأن تنفذ خطتها لاحتلال الجزائر في هذا الوقت بالذات . فأرسلت قنصلها ديفال تأمره بأن يستغل كل فرصة ممكنة لاستفزاز الداي وافتعال حادث يكون مبرراً لقطع العلاقات واعلان الحرب على الجزائر . وقد كانت فرنسا حريصة على افتعال حادث مع الجزائر في هذا الوقت بالذات لأنها – زيادة على ما سبق ذكره – كانت تعرف ان الانكليز كانوا يعدون العدة لاحتلال الجزائر .

اتصل القنصل ديفال بهذه التعليمات قبل عيد الفطر (سنة ١٢٤٣ ﻫ). وفي عيد الفطر ذهب إلى تهنئة الداي كما جرت التقاليد بذلك . وكان ديفال يتقن اللغة التركية لأنه نشأ في القسطنطينية ، فكان ، تبعاً لذلك ، يتحدث مع الداي دون واسطة مترجم . وبعد أن قدم ديفال التهاني ، حدثه عن حجز الرياس لباخرة تحمل العلم الفرنسي ، فأثار الداي مسألة التحصينات العسكرية التي قامت بها فرنسا في المركز التجاري بالقالة ، والتي تهدف حسبما سجله الأنكليز حينذاك إلى اعداد نقطة احتلال في الجزائر .

ثم سأل الداي إن كان لم يتلقَ جواباً على الرسالة التي كان وجهها الدّاي، إلى الحكومة الفرنسية حول قضية بوشناق وباكري ، فما كان من القنصل إلا أن أجابه بقصد الاستفزاز :

« إن ملك فرنسا لا يتنازل لمراسلة داي الجزائر » .

وكان الداي جالساً ، والقنصل ديفال واقفاً على بعد مسافة محترمة . فصرخ فيه : اخرج يا رومي ، وتحرك الداي حركة غضب وسخط ، لمست من جرائها ريشة في طرف المروحة ، القنصل . فاغتنم القنصل هذه الفرصة ، وانسحب مهدداً بأنه سيبلغ كل شيء لحكومته .

وأدرك الداي حينذاك الفخ الذي نصبه ديفال ، فقال لمحيطه : « ماذا عملت له ؟ لقد لمسته ريشة فقط » . ثم استدعى بعض الفرنسيين الموجودين بالجزائر ، وقال لهم : انه لم ينو ابداً إهانة فرنسا ، وأكد لهم أن محادثته مع الداي محادثة شخصية، وانهم يستطيعون المكث بالجزائر دون أن ينالهم أذى ، وانه يحميهم ويحمي مصالحهم .

لكن كان واضحاً لكل أحد انه استفزاز مقصود ، فلم يكن في حديث الداي ما يستوجب مثل ذلك الجواب . فوجهت فرنسا فور اتصالها بتقرير القنصل الكابتان كولي على رأس قوة بحرية ، لمطالبة الداي بتقديم اعتذارات علنية .

انذار غريب :

وصل الكومندان كولي الى الجزائر في الحادي عشر من جوان ، ووجه الى الداي بعد ذلك بأربعة أيام انذاراً ، عن طريق قنصل سردانيا طالب فيه ب :

« توجه وفد يتركب من وكيل الحرج ووزير البحرية والشؤون الخارجية ، والقائد العام للبحرية ، وقائد الميناء ، صحبة أربع خوجات من قصر الداي ، ويجب ان يتوجه الداي الى الباخرة الفرنسية ، ويقدم وكيل الحرج علانية وباسم الداي اعتذاراته الى القنصل العام .

وبعد هذه الاجراءات التي لا تقبل أي تعديل ، في عباراتها ولا في أشخاصها يرفع العلم الفرنسي فوق حصون مدينة الجزائر ، ثم توجه له في التحية بمائة طلقة مدفعية جزائرية .

وفيما اذا لم تستجب هذه المطالب في ظرف اربع وعشرين ساعة ، تبدأ الحرب ضد الجزائر .

هذا ما جاء في المطلب الفرنسي .

وواضح انه مطلب مستحيل التحقيق .

وطبعاً رفض الداي .

واعلنت الحرب في ١٦ جوان ١٨٢٧ .

وفرضت فرنسا الحصار على الشواطىء الجزائرية ، وكانت مهمة سهلة نظراً لتغيب معظم وحدات الأسطول الجزائري في اليونان .

وقد أثر التغيب تأثيراً كبيراً ، إذ لم تستطع البواخر القليلة الباقية وحدها ان تفك الحصار كما تبين ذلك من خلال فشل محاولة قام بها الرياس الجزائريون قرب رأس كاكسين في أوائل اكتوبر ١٩٢٧ .

* * *

ومن الجدير بالملاحظة ان هناك من المؤرخين من يتهم ديفال بأنه اختلق حادث المروحة ، وان الداي لم يمسه بها قط ويكفي ان نسوق في هذا المجال ما قاله المؤرخ الفرنسي شارل اندري جوليان في القنصل ديفال ، فهو يؤكد ان « ممثل فرنسا (أي ديفال) كان يعتبر ، ليس فقط في الجزائر ولكن في كل موانىء البحر الأبيض المتوسط ، رجلاً مشبوهاً ... لقد اكتسب من المرونة والخنوع المفرض والمناورات اكثر ما اكتسب من خبرة ديبلوماسية . وقد كان مشهوراً في الجزائر بأنه رجل فحشاء ، وبأنه رجل لا تهمه حقوق الرجال ... وقد بلغ من درجة اشتباه الناس به ان زملاءه في السلك الديبلوماسي نبذوه . وقد كانت الفرقة التجارية بمرسيليا تعتبر انه ليست له ضمانات اخلاقية كافية لابرام صفقة معه » .

تاريخ خط الاحتلال الفرنسي للجزائر .

لم يكن اعلان الحرب على الجزائر من طرف فرنسا مجرد انتقام لاهانة قنصلها : ان هذه الحقيقة من الوضوح ومن البداهة بحيث لا تحتاج الى مناقشة .

فالتفكير في احتلال الجزائر قديم عنـــد السادة الفرنسيين ، واستعراض الخطوط والمحاولات والمناسبات التي ظهر فيها هذا التفكير خـلال السنوات والحقب السابقة على حقبة ١٨٣٠ ، يقودنا في الواقع الى موضوع واسع يتطلب كتاباً خاصاً ، لأن التفكير في احتلال الجزائر يرجع الى القرون الوسطى . لذلك سنقتصر على استعراض المحـــاولات الفرنسية والتفكير الفرنسي في احتـلال الجزائر ، كما ظهر خلال الخمسين سنة التي سبقت الاحتلال .

ويكفي التذكير باقتراح القنصل كيرسي المتعلق باحتلال الجزائر والذي يرجع الى سنة ١٧٨٢ . وقد عاد هذا القنصل الى تجديد مقترحه في عام ١٧٩١ عندمـا وجه الى وزارة الخارجية الفرنسية مذكرة جاء فيها ما يلي :

« لئن تعبت فرنسا من هذه الوقاحة والاستفزازات ومن التضحيات ، فانها تستطيع ان تضع حداً لذلك بالقضاء على نيابة الجزائر . لكن هذه العملية ، بالرغم من انها ممكنة جداً ، تتطلب ضبطاً محكماً ودرايات محلية متنوعة . »

مناعة الميناء .

والمانع الذي حال دون احتلال الجزائر ، في تلك الفترة ، ليس هو التهيب من عواقب الحرب المدمرة بالنسبة للسكان ، ولكن هو مناعة مدينة الجزائر ومقدرتها الدفاعية التي تمكنها من الوقوف في وجه كل محاولة احتلال قادمة من طريق البحر . والقنصل الفرنسي المذكور لا يتردد في الاعتراف بذلــك عندما يقول في نفس المذكرة :

« ان الجزائر هي المدينة الوحيدة في العالم التي تستحق أن تسحق بواسطة آلة جهنمية . لكننا لسنا متأكدين من تأثير ذلك ، لكي نقدم على المحاولة » .

ويضيف الى ذلك :

« يقال ان الفي رجل شجاع يهاجمون المينـاء شاهرين سيوفهم يستطيعون الاستيلاء عليه بسهولة . لكن يجب ان لا ننسى ما يتعرضون له من نيران مدافــع البحرية وبواخر الحراسة . وحتى فيما اذا تمكن الجنود من السيطرة على مدخل الميناء ، فانهم سيظلون

عرضة لمدافع وبنادق الثكنات . ان مثل هذه العملية ، ستكون ولا شك ألمع عملية ، ولكنها ستكون أيضاً اكثر العمليات قتلا ، ونجاحها مشكوك فيه للغاية » .

اذن فما هي الطريقة التي يقترحها القنصل لاحتلال الجزائر ؟ انها تتمثل في قوله :

« ليس هناك الا وسيلة واحدة للقيام بالحملة ضد الجزائر ، من غير أن تكلف الخزينة العامة تكاليف باهظة ، وهذه الوسيلة هي تحطيم مدينة الجزائر . ولا يمكن الوصول الى تحطيم مدينة الجزائر الا بواسطة جيش بري » .

والملاحظ أن القنصل الفرنسي كيرسي ، بدأ يفكر في ضبط مشروع لاحتلال الجزائر ، منذ عام ١٧٨٢ ، وظل يفكر في ذلك طيلة تسع سنوات ، الى ان قدم مذكرته هذه الى الخارجية الفرنسية في عام ١٧٩١ . وقد حدد في هذا المشروع حتى النقطة التي يتسرب منها الفرنسيون الى بر الجزائر ، إذ يقول فيما يتصل بهذه النقطة .

« ان الفكرة المنتشرة عن أنسب مكان للنزول هو المكان المسمى سيدي فرج . فمن هناك يمكن الوصول الى حصن الامبراطور الذي يشرف على الجزائر من ناحية الجنوب... ومن الصعب الوصول الى حصن الامبراطور من ناحية البحر ، أما من جهة البر فلا تكاد ترتفع أسواره الا بمقدار ٢٥ أو ٣٠ قدماً ... ومن السهل اتقاء مدفعه من هذه الناحية . وعندما يسيطر الانسان على هذا الحصن ، يصبح سيد المدينة » .

أما التكاليف التي تتطلبها العملية ، فان القنصل المذكور يؤكد ان كنوز القصبة ، اي خزينة الدولة الجزائرية كافية لتغطية المصاريف لانه :

« تفرغ فيها من حين لآخر مبالغ هامة دون ان يستخرج منها شيء . انها شيء مقدس عند الجزائريين » .

ولم يكن القنصل الفرنسي كيرسي هو وحده ، في ذلك الوقت ، الذي يفكر هذا التفكير . اذ نجد أن شخصاً آخر فرنسياً يحمل نفس الفكرة ، وهو «فونتور دي بارادي» . الذي عين في عام ١٧٩٠ سكرتيراً – مترجم الملك للغات الشرقية ، في باريس . وقد صحب بونابارت الى مصر ، ومات أثناء الحملة على سوريا . وقد كان مستشرقاً . يعرف

اللغة العربية ، ويعرف اللهجات البربرية . وقد اشتغل مع كيرسي مترجماً في الجزائر . وقد كتب في ١٧٨٩ مذكرات كاملة عن مدينة الجزائر ، وعن سكانها وعن ادارتها ومواردها وتجارتها وقواتها البرية والبحرية . ولا شك ان كيرسي قد استكمل عنه الفكرة التي خوصلها في مذكرته التي أشرنا اليها سابقاً .

وقد تعرض فانتور دي بارادي في آخر مذكراته الى الحديث عن مشروع لاحتلال الجزائر ، كان ضبطه المهندس « ريكو » في عام ١٧٥٤ اقترح فيه الهجوم على مدينة الجزائر من الشاطىء المواجه لباب الواد . ويعلق فونتور دي بارادي على هذا المشروع قائلاً :

« لكن الأحسن من ذلك هو النزول في الشاطىء الموجود بين رأس كاكسين وسيدي فرج . فمن هناك يمكن الاستيلاء على الجزائر من المؤخرة التي ليست محصنة على الاطلاق».

* * *

في الثالث من جويلية ١٧٩٧ قرأ تاليران امام معهد فرنسا دراسته التي تحمل عنوان : « محاولة حول الامتيازات التي يمكن الحصول عليها من انشاء مستعمرات جديدة في الظروف الراهنة » .

وقد تعرض تاليران ، في هذه الدراسة لشواطىء المغرب العربي ونص على أهميتها .

وبعد ذلك بأيام ، في السادس عشر من جويلية ، أصبح تاليران هو وزير العلاقات الخارجية في فرنسا .

فمن السهل أن نتصور ان تاليران لن ينسى ما كتبه وقرأه قبل ذلك ببضعة أيام ، وأنه سيحاول توجيه السياسة الخارجية الفرنسية في هذا الاتجاه . ومن هنا نجد ان هناك علاقة بين تفكير تاليران هذا وبين تواطئه مع باكري وبوشناق في قضية ديون الجزائر على فرنسا .

وقد تعززت فكرة احتلال شواطىء المغرب العربي هذه بعد ذلك عندما احتل

بونابارت جزيرة مالطا، التي تشكل منطلقاً صالحاً لشواطىء المغرب العربي القريبة (لكن الهزيمة التي مني بها الأسطول الفرنسي في واقعة أبو قير، أجلت بعض الشيء مشاريع احتلال شواطىء المغرب العربي).

ومما زاد في تعزيز هذه الفكرة لدى بونابرت بعد احتلاله لمصر، أنه شعر بالدور الذي يمكن أن تلعبه أقطار تونس والجزائر وليبيا في ربط الاتصال مع مصر، إذ أنه مضطراً إلى استعمال طريق هذه الأقطار في البريد بين القاهرة وباريس ذهاباً واياباً، لكن انقطاع العلاقات آنذاك بين هذه الاقطار وبين فرنسا (تحت ضغط القسطنطينية التي تحالفت في هذه الفترة مع انكلترا المناوئة لفرنسا) حال دون ذلك.

وهذا هو السبب في أن نابليون بونابارت عمل، فور عودته إلى فرنسا وأخذه بزمام الحكم، على إقرار السلم بين الجزائر وفرنسا، وهي محاولة كللت بالنجاح عام ١٨٠٠، فيما يتعلق بالجزائر. لكنه كان نجاحاً قصير الأمد، إذ ما لبثت العلاقات أن توترت بين الجزائر وبين فرنسا في العام الموالي. وقد كتب القنصل الفرنسي بالجزائر آنذاك ديبوا تانفيل فور مغادرته لها ووصوله إلى اسبانيا، إلى بونابرت رسالة (في جويلية ١٨٠١) يحثه فيها على احتلال الجزائر. وقد جاء في هذه الرسالة مايلي:

«... من السهل أن نتصور من وراء النهب والاعتداءات الفظيعة التي تتسلط على السكان الطبيعيين للبلاد (الجزائر) بأي حماس سيستقبل الناس أفريقيا شخصاً يحررهم. ان اسم بونابارت أصبح يتردد تحت كل الخيام باحترام مقدس».

ويبدو ان هذه اللهجة قد راقت لبونابارت وانه صدق ما جاء فيها من تملق، إذ حمل القنصل الفرنسي أن يقول للداي مصطفى باشا:

«يجب أن يقتنع الداي بأن فرنسا التي يحكمها القنصل الأول، ليست هي فرنسا آل بوربون «لان ا» أول عمل اعتداء يصدر عن الداي، سيكون شارة البدء في تخريب الجزائر».

وليس من محض الصدفة، أن تكون حكومة الدير كتوار آنذاك قد اتصلت بفيض

من المعلومات والتقارير عن الجزائر كما اكد ذلك شارل روكسي في كتابه « فرنسا — شمال افريقيا قبل ١٨٣٠ » .

البحث عن طريق الاحتلال :

ولا شك ان هذه المعلومات أو معظمها قد طلبتها حكومة بونابارت ، كما تدل على ذلك سلسلة الأسئلة التي وجهها وزير العلاقات الخارجية بفرنسا تاليران إلى القنصل الفرنسي بالجزائر والتي جاء فيها :

« اولاً : ما هي تعزيزات الجزائر من ناحية البحر ؟ ثانياً : لو كنا في حرب مع الجزائريين فما هي التدابير التي يجب اتخاذها لعدم الحاق الضرر بنا ؟ ثالثاً : ما هي الوحدات البحرية التي يجب اعدادها ؟ رابعاً : ما هي التدابير اللازمة لالحاق اكبر نسبة ممكنة من الضرر بهم بواسطة الوسائل البحرية وحدها ؟ خامساً : في حالة ما اذا قررنا ، عند نشوب الحرب مع الجزائر ، استعمال جيش بري ضد هذه النيابة فكيف يكون تشكيله ، وما هي القوة التي ينبغي أن يكون عليها . سادساً : كيف تنزل هذه القوة إلى البر وفي اي مكان . سابعاً : ما هي الخطة الواجب اتباعها للاستيلاء على الجزائر ؟ ثامناً : ما هي قوة جيش الداي وما هو تركيبها . تاسعاً : من هم سكان النيابة ، ومن هم سكان مدينة الجزائر. عاشراً : فيما اذا حوصرت مدينة الجزائر وقاومت فمن اين يمكن للجيش أن يجلب الماء والقمح واللحوم والخشب ؟ ما هي القرى التي يمكن أن تمون الجيش ، وما هو عددها . الحادي عشر : هل هناك رحوات تسير بالماء في ضواحي الجزائر واخرى يسيرها الريح ؟ الثاني عشر: هل يوجد الخشب والأعشاب للطبخ وللمهام الأخرى ؟ الثالث عشر : وصف محلي للمنطقة على امتداد ثمانية عشر ميلاً في كل الاتجاهات ؟ الرابع عشر : فيما اذا كنا نريد ، عوض مهاجمة مدينة الجزائر ، الحاق اكبر نسبة ممكنة من الضرر بالداي ، وفيما اذا اردنا تخريب بعض ولاياته أو بعض مدنه في نفس الوقت الذي تنظم فيه بحراً حرباً لا هوادة فيها ضده ، فما هي العمليات الثانوية التي يمكن تنظيمها ؟ الخامس عشر : ما هي عقلية الداي الحالي ؟ السادس عشر : ما هو تفكير الرجال الذين يحيطون به ويؤثرون عليه ؟ السابع عشر : أية صورة يحملها عن قوة فرنسا ؟ الثامن عشر : إلى أي حد يمكن

أن يؤثر فيه التهديد بإعلان الحرب من طرفنا » .

ولا شك ان ضبط هذه السلسلة من الاسئلة ليس من عمل وزارة واحدة ، بل ساهمت فيه – كما تدل على ذلك طبيعة الاسئلة – عدة وزارات ، كما ساهم في تحريرها بونابارت نفسه على ما يقال .

وقد اجاب القنصل الفرنسي عن هذه الاسئلة اجابات نجد ان بعضها قد وقع اعتماده في التخطيط لحملة الاحتلال التي تمت بعد ذلك بثلاثين سنة . وقد اشار هذا القنصل بدوره الى سيدي فرج – وان كان لم يذكر الاسم صراحة – بناء على ما كان سمعه في الجزائر .

وقد عارض القنصل جان بون سانت اندري في اجاباته – عارض فكرة العمليات الاستثنائية ،واكد انه: « فيما اذا توصلنا الى الاستيلاء على مدينة الجزائر . فان النيابة كلها ستخضع ، وسكنون احراراً في الاحتفاظ بالبلد تحت سيطرتنا او التخلي عنه » .

وقد نصح هذا القنصل ، حكومته زيادة على ذلك باستشارة المسمى « بيرون » المسؤول الرئيسي عن مؤسسات الشركة الافريقية في القالة ، والمسمى جوفروا الذي كان قد عرف الجزائر ، ثم استخدم في وزارة الخارجية الفرنسية ، والمسمى باري الذي كان قائد سفينة زارت الجزائر .

وفي هذه الفترة ايضاً وجه المسمى « تبدينا » مذكرة الى وزارة الخارجية تحمل عنوان « نظرة على نيابة الجزائر » ترغب في احتلال الجزائر ، وتؤكد ان الجزائريين لن يتحركوا للدفاع عن الاتراك الذين يمقتونهم .

وفي منتصف اوت ١٨٠٣ وجه الكونت دي مونتوزي الى بونابارت مذكرة يشرح فيها مزايا احتلال الجزائر ، وهي مزايا يلخصها فيما يلي :

اولا : مضاعفة الحضارة والانتاج . ثانياً : القضاء على وكر من اوكار التخريب والظلم . ثالثاً : ايجاد قوة بحرية جديدة » .

ويؤكد في هذه المذكرة ان :

« السيطرة على تونس والجزائر والمغرب تمكن من السيطرة على كل تجارة افريقيا » .

ويلفت نظر بونابارت الى ان احتلال الشمال الافريقي اكثر فائـــدة من التوسعات الاروبية . ويرى دي مونتوزي ان احتلال الشمال الافريقي يمكن فرنسا من « التوفيق بين مطالب العدالة ومطالب الامن العمومي » .

ويقصد بمطالب العدالة تعويـض الاقطاعيين الذين كنستهم ثورة ١٧٨٩ ، كما يقصد بمطالب الامن العمومي ، عدم التراجع في بعض النتائج التي حققتها الثورة الفرنسية .

تعليمات نابليون :

مجموعة المعلومات والمذكرات التي اتصل بها بونابارت عززت عزمه على احتـــلال الشمال الافريقي . ففي الثامن عشر من شهر ابريل ١٨٠٨ كتب الى الاميرال ديكرسي يقول :

« فكروا في حملة ضد الجزائر ، سواء من ناحية البحر او من ناحية البر . فالتركز في هذه الارض الافريقية » ...

وختم نابليون بونابارت رسالته قائلاً :

« لن اطلب منكم الجواب الا في ظرف شهر ، لكن خـــلال هذا الوقت ، اجمعوا الادوات اللازمة ، حتى لا تكون هناك « لكن » او « لو » او لانه » .. ابعثوا احد مهندسيكم سراً الى السيد تانفيل (القنصل ... ويجب ان يكون هـذا المهندس قد اشتغل ضابط بحرية ومهندساً برياً . ويجب ان يتجول بنفسه داخل الاسوار وخارجها ، وان يدون عندما يدخل بمنزله ، ملاحظاته حتى لا يقدم لنا احلاماً . وتستطيعون ان تتفاهـوا مع سانفون (مدير التحصينات في وزارة الحربية) حتى يكون معكم رجـــل كفء . وستجدون معلومات في محفوظات العلاقات الخارجية والحربية . وقومـــوا ببحوث في هذه المحفوظات وفي محفوظاتكم . فقد طلبت المعلومات عن هذا البلد من طرف فرنسا في كل العصور .

وقع اختيار ديكرسي ، فيما يتعلق بالمهندس ، على الضابط بوتان من سلاح المهندسين.

وتنكر بوتان في الزي المدني وتوجه الى الجزائر التي وصلها في ٢٤ ماي وقد حاول التعارف على منطقة رأس ماتيفو ، كما حاول التعرف على سيدي فرج .

لكن الداي ارتاب في تحركاته وانذر المهندس والمصاحبين له من اعضاء القنصلية الفرنسية بانه سيدفنهم ان عادوا الى تلك المناطق . لكن تطورات الخلاف بين الجزائر وتونس دفعت الداي الى التحبب لفرنسا ، مما سهل مهمة بوتان التي استمرت من ٢٤ ماي الى ١٧ جويلية ١٨٠٨ .

وقد وجه تقريراً الى الاميرال ديكرسي عنوانه « تعرف عام على مدن وحصون ومدافع الجزائر وضواحيها الخ ... حسب الاوامر والتعليمات التي صدرت من وزير البحرية بتاريخ اول وثاني ماي ، لخدمة مشروع النزول بهذا البلد والاستقرار فيه نهائياً .

وفي هذا التقرير يوصي بوتان بنزول القوات الفرنسية ، في سيدي فرج .

ثم راح يصف خط السير الذي يجب ان يسير فيه جيش الاحتلال الى أن يصل الى حصن الامبراطور ، كما أعطى في التقرير تقديرات عن مبلغ قوة الداي العسكرية ، في زمن السلم وفي زمن الحرب ، واشار بافتعال حرب بين الجزائر وتونس تحرم العاصمة الجزائرية من قوة قسنطينة ، وبافتعال مشكل في وهران يحرم الداي من جنود الغرب الجزائري .

ثم يعطي معلومات قيمة عن الماء ودرجة الحرارة حسب الفصول ، والفصل المناسب لقوات الاحتلال ، وهو فصل الجفاف حتى يأمن الجند الفرنسي موجات الوباء ، كما يعطي معلومات عن السكان ، وقد صحب تقريره بخريطة مفصلة عن ميناء الجزائر ومواقع دفاعها .

وقد لفت القنصل الفرنسي دوفال في سنة ١٨١٩ وسنة ١٨٢٧ — لفت نظر حكومته الى هذا التقرير ، الذي كان هو العمل الاساسي الذي ضبطت على ضوئه اللجنة المكلفة باعداد الحملة العسكرية ضد الجزائر اشغالها ، وقد تبنّت هذه اللجنة خلاصات هذا التقرير .

حرب صليبية .

وبعد ان ضبط بوتان تقريره ، حور القنصل الفرنسي ديبوا تانفيل مذكرة اخرى تتعلق بالجانب السياسي من القضية نص فيها على اهمية الدور الذي يمكن أن يلعبه مشائخ الزوايا لما يتمتعون به من نفوذ عند السكان .

وفي ٢٢ اكتوبر ١٨١٥ سلم دومينغو باديا ، الذي كان شغل منصب عامل عمالة قرطبة في عهد جوزيف بونابارت باسبانيا سلم الى الدوق ريشوليو وزير خارجية فرنسا مذكرة تحمل عنوان : « مذكرة عن استعمار افريقيا » .

وفي هذه المذكرة يدافع عن استعمار فرنسا لأفريقيا الشمالية ويعرض خدماته لتحقيق هذا الهدف . ويؤكد في هذا الصدد على ان « أفريقيا الشمالية هي المستعمرة الطبيعية لأفريقيا : فقد كانت هي مستعمرة اليونان والرومان والغوط ، ولولا اكتشاف الاسبان للعالم الجديد لصارت مستعمرة اسبانية ... »

ويستعرض في هذا المجال كل الحبوب والثروات التي توجد في أفريقيا الشمالية والتي تستطيع اغناء اروبا عن اميركا وآسيا .

وفي التاسع من ابريل ١٨١٦ وضع شاطوبريان امام البرلمان مقترحاً لاستعمار المغرب العربي جاء فيه على أخص ما يلي :

« لقد رأيت أيها السادة أنقاض قرطاجنة . والتقيتُ بين تلك الآثار مع الذين خلفوا اولئك المسيحيين المساكين الذين قدم سان لويس حياته فداء تحريرهم ... ان عدد هذه الضحايا يتضاعف كل يوم . أليس يتعين على الفرنسيين الذين خلقوا للمجد والأعمال العظيمة ان يكملوا العمل الذي شرع فيه أسلافهم ؟ ففي فرنسا وقعت الدعوة للحرب الصليبية الاولى ، وفي فرنسا يجب ان نرفع راية الحرب الصليبية الأخيرة » .

وفي عام ١٨٢٠ ظهر في باريس كتاب يحمل عنوان: « قصة اقامة في الجزائر» يتحدث فيه صاحبه عن الأهمية التي يكتسبها استعمار اروبا لشمال افريقيا ، ويقدم كيفية تموين الجيش المكلف باحتلال تلك المنطقة .

وفي عام ١٨٢٥ اتصل بارون دمشق ، وزير الخارجية الفرنسية بمذكرة تحمل عنوان: « مذكرة عسكرية عن الجزائر » ، يوصي فيها صاحبه – وهو مجهول الاسم – باحتلال العاصمة بواسطة حصار بري . وقد بدأ في هذه المذكرة بتحليل أسباب فشل هجوم شارلكان في عام ١٥٤١ ، ومن بينها في نظره الجهل بالمكان ، ثم يؤكد ان انطلاق الهجوم من سيدي فرج كفيل باسقاط العاصمة .

* * *

وبعد أن أعلنت الحرب وحاولت فرنسا فرض الحصار على العاصمة ، وجه شخص مجهول رسالة الى وزارة ، في ٨ جوان ١٩٢٧ جاء فيها :

« لئن كانت الحملة ضد الجزائر بحرية صرفة فيخشى عليها ان لا تكلل بالنجاح المرغوب . أما ان كانت فرقنا البحرية التي تخرج من تولون ، والتي تخرج من موانىء الاطلسي ، وان اخذت في طريقها فرقنا المتمركزة في كاتالون وفي الأندلس ، وان نزلت سراً في شواطىء الجزائر ، واستولت على مدينة الجزائر من الخلف ، فانها تستطيع بفضل هجوم جرىء أن تستولي على كنوز القصبة ، وتجد في ذلك تعويضاً عادلاً عن تكاليف الحرب » .

وفي آخر أوت ١٨٢٧ وجه شخص اسمه بارسي بوكاج مذكرة الى وزارة الخارجية – بطلب من هذه على ما يبدو – عنوانها : « مذكرة سياسية » تتحدث عن «المفاوضات التي ستجرى مع الجزائر في حالة ما اذا كانت الحكومة الفرنسية تفضل حلاً ديبلوماسياً. كما تتحدث عن طرق « احتلال البلاد » ان كانت تفضل طريقة الحرب .

ويقول في هذه المذكرة :

« اني مقتنع باننا سنتوصل بخمسة عشر الف رجل والمدفعية الريفية ، الى تحطيم هذا الجيش (أي التركي) الذي يتركب من عناصر مختلفة ، ومن شعوب مستعدة لان تنفض عن نفسها النير التركي ان بدت لها امكانية ذلك . وعندما نستولي على مرتفعات مدينة الجزائر ، نصبح قريباً سادة الجزائر والداي وبواخره وكنوزه التي تستطيع أن تسد جزءاً من نفقات الحرب» .

وبعد ذلك يعطي تفاصيل عن كيفية احتلال كامل البلاد من ارزيو الى جيجل .

– وفي نفس الفترة شرح ليني دي فيلفاك ، وهو نائب برلماني محافظ مزايا احتلال الجزائر التي لخصها :

– احتلال الجزائر يعوض خسارة فرنسا لحدود الرون .

– احتلال الجزائر يضمن استقرار الأمن العمومي لانه « يمتص ذلك الجمهور من الشبان المتحمسين المندفعين الحائرين المتحركين الذين يبرزون من كل ناحية بعد ثورة كبرى» .

ونفس الفكرة يرددها « كليرمون طونيو » وزير الحربية الذي يَعتقدُ أن العوامل الداخلية الفرنسية التي تؤيد نظرية احتلال الجزائر لا تقل أهمية عن العوامل الخارجية . ويقول في هذا الصدد :

« لن يكون امتيازاً طفيفاً للملك هو ذلك الذي يتمثل في أن يتقدم الملك طالباً نواباً جدداً من فرنسا ومفاتيح الجزائر في يده » .

ويؤكد كلير مون تونير ضرورة الاستيلاء على كامل القطر الجزائري ، وعدم الاكتفاء باحتلال العاصمة ، ويطالب باعداد حملات عسكرية ضد قسنطينة بمجرد سقوط مدينة الجزائر .

* * *

وقد أصبح حديث الاندية الديبلوماسية في الجزائر لذلك العهد ، هو الحرب القائمة بين فرنسا والجزائر ، وكان القناصل الاروبيون يتبادلون دوماً وجهات النظر حول أحسن الطرق لاحتلال الجزائر ، ولا أدل على ذلك مما يكتبه القنصل الفرنسي في توسكان وهو الشاعر لامارتين حينذاك إلى وزارة الخارجية إذ كتب يقول :

« وصل قنصل الدانمارك بالجزائر إلى فلورنسا . وما تحصلنا عليه من أحاديثه يؤكد ما هو متوقع من زمان ، وهو أن محاصرة الجزائر عن طريق البحر لن يؤدى إلى أية نتيجة ، لأن التجارة ليست شيئاً هاماً بالنسبة لمدينة الجزائر . . . انه يعتقد مثل كل الناس ، أن سبعة أو ثمانية من الجند كافون لاحتلال المدينة انطلاقاً من البر » .

ونفس الفكرة نجدها عند قنصل الولايات المتحدة الاميركية الذي نشر في هذه الفترة بالذات تقريراً كان ضبطه في عام ١٨٢٦ يؤكد امكانية احتلال الجزائر بواسطة هجوم من الخلف .

وفي عام ١٨٢٨ طالب القنصل الفرنسي بتونس باحتلال الشرق الجزائري ، انطلاقاً من ميناء عنابة ، بدعوى الدفاع عن المراكز التجارية الفرنسية ، ويؤكد ان احتلال الشرق الجزائري يسهل بعد ذلك احتلال العاصمة . ويشرح مزايا هذه العملية التي يمكن تلخيصها فيما يلي :

- وضع حد لتخوف باي تونس من داي الجزائر ، وبذلك يصبح باي تونس واقعاً تحت التأثير الفرنسي .

- تقديم خدمة كبيرة للاسطول التجاري الفرنسي .

- امكانية استعمار كامل المنطقة .

والملاحظ ان وزير الخارجية الفرنسية في هذه الفترة كان هو « لافيروناسي » الذى كان شغل منصب سفير في عاصمة روسيا ، ولا شك في أنه تذكر ما كان قاله له قيصر روسيا، الكسندر الاول فيجويلية ١٨٢١ ، عندما دعا فرنسا بواسطة الى احتلالالجزائر اذ قال له ما يلي :

« ما عليها (أي فرنسا) إلا أن تفتح البركار من مضيق جبل طارق إلى الدردنيل ، وأن تختار ما يلائمها . وتستطيع ، أن تعتمد في هذا المجال ، ليس فقط على تأييد روسيا، بل وعلى إعانتها الجدية والفعالة » . لكن هذا الوزير كان مع تأكده من تأييد روسيا لمشروع الاحتلال الفرنسي متخوفاً من معارضة بريطانيا للمشروع ولذلك لم يتحمس له كثيراً .

إلا أن الذي أجل مشروع احتلال الجزائر إلى عام ١٨٣٠ ليس هو الخوف من بريطانيا فقط ولكن هو اعتبارات اخرى من بينها أن معركة نافارين - التي ساهم فيها الأسطول الفرنسي ضد الاسطول التركي - عززت امكانية قيام الحرب بين الخلافة العثمانية

وبين روسيا . وهو أمر من شأنه أن يحول دون عودة القوة البحرية الفرنسية التي وضعت في المشرق تحت قيادة الأميرال دي ريني ، وبذلك حرمت فرنسا من أداة هامة لتنفيذ مشروع احتلال الجزائر في ذلك العام . يضاف إلى ذلك أن وحدات بحرية فرنسية كانت حينذاك بالبرازيل .

التفكير في أستعمال محمد علي باشا مصر :

يتضح من كل ما تقدم أن فكرة احتلال الجزائر لم تولدها ضربة مروحة حقيقية أو مختلقة .

لكن على الرغم من كل هذه التقارير والمقترحات التي كانت تدفع الحكومة الفرنسية إلى احتلال الجزائر ، فان الحكومة الفرنسية كانت متخوفة من الاقدام على هذه المحاولة ، نظراً لما اشتهر بـه الجزائريون من استبسال في الدفاع عن وطنهم . ولذلك فكرت الحكومة الفرنسية ، في وقت ما ، في أن تستعمل محمد علي باشا مصر لتحقيق أغراضها بالجزائر . وقد أغرت فرنسا محمد علي بقبول مشروعها ، ملوحة له بأن الاستيلاء على الجزائر يمكنه من اسطول بحري يعينه على تحقيق أغراضه في المشرق . لكن حسابات المسؤولين الفرنسيين الذين فكروا في اسهام محمد علي في غزو الجزائر وفي ربط الجزائر بالمسألة الشرقية ، كان يهدف إلى :

١ — فتح طريق مصر من جديد لفرنسا .

٢ — تحميل تكاليف الاحتلال لمحمد علي باشا ، لان بولينيك كان متخوفاً من التكاليف .

٣ — التخوف من تعبئة الجزائريين في المعركة ضد المسيحيين ، فاستعمال محمد علي يجنب الفرنسيين هذه التعبئة لانه مسلم فلن يتجند ضده الجزائريون ، كما يتجندون ضد الفرنسيين .

وقد اشترط محمد علي مقابل ذلك ان يملكه الفرنسيون البواخر التي كان من المقرر ان يسلفوها له لحمل فرقة الى الجزائر وتونس وطرابلس . وكانت حجته في انه لا

يستطيع ان يتقدم امام سكان مسلمين ، في ظل راية مسيحية .

وفي الوقت الذي كانت تجري فيه المفاوضات بهذا الشأن اوعزت القسطنطينية الى محمد علي بالتخلي عن المشروع ، تحت تأثير الانكليز الذين كانوا لا ينظرون بعين الارتياح لاستقرار الفرنسيين فوق شواطىء المغرب العربي . ومن جهة اخرى كانت بعض العوامل السياسية الاروبية التي دفعت بولينيك الى استعمال محمد علي قد زالت ، فقررت فرنسا ان تقوم باحتلال الجزائر بمفردها . ولا شك ان من بين العوامل التي دفعت الحكومة الفرنسية الى احتلال الجزائر بمفردها هو تواتر المعلومات عن كنوز القصبة واموال الخزينة الجزائرية ، واقتناع المسؤولين الفرنسيين ان تلك الكنوز كافية لتغطية تكاليف الحملة .

وقد تم اتخاذ هذا القرار في اجتماع عقده مجلس الوزراء الفرنسي يوم ٣١ جانفي ١٨٣٠ .

الباب الرابع عشر

الادارة الجزائرية في العهد التركي

- **أعضاء الديوان .**
- **خزينة الدولة .**
- **تصنيف السكان .**
- **التقسيم الاداري .**
- **بايلك تيطري .**
- **بايلك الغرب .**
- **بايلك قسنطينة .**
- **طبيعة النظام الاداري التركي .**

الادارة الجزائرية في العهد التركي

وضع الأتراك في الجزائر ديوانين : الديوان الخاص ، وهو مجلس الدولة ، والديوان العام وهو المجلس العمومي . وقد سبق لنا أن ذكرنا أعضاء الحكومة . أمـــا أعضاء الديوان فهم : الداي – الخزناجي – آغا الهلالين أو آغا سركاجي – وكيل حرج البحرية وتحت امرته امير البحر والرياس وقائد المرسى ، واثنا عشر بلوك باشي يحملون مفاتيح المخازن التي تجمع لوازم البحرية – الكاهية وهو المكلف بأمن مدينة الجزائر وحراستها – الياباشين ، وهم الذين يرتقون إلى رتبة الكواهي . البلوك باشين وهم الضباط السامون – آغا الصبايحية . الاوداباشين وهم ضباط كبار .

ولا يتقاضى الداي مرتباً إلا ما يتقاضاه على رتبته العسكرية ، لكنه يتقاضى هدايا ضخمة سواء من البايات او من القناصل الأجانب ، ويطلق عليها اسم « العوايد » وقد كانت تقاليد الديوان – التي تقوم مقام القانون – هي منع الداي من الزواج ، إلا ان الديوان يتساهل أحياناً ويبيح للداي أن يتزوج ، لكن الداي يتعين عليه في هذه الحالة أن يسكن زوجته أو نساءه خارج دار الامارة . وأساس هـذه الفكرة هي ان الداي يعتبر أباً لجميع الجنود في البلاد ، فلا يحق له أن يكون أباً لأولاد آخرين ، وقـد تزوج الداي علي باشا ، وأسكن زوجه في منزل ملاصق لدار الحكومـة (وهو مقر وزارة السياحة الآن) وفتح بين الدارين باباً ليجتاز من احداهن للأخرى بسهولة ، فتصادم من أجل ذلك مع الديوان ، وألزمه الديوان إغلاق الباب فنزل عنـد آمر الديوان وسد ذلك الباب .

* * *

أما خزينة الدولة الجزائريـة ، التي أسالت لعاب اوربا ، فهي عبارة عن دهاليز

مقوسة تحت الأرض ، وبابها يفتح في صحن الدار التي يجتمع بهـــا الديوان . وعلى باب الدهاليز مقاعد خشبية يجلس عليها باستمرار ستة عشر نوبتجياً . والخزناجي هو وحده الذي يرخص في الدخول للخزنة . ومفتاح الخزنة يوضع عند الداي ، الذي يسلمـــه في كل صباح للخزناجي . ويتولى الخزناجي تعيين موظفَين من أهل الجزائر يطلق عليهمـا لقب « الصبايحي » لعد النقود الداخلة للخزنة أو الخارجة منها . وفي هذه الخزنة توضع السيوف الذهبية والخناجر والبنادق المرصعـــة والحلي والجواهر واليواقيت التي ترجع للدولة عندما يموت أحد كبراء الديوان .

ومعروف ان المداخيل القارة للدولة الجزائرية تتمثل فيما يدفعه البايات كل عام ، وما تدره التجارة مع الخارج وجراية اليهود بالاضافة إلى المغانم التي يكتسبها الرياس في غزواتهم ، إلى « المعاليم » التي تدفعها دول اروبا وأميركا لاتقاءهجومات القراصنة .

تصنيف السكان .

كان سكان الجزائر ، في عهد الأتراك ، ينقسمون الى قسمين :

١ — أهل المخزن .

٢ — الرعية .

فأهل المخزن هم رجـال الادارة والحكم من عسكريين وموظفين مدنيين وأصحاب الامتيازات وكبار الملاكين . وباختصار أن اهل المخزن هم الذين تتشكل منهم الطبقـــة الحاكمة التي تشتغل وتعيش على حساب الآخرين الذين تتكون منهم الرعية .

فالرعية إذن هم أفراد الشعب الذين يمكن لأهـل المخزن استخدامهم وتجنيدهم في كل وقت ؛ فهم تحت تصرف أهل المخزن ورهن أوامرهم .

وهناك صنف ثالث من السكان لا يدخل في هذين القسمين ، وهو القسم الذي لا يخضع لسيطرة الدايات مباشرة ، لأنه تابع لامراء مستقلين ، يـدفعون أتاوة للداي ، في مقابل

احتفاظهم بنوع من الاستقلال الذاتي . وهذا القسم تارة يكون متحالفاً مع الأتراك وتارة تحدث بين الجانبين اصطدامات ومعارك، وهؤلاء الامراء أو الشيوخ، وان كانوا استطاعوا الاحتفاظ بنوع من الحكم الذاتي ، لكنهم لم يتمكنوا من القضاء على الحكم التركي لأنهم كانوا متفرقين ، ولم يحاولوا توحيد كلمتهم ، ولو ان أولاد سيد الشيخ ، وشيوخ عمور ، وأولاد مختار والمقراني وبيت بوعكاز ، وشيخ الحنانشة ، وحدوا كلمتهم لاستطاعوا بسهولة أن يتخلصوا من الحكم التركي ويقيموا حكماً جزائرياً أصيلاً .

وقد أدرك الأتراك هذا الخطر الذي يشكله اتحاد هؤلاء الامراء ، ولذلك بذلوا كل ما في وسعهم من وسائل سياسية واغراءات ومناورات للحيلولة دون أن تلتقي كلماتهم ودون أن تتوحد جهودهم ، ومن أجل خلق احقاد ومشاحنات وصفوف متعارضة تقتل في المهد كل محاولة توحيد .

فقد كان الاتراك مثلاً يعمدون دائماً إلى خلق منافسات بين أفراد البيت الواحد ، ويبذلون الوعود والاعانة لأضعاف الفروع شعبية ، حتى إذا انتصر الفرع الذي أيدوه ، أصبح في قبضتهم واصبح من السهل محاربته — ان هو حاول الخروج عن طاعتهم — بعنوان الخيانة أو غير ذلك من وسائل الدّسّ والكيد .

ومن السهل أن نتصور سخط الجماهير الشعبية على نظام مثل هذا يعيش على عرق ودماء الكادحين في الداخل ، وعلى موارد القرصنة في الخارج . وطبعاً لم يكن راضياً على هذا النظام إلا أهل المخزن الذين يتركبون من :

— أصحاب الامتيازات . فهناك وظائف تدر على صاحبها امتيازات معينة . وتمكنه من امتلاك أراض ومزارع طيلة وجوده في الوظيفة .

— المخازنية الذين تتولى الدولة تجهيزهم بالسلاح والمركوب والذين يتمعون باعفاء اراضيهم من الضرائب .

— وهناك صنف آخر من المخازنية لا يتمتع إلا بامتيازات ضئيلة ، لكنه يستطيع بوصفه خادماً مباشراً للبايلك ان يحقق ارباحاً ضخمة بوسائل شرعية وغير شرعية يسهلها

له تمتعه بحماية « البايلك » التي لا تمنح لافراد الرعية .

* * *

اما المناطق التي كانت خاضعة لامراء او شيوخ يتمتعون بنوع من الحكم الذاتي مثل بعض مناطق القبائل . ومثل بوسعادة وتغرت والاغواط وعين ماضي ، ومثل بعض القبائل الرحل الذين يدفعون مغارم للاتراك مقابل الترخيص لهم في التنقل داخل المناطق الخاضعة للادارة التركية — مباشرة ، من اجل المتاجرة — هذه المناطق تعد اصنافاً اجتماعية مختلفة من السكان لا يمكن حصرها على وجه الدقة ، لعدم وجود نظام اداري دقيق يحكمها ، لكن يمكن التقول بصفة عامة ، انها كانت تتركب من :

— الجواد او الفرسان الذين ينتمون غالباً الى عائلة الامير او الشيخ .

— ثم يأتي الفرسان الذين لا ينتمون الى عائلة الامير او الشيخ .

— المحاربون الذين يعتمد عليهم بيت الشيخ في الدّفاع عن ذاتيته وامتيازاته وقد يقل عدد المحاربين في بعض الجهات بحيث لا يشكل إلا دائرة الشيخ .

— في الدرجة الرابعة تأتي جمهرة الفلاحين الذين يدفعون الضرائب للامير او الشيخ ، ومنهم يجند الامير او الشيخ فرسانه .

— في الدرجة الخامسة تأتي احياناً طبقة تتكون من قبائل يطلق عليها وصف « الآدمية » وهي اقل درجة اجتماعية من طبقة الفلاحين . ويبدو ان هذا الوضع يَرْجِعُ الى اسباب غير معروفة ، او الى معارك تقادم عليها الزمن وتنوسيت ، اصبحت هذه القبائل على اثرها ، في هذا الوضع الاجتماعي المتدهور الذي يحكم عليها بان تدفع المغارم والرعاة فقط ، دون المقاتلين والمحاربين .

***

والى جانب هذه التقسيمات والاصناف الاجتماعية ، كانت توجد مناطق لا يمكن

تحديد وضعها السياسي على وجه الدقة ، وكان يطلق في العاصمة ، على هــذه البلاد اسم « بلاد الخلا » او « بلاد البارودة » لانها كانت موضوع محـاولات توسيعية من طرف الادارة المركزية او من طرف المشائخ والامارات .

التقسيم الاداري :

على هذا التقسيم او التنظيم السياسي والاجتماعي وضع الاتراك تقسيما ادارياً يوجـد في كل قسم منه اهل المخزن والرعية .

١ ـ دار السلطان :

فهناك اولا دار السلطان ، وهي المنـاطق الموصولة مباشرة بالداي ، وهي تشتمل جغرافيا على خمس مدن هي : الجزائر ، البليدة ، القليعة ، شرشال ، ودللس . كا تشتمل على « الاوطان » الموضوعة تحت اوامر القواد الاتراك التابعين رأساً للآغا . الذي هــو قائد جيش الداي .

وخارج هذه المناطق ، توجد قبائل او جماعات توضع مباشرة تحت اوامر الآغا ، او تحت اوامر خوجة الخيل . وهي قبائل تكون قـد طالبت بان توضع مباشرة تحت حماية الداي ، تهربا من سلطة الباي .

وتختلف وضعية الاوطان بعضها عن بعض ، فالاوطان التي تشكل منهـا ضواحي مدينة الجزائر لم يكن تركيبها الاجتماعي حسب القبائل والاعراش، ولكنها كانت مقسمة تقسيما ادارياً دقيقاً . وكانت الخلية الاساسية للتقسيم الاداري في ضواحي العاصمـة « الحوش » الذي قد يكون عبارة عن مزارع يملكها موظف سام او قائـد عسكري او احد افراد طائفة الرياس ، كما قد يكون متركباً من عدة منازل وقطع صغيرة يملكها فلاحون فقراء .

٢ ـ بايلك تيطري :

عاصمته المدية ، وباي تيطري هو أول البايات في نظـام التشريفات ، لكنه أقلهم

شأناً من حيث الأهمية السياسية والاقتصادية التي تكتسبها المنطقة التابعة له ، بالرغم من فخامة حرسه ، واعلامه السبع .

بل ان باي تيطري لا يحكم المدية ، عاصمته ، اذ جعلها الأتراك تحت ادارة حاكم خاص تابع رأساً للديوان الأكبر في مدينة الجزائر .

ومما قلل من أهمية باي تيطري ، ان الحاكم الحقيقي للمنطقة هي عائلة الشيخ المختار ، لكن الأتراك عرفوا كيف يفرقون هذه العائلة الى « صف غربي » و « صف شرقي » يتطاحنان دوماً . فتارة يستميل الداي رأس الصف الغربي ويستشيره في كل شؤون بايلك تيطري ، وآنذاك يفر رأس الصف الشرقي الى الصحراء حيث لا تناله جيوش الداي ، وتارة يستميل الداي رأس الصف الشرقي فيفر منافسه الى الصحراء ... وقد تكررت هذه اللعبة الى ان أصبحت مألوفة للسكان وصارت جزءاً من الحياة السياسية في تيطري .

أما القوة العسكرية التي كان يملكها باي تيطري فكانت تتمثل في :

– خمسين صبايحي وخمسة عشر كاحلي يتركب منهم حرسه الخاصة .

– نوبة المدية التي تتركب من خمسة صفارة (مائة وعشرون جندياً) .

– قوة احتياطية من مائتين « زبنطوط » أو « كسورجة » في برواقية .

– حامية سور الغزلان التي تتركب من ثلاثين جندياً وستين احتياطياً .

وقد كان بايلك تيطري مقسماً الى اربع قيادات هي :

١ – قيادة تل الظهراوية .

٢ – قيادة تل القبلية .

٣ – قيادة الديرة أو سور الغزلان .

٤ – قيادة الجنوب ، وتشتمل على القبائل الرحل واتباع أولاد مختار .

٣ – بايلك الغرب :

كان الطابع المميز لتنظيم وهران هو الطابع العسكري ، نظراً للمنافسات والحرب التي نشبت بين الأتراك وبين سلاطين المغرب الأقصى من جهة ، ونظراً لمتطلبات الدفاع العسكري ضد القاعدة الحربية الاسبانية في وهران ومرسي الكبير . ومن هنا كانت فرق بايلك وهران دائماً على أهبة الدفاع والحرب . وقد تأثرت الزراعة بهذا الوضع ، كما تأثر العمران ، اذ لا وجود للاستقرار خارج المدن الكبيرة أو الجبال المنيعة ، وأصبح مصدر الثروة الأساسي هو تربية المواشي ، التي يمكن الانتقال بها عند نشوب معركة أو مقدم غارة .

وهذا الوضع هو الذي جعل تنظيم بايلك وهران أكثر سهولة من جهة ، وأشد قوة من جهة اخرى . فباستثناء ، أولاد عامر ومجاهر الذين كانوا تابعين لادارة باي الغرب مباشرة ، كان بايلك وهران مقسماً بين ثلاثة مسؤولين كبار يستلمون الضرائب ويعينون القياد وهم :

– آغا الدواير .

– آغا الزمالة .

– خليفة الباي .

والواقع انه كان يوجد أربع آغوات ، لكنهم كانوا يتقاسمون العمل بحيث لا يباشره الا اثنان فقط ، في الوقت الذي يستريح فيه الآخران . وقد كان آغا الزمالة وآغا الدواير مجبرين على تنسيق العمل بينهما ، لان السكان الواقعين تحت نظر هذا متداخلون مع السكان الواقعين تحت نظر ذلك . وقد تعمد الأتراك إيجاد هذا التداخل حتى اذا فكر أحدهما في التمرد ، أمكن احباط مشروعه بواسطة الآخر في كل نقطة من نقط سلطته .

وتشتمل مدينة وهران – التي أصبحت هي عاصمة بايلك الغرب منذ ١٧٩٢ ، على نوبة عاملة تتركب من عشر سفرات .

ويشتمل مخزن آغا الدواير على :

— ٤٧٠ فارسا في الدواير .

— خمسين فارساً في الغمرة .

— ست وعشرون فارساً في أولاد عامر وأولاد سيدي مسعود .

ويشتمل مخزن آغا الزمالة على : ٣١٧ فارساً .

وتشتمل مستغانم على خمس سفرات .

— مخزن الغرابة ٣١٣ فارساً .

— هاشم دروغ : خمسون فارساً .

— برحية الصراط : خمسمائة فارس .

— برحية الجبالية مائة فارس وثمانمائة من المشاة .

— معسكر : ثلاثة سفارى .

— هاشم : الفان فارس (تابعان لآغا الدواير) .

بايلك قسنطينة .

يتميز بايلك قسنطينة بأن سلطة الأتراك فيه لم تتمكن في وقت من الاوقات من من السيطرة على منطقة الشرق الجزائري . فقد كان مشائخ العرب أو رؤساء القبائل ينظمون باستمرار الثورات في وجه الحكام الأتراك . واذا استثنينا عهد صالح باي ، الذي يتطلب دراسة خاصة ، نجد ان بايلك قسنطينة لم يخل في وقت ما من الثورات التي تعتمد دائماً على وجود سخط شعبي ضد الحكم التركي .

ونظراً لمناعة الجبال أو اتساع الصحارى التي لجأ اليها الثوار، فان الأتراك قد يئسوا من التغلب على هذه الثورات بواسطة القوة العسكرية ؛ فعمدوا الى الدس والكيد واستعمال الرشوة والفساد لتحقيق ما عجزت عن تحقيقه قوة السلاح من تفرقة تضمن لهم استمرار

السلطان . ومن بين الوسائل التي استعملها الأتراك في هذا المجال هي دفع الجماعـــات التي يتمكنون من هزمها في السهول – دفعها واجلاؤها بعيداً عن أراضيهـــا ، واقطاع تلك الأراضي لمن يتعاون معهم . ونتج عن هذه السياسة ان تشكلت حول مدينة قسنطينـة أملاك واسعة تابعة للبايلك ، يُمكنُ من استغلالها من يكون الاتراك في حاجة اليه . وقد منح حق استغلال هذه الاراضي لضباط الباي ورؤساء مخزنه .

ولم يكن هناك وسطاء رسميون بين الباي وقياد القبائل الخاضعة للاتراك ، أو المشائخ الذين تحالفوا معهم . وقد كان خليفة الباي شخصاً لا أهمية له ، يتمثل دوره فقط في حمل محصول الضرائب الى العاصمة .

وتشتمل مدينة قسنطينة على خمس سفرات عاملة بهـا ثلاثة وسبعون جندياً ، وعلى المدفعية ، وهي تابعة لدار الباي . كما تشتمل على ثلاثين مكاحلية وخمسين مزراقية تابعين للباشكاتب ، وعلى ٦٠ شاوشاً .

– وهناك مخزن الحراكتة الذي يوضع على رأسه دائماً قائد من أقارب الداي، ويشتمل على ثلاثمائة فارس.

ويشتمل مخزن الحراكتة على عين البيضاء وصدارته ومسكيانة الخ ...

– وهناك دوار الآغا الذي يشتمل على الف فارس وهو يشمل منطقة فج مزالة وعين التّين وعين عبيد .

– والزمول ويشتمل على خمسمائة فارس .

– وأولاد عبد النور الذين يضعون الف فارس من خيرة الفرسان تحت امرة قائد تركي.

– التلاغمة وتشتمل على مائة فارس .

– مخزن اولاد فاضل : مائتا فارس .

– صحارى شيخ العرب ثمانمائة فارس .

– بسكرة : اربع سفارى .

– تبسة سفاريان .

عنابة : خمس سفارى .

– بجاية : خمس سفارى .

– حمزة : (البويرة) سفارى واحد .

***

ان هذه اللوحة تعطي صورة مصغرة عن كيفية التقسيم الاداري الجزائري ، في العهد التركي . والواقع اننا لا نستطيع أن نعطي في نطاق هذا الكتاب ، صورة مفصلة شاملة عن الادارة الجزائرية وتقسيماتها وتفريعاتها وأصنافها ، فذلك عمل يتطلب دراسة مستقلة. لذلك اقتصرنا على ذكر بعض المراكز الادارية، كما اقتصرنا في ذكرنا لهذه المراكز الادارية على ذكر الصنف الأول منها فقط ، وهو صنف المخازنية .

وفيما يلي ملخص عام لمختلف الأقسام الادارية موزعة حسب الأصناف من جهة ، وحسب التقسيم الاداري من جهة اخرى :

	دار السلطان	تيطرى	وهران	قسنطينة
المخزن	١٩	١٤	٤٦	٤٧
الرعية	١١	٢٣	٥٦	١٤
الاقسام التابعة لامراء متحالفين مع الأتراك	٢٠	١٢	٢٩	٢٥
الاقسام التابعة لأمارات مستقلة	٣٠	١٣	٣٦	١٣٨

طبيعة النظام الاداري التركي :

يتبين من الملخص السابق أن الجزائر احتفظت إلى حد ما في عهد الأتراك بالتقسيم الاجتماعي الذي حدث في الجزائر خلال الحقب التاريخية التي سبقت العهد التركي ، لأن الأتراك اكتفوا بأن وضعوا فوق ذلك التقسيم الاجتماعي ، تقسيماً ادارياً مرناً ، يتميز بمحاولة التكيف حسب ما تفرضه الأحوال المختلفة . فالنظام التركي يفصل اسلوب الإدارة المباشرة عندما يكون ذلك ممكناً ، وهو ما حققه في المنطقة التابعة لدار

السلطان ، وبعض مناطق بايلك تيطري التي كانت اولى المناطق التي استقر بها الاتراك ويكتفي بوضع مسؤول تركي في أعلى السلم تاركاً لأبنـــاء البلد حرية تصريف شؤونهم الداخلية ان اصطدم بمعارضة قوية بل ويصل إلى حـــد التفاهم مع بعض امراء ومشائخ القبائل التي تتشدد في التمسك باستقلالها .

ويمكن القول بأن هذه المرونة هي التي مكنت من توحيد الجزائر دون توحيدها ، أي ان مرونة الادارة التركية حققت توحيد الجزائر ترابياً في نطاق حدود تكاد تكون هي الحدود التي وجدها عليها الفرنسيون ابان الاحتلال .

لكن هذه المرونة نفسها – التي اضطر اليهـا الاتراك اضطراراً – هي التي حالت دون تحقيق الوحدة المعنوية للجزائر في العهد التركي كما يجب . اذ ظلت الجزائر في ذلك العهد محتفظة بأصناف اجتماعية مختلفة ، تذرع بها كثير من المؤرخين الاوربين واعتمدوها في فكرتهم القائلة بأنه لم يكن هناك وجود للأمة الجزائرية في العهد التركي وانهـــا كانت فقط بصدد التكوين . وانه لم يكتمل نموها عندما احتل الفرنسيون الجزائر .

والغريب ان اولئك المؤرخين يستعملون في مجال الحكم على تكوين الذاتية الجزائرية، مقاييس نظرية صارمة يهملونها عند الحكم على تكوين الذاتية عند الشعوب والبلدان الأوربية الأخرى .

ان ايجاد إدارة مركزية واحدة ، وتركيز السلطات في يد الديوان الذي يتولى تعيين أو انتخاب الداي ، وتعامل دول اوربا واميركا مع هذا الداي ، والمعاهدات المبرمـــة بينها وبين الجزائر ، يدل على أن الجزائر قد تطورت في العهد التركي إلى أن أصبحت لها دولة بالمعنى الحديث للكلمة .

نعم لا ينكر احد ان الاتراك لم يبذلوا اي مجهود حضاري هدفه هو تذويب تلـك الاصناف الاجتماعية التي وجدوها قائمة ، والتي تختلف من نظام العرش ، الى نظام الجماعة ، الى الاقطاع الى المدن الكبير ، لكن ذلك لا يعني ان الجزائر لم تكن لها اجهزة ادارية . فالنظام الاداري الذي وضعه الاتراك كان عبارة عن محاولة لمركزة الادارة وتحقيق وحدتها الادارية ، ولا ادل على ذلك من ان الفرنسيين انفسهم اكتفوا في مراحـــل معينة من

الاحتلال بالاخذ بالتقسيم الاداري التركي . لكن الذي حال دون ان يتم التطوير الذي بدأ في عهد الاتراك ودون ان يتواصل الى مداه الكامل ، هو ان السياسة التركية كانت قائمة من أول استقرارها في الجزائر على التخوف من السكان الجزائريين وحرمانهم من مناصب الإدارة والحكم ، وقد بلغ هذا التخوف درجة هستيرية ، اذ ان الاتراك لم يكونوا يثقون حتى في الكراغلة الذين يعتبرونهم جزائريين اكثر مما هم أتراك ، وعلى هذا الأساس راحوا يجندون باستمرار الجنود من الخارج ، من أزمير ومن قرمان ، مما جعل الطبقة العسكرية الحاكمة تتجدد مع كل جيل .

هذا هو السبب الذي حال دون ان يندمج الأتراك في المجتمع الجزائري ، رغم ان العامل الديني - الذي كان هو أهم محرك سياسي في ذلك العصر وبعده — كان يلعب لفائدة الاندماج والذوبان في المجتمع الجزائري . وفي هذا المجال لا يستطيع أي ناقد أن يغفل الدور السلبي الذي لعبته القسطنطينية ، كما لا يستطيع أن يغفل عن تسجيل مسؤولياتها الضخمة في هذا الوضع الذي كان من بين العوامل الأساسية التي مهدت للاستعمار الفرنسي المباشر .

وهذا السبب نفسه ، استقدام الجنود الأساسيين للسلطة المركزية من الخارج ، هو الذي اجبر الأتراك على اتخاذ تلك المرونة التي حالت دون ان تتحقق الوحدة المعنوية للجزائر ، ودون ان تتطور الجزائر اجتماعياً تطوراً منسجماً مع تطور كيانها كدولة لها وجود دولي ، لأن استقدام الجنود من الخارج ، يجعل عددهم محدوداً إلى درجة تجعلهم عاجزين عن أن يفرضوا سلطانهم بالقوة على كامل الجزائر ، ومن هنا كانت تلك المرونة التي ترتبت عليها عواقب وخيمة .

إن محاولة إقامة إدارة مركزية من طرف الأتراك ، على هذا الأساس ، اجبرتهم على سلوك سياسة أدت في الواقع الى لامركزية حرمت الدولة من موارد داخلية هامة ، لأن قسماً كبيراً من الموارد الداخلية كان يذهب إلى صناديق « الوسطاء » بين الشعب وبين الادارة المركزية، إلى درجة ان ميزانية باي قسنطينة او باي وهران كانت تتجاوز ميزانية الداي . فالمحفوظات والسجلات التي عثر عليها الفرنسيون بقسنطينة عام ١٨٣٧

تكشف ان مداخيل الضرائب بلغت ٩٤٠١٣٠ بياستر ، في حين ان الكشوف التي وجدها الفرنسيون عند خوجة الخيل عند احتلالهم للعاصمة دلت على أن مداخيل الضرائب الى خزينة الداي لم تتجاوز في نفس الفترة ٢٩٦,٠٠٠ بياستر .

وقد أكد القنصل الأميركي بالجزائر ، شالر ، عام ١٨٢٢ ان البايات لا يدفعون للداى الا حوالي عشرين في المائة من مداخيلهم .

ذلك ان الوسطاء على كل المستويات يأخذون نصيباً لأنفسهم من محصول الضرائب والزكوات ، مثل كبار الضباط ، ومثل القياد وشيوخ القبائل ومثل الموظفين السامين . وقد أدت هذه الروح الى انتشار الرشوة ، خصوصاً وان النظام التركي لم يكن يدفع لموظفيه جرايات قارة ، بل كان يمنحهم امتيازات عززت بدورها روح الرشوة والفساد .

ومما زاد في خطورة الوضع ، ان ضآلة الموارد الداخلية التي تصل الى خزينة الداي ، صرفت النظام التركي الى التفكير في موارد خارجية ، مثل موارد الاحتكارات التجارية ، ومثل موارد القرصنة ، وفرض الاتاوات على دول اوروبا واميركا ، كما صرفت ضآلة الموارد الداخلية العادية ، النظام التركي إلى التفكير في زيادة الضرائب . وقد لعب هذان الأمران : التفكير في الموارد الخارجية ، وزيادة الضرائب دوراً كبيراً في أضعاف كيان الدولة والتمهيد للاحتلال .

ذلك ان القرصنة وفرض الاتاوات على الدول الأجنبية ، كان نظاماً معمولاً به في فترة معينة من التاريخ . لكن التطور الذي حدث بعد ذلك في اوروبا جعل القرصنة وما تستلزمه من فرض الاتاوات على الدول الاجنبية طريقة لم تعد تتماشى مع الوضع الدولي الذي كان بصدد التكوين . ولئن كانت اوروبا قد عرفت كيف تُكَيِّفُ اطماعها حسب اشكال تتماشى صوريا مع الوضع الدولي الذي كان بصدد التكوين فان النظام التركي غفل عن هذه الحقيقة مدفوعاً الى هذه الغفلة ببحثه الاعمى عن موارد وجوده .

وهذه الغفلة عن ادراك هذا التطور هي التي ادت الى تأليب دول اوروبا على الجزائر

ومهدت للاحتلال الفرنسي .

وفي المجال الداخلي ، ادى ارتفاع الضرائب الى تعزيز السخط الشعبي على النظام التركي . والى تهرب السكان من دفع الضرائب جملة واحدة ، وهو امر كانت له اوخم العواقب الاقتصادية والاجتماعية بالاضافة الى العواقب السياسية .

وهكذا نجد ان الوسيلتين اللتين عمد اليهما النظام التركي لتمويل خزينته وضمان استمراره ، هما بالذات اللتان لعبتا دوراً أساسياً في القضاء على النظام التركي والتمهيد للاحتلال الاجنبي ، لان السخط الشعبي في الداخل واندلاع الثورات في كل مناطق البلاد كان قد قضى على كيان الدولة داخلياً حتى اذا جاءت محاولة الاحتلال الأجنبي اصطدمت بمجرد صورة ، وهذا ما يفسر الانهيار السريع للنظام التركي بالجزائر .

الباب الخامس عشر

سقوط النظام التركي

- التطور الاقتصادي في عهد الدايات .
- الامكانيات الزراعية .
- الوضع الاجتماعي .
- الحياة الثقافية .
- عوامل انهيار الاسطول الجزائري .
- استسلام الداي .

التطور الاقتصادي والاجتماعي

إذا بحثنا عن نقطة الانطلاق لسلسلة العوامل التي أثرت على تطور الوضع السياسي فالاقتصادي فالاجتماعي بالجزائر ، نجد انها تتمثل خاصة في محاولات الاحتلال الاسباني لشواطىء الجزائر ، ومحاولات التسرب الى المناطق الداخلية منها .

لان التهديد الاسباني ، كما تبينا ذلك في الفصول الاولى ، هو الذي دفع الجزائريين الى الاستنجاد بالاتراك . وجاء استقرار الأتراك في تلك الظروف بالذات ، فطبع الوضع السياسي بطابع كانت له نتائج اقتصادية واجتماعية بعيدة المدى .

ثم ان استقرار الاسبان في وهران ومرسى الكبير الى عام ١٧٠٨ ، وعودتهم اليها في ١٧٣٢ الى١٧٩١جعل من المناطق المحيطة بوهران جهة غير مسكونة ولا مستغلة فلاحياً. وكانمن نتائج هذا الوضعهو انتشار المواشي وما تستلزمه منمراعي،ومعروف انالاعتماد على المواشي كمصدر للثروة ، وان كان يجعل السكان في مأمن من غارات الاسبان ، إذ يستطيعون الفرار بمواشيهم في وجه العدو فور السماع بتحركاته ، فانه من جهة اخرى يؤدي الى انعدام الاستقرار في هذه المناطق التي تسمى « بلاد البارود » .

على ان هذا العامل كان مبطناً بعامل آخر عزز الانصراف عن الاعتناء بالموارد الداخلية : فاستقرار الاسبان في شواطىء المغرب العربي أعطى للغزوات البحرية دفعة جديدة جعلها هي الطابع المميز لذلك العصر .

ولئن كانت الغزوات البحرية ، في مبدأ الأمر ، رد فعل شرعي ضد الاسبان وضد كل المحاولات الصليبية، فان ما كانت تدره من اموال وموارد ، جعل العناية بها تتحول من الهدف الأساسي الذي كانت من أجله وهو وضع حد للتوسع الأوربي في شمال افريقيا ، إلى ما تدره من أموال وموارد . وهذا التحول هو ما أشرنا اليه في فصل سابق من تحول

عقلية الجهاد إلى عقلية القرصنة .

وقد كان من الممكن أن تزدهر الفلاحة في المناطق البعيدة عن نقط الأحتلال الاجنبي ، لولا ان السياسة الجبائية التركية ، كانت تشتمل على مظالم اجتماعية جعلت الفلاحين ينصرفون عن الفلاحة ، ويفضلون تربية المواشي اذ يستطيعون أن يفروا بهـــا في وجه الجباة ، دون الحبوب التي تشدهم إلى مكان معين وتجعل منهم عبيـــد الأرض وعبيد الجباة .

وهذا لا يعني ان الجزائر لم تكن بها فلاحة مزدهرة . كلا. فلا نعدم الشهادات العديدة التي تسجل ازدهار الفلاحة قبيل الاحتلال الفرنسي ، ولكنه يعني ان الثروة الزراعيــة ، كان من الممكن ان تكون اهم بكثير مما كانت عليه لولا تلك السياسة الجبائيـــة الظالمة .

ويظهر هذا التأثير على الأخص في ميدان المزروعات الصناعية مثل القطن ، والتين – فيما يتعلق بتربية دود القز – فهذه المزروعات لم تزدهر بكيفية تسمح بقيام معامل نسيج عديدة بحيث تكون نواة لتطور صناعي هام .

وهذه السياسة الجبائية الظالمة أثرت أيضــاً على تطور التجارة في المواد المتفرعة عن الفلاحة فحرمت الخزينة الجزائرية من موارد هامة ، فالكميات الهامـــة من الجلود والأصواف والشمع والزيوت والحبوب التي كانت موضوع المبادلات التجارية ، كانت في غالب الأحيان تهرب بواسطة السوق السوداء حتى لا تقع تحت طائلة الضرائب الفادحة .

وقد لاحظ فونتور دي بارادي ، عند زيارته للجزائر في عام ١٧٩٠ ان « الأراضي شديدة الخصب ، لكن أكثر من نصف الأراضي غير مستثمر » .

ان سوء استثمار الأرض هــذا ، هو الذي حال دون تعميم أساليب الري والسدود ، مثل تلك التي كانت في جهات تلمسان وندرومة والمدية ومستغانم ومسيلة وميلة وحامــة قسنطينة وغليزان وسيق .

* * *

ولسنا في حاجة إلى التنصيص على نتيجة هذا الوضع في الناحية الاجتماعية ، إذ حال

دون تطور العمران ودون ازدهار الفنون والصناعات الجميلة . ذلك ان انتشار اسلوب الرحيل جعل الصناعات اليدوية في المدن تفقد أسواقاً هامة ، إن موجات الهجرة من الأندلس إلى شمال افريقيا حملت للجزائر نشاطات هامة مثل صناعة الحرير ، وصياغة الذهب وصناعة النسيج والساعات والصناعة الخزفية الخ ..

لكن قيام الحروب بين الجزائر والدول الاوربية حال دون تصدير هذه المنتوجات إلى الخارج بكيفية منتظمة ، كما ان استقرار المهاجرين بكل من تونس والمغرب الأقصى ، حال دون تسويق هـذه المنتوجات في هذين البلدين ، فلم تبق إلا الأسواق الداخلية التي حكمت عليهـا فداحة الضرائب بالنضوب ، وهو نضوب اثر على مستوى منتوجات الصناعات اليدوية ، لأن انعدام أسواق واسعة يحول دون أن تتطور تلك الصناعات إلى الدقة ويصبح هم أصحابها ليس هو البحث عن الأبعاد الجماليـة ، ولكن عن تخفيض التكاليف ، ولذلك لم تلحق الصناعات اليدوية – في معظم الأحيان – بالمستوى الفني ، بل انحطت الى مستوى الأسواق الريفية المحدودة الامكانيات . وقد ظهر ضيق نطاق الأسواق الريفية في المواد التي تتعرض للفساد بسرعة . فقد حدث أن صيادي دللس يقذفون بالحوت إلى البحر لانعدام الشاري .

وهذا هو السبب الذي يفسر اقتصار هذه الصناعات على العاصمة والمدن القريبة منها مثل شرشال ودللس والقليعة ، أما تلمسان فقد كان لها وضع خاص باعتبارها عاصمـة قديمة احتفظت بمستوى اجتماعي لا بأس به .

وقد كان من الممكن أن تعمل طبقة الاقطاعيين على تطوير هذه الصناعات اليدوية وازدهارها ، بما تملكه من أموال ، لكن ذلك لم يتم ، لأن القرصنة كانت تضع في متناول أفراد هذه الطبقة أشياء ثمينة بأثمان رخيصة نسبياً .

* * *

وهناك ظاهرة بارزة تسجل التدهور الاقتصادي في العهد التركي هو انعدام تلـك الاتصالات التجارية التي كانت تربط بين المغرب العربي من جهة وافريقيا السوداء من جهة اخرى . وقد أثر فقدان هذه الاتصالات على الأسواق الداخلية الجزائرية ، لان النظـام

التركي أراد تعزيز المركزية الادارية بمركزية اقتصادية ، كان من نتيجتها ان ذابت عدة أسواق داخلية بعيدة عن العاصمة ، والأسواق الوحيدة التي احتفظت بأهميتها هي التي كانت تتاجر مع البلدان المجاورة مثل قسنطينة التي كانت لهـا علاقات تجارية مع تونس ومثل تلمسان التي كانت تتاجر مع المغرب الاقصى .

ومما زاد في تدهور الاسواق الداخلية وحال دون أن تتطور تطوراً منسجماً نحو وحدات تجارية كبرى ، هو أن النظام السياسي التركي وما ولده من مظالم وما أدى اليه من اضطرابات حال دون تأسيس شبكات مواصلات هامة كان من الممكن ان تفيد منهـا الجزائر وأن تجعلها أقدر على مواجهة مطالب العصر ، وأكثر تسلحاً لحل مشاكله ، وأدى انعدام هذه الشبكات بالاضافة الى انتشار الاضطرابات الى انطـواء المناطق الريفية على نفسها .

* * *

اما التجارة الخارجيـة فعلى الرغم من تنوعها (حبوب – شموع – أصواف – زيوت الخ ...) فان الأرباح الضخمة التي كانت تدرها ، كانت تذهب في معظمهـا الى التجار اليهود والى كبار الموظفين والضباط الأتراك الذين لم يكن يهمهم تطوير وسائل الانتـاج وتجديدها ، بقدر ما كان يهمهم تكديس الثروات. ومعنى ذلك بعبارة اخرى ان التجارة الخارجية لم تكن تدر أرباحاً هامة على المنتجين ، وبالتالي لم يكن هناك محرك اقتصادي يدفع المنتجين الى تجديد وسائل توسيع أسلوب الملكية الاقطاعية .

ومما زاد في خطورة الوضع ان الملكية الاقطاعية توسعت في نفس الوقت الذي نضب فيه مورد من أهم موارد العمل في النظام الاقطاعي وهو عمل العبيد ، مما أدى الى اختلال اقتصادي كانت له نتائج سياسية واجتماعية .

يضاف الى ذلك أن تناقص موارد القرصنة ، وانحصـار التجارة الخارجية بفعل الاحتكارات الاجنبية ، جعل أصحاب الامتيازات من رجال الحكم وحلفائهم يتوجهون الى الأرض يستمدون منها ثرواتهم اما مباشرة واما بواسطة ما يفرضونه على أصحابها من فادح الضرائب . وهذا التطور أدى الى القضاء على طبقة المدن التي كانت تكسب ثروتها

من الاقتصاد التجاري ، كما أدى الى القضاء على قاعدتها العقارية : لان طبقة التجار في المدن ، كانت تعزز مكانتها الاقتصادية باملاك عقارية تجعلها بمثابة القاعدة الخلفية .

ولم يستفد من هذا التدهور الا العائلات الاسرائيلية التي كانت تلعب دور الوسيط بين الداي وبين أصحاب الأعمال ، وقد سجل القنصل الأميركي ، شالر ، المكانة التي احتلها اليهوديان ، بوخريص وبوشناق ، إذ قال عنهما أنهما « كانا وحدهما اللذين يقومان بدور البنوك في الجزائر » .

وهكذا تركت التجارة الجزائرية بين أيدي العائلات اليهودية وبين أيدي بعض التجار الأروبيين الذين كانوا يتعاملون مع الاحتكارات التي تمثل مصالح الداي ومصالح البايات . وبواسطة هؤلاء الوسطاء تمكن الداي من مراقبة الحركة المالية والسيطرة عليها لفائدته وفائدة محيطه ، حائلاً بذلك دون تطور بورجوازية حقيقية ، مثلما وقع في غير الجزائر ، ذلك ان النظام التركي سمح للاجانب بان يحتلوا مكان طبقة بورجوازية جزائرية نامية ، وقد كانت تصرفات أولئك الأجانب تصرفات استعمارية ، اذ انهم كانوا يوجهون الى اروبا رؤوس الأموال التي كدسوها في الجزائر فحرموا الجزائر من أن تفيد من رؤوس الأموال تلك .

تلك هي الخطوط الاساسية التي تحكمت في الوضعية التي كانت عليها الجزائر عند قدوم الاحتلال الفرنسي . فماذا كانت هذه الوضعية ؟

تسبب انقطاع العلاقات الفرنسية – الجزائرية بعد حملة نابليون على مصر ، والحصار الذي فرضه الانكليز على الجزائر ، في قطع الجزائر عن حرفائها التقليديين مثل مرسيليا وليفورن والموانىء الاسبانية ، اما الصفقات التي ابرمتها الجزائر مع الجمهورية الفرنسية الاولى فانها لم تسو كما عرف من الفصول السابقة .

ولئن كانت الحكومة الانكليزية قد تحصلت على امتياز خولها اخذ مكان الشركة الفرنسية التي كانت مستقرة في الشرق الجزائري،فانها قد نقصت من الصادرات الجزائرية الى الخارجية . وهذا في نفس الوقت الذي اتجهت فيه فرنسا الى استيراد القموح من روسيا ، وهي قموح لم تكن خاضعة لضرائب فادحة مثل التي كان يفرضها الدايات على

قموح الجزائر ، بحيث ان الداي عندما قطع العلاقات التجارية مع انكلترا ، تسبب في غلق ما تبقى من الاسواق الاروبية في وجه القمح الجزائري .

وكان من نتائج هذا التدهور الذي لحق التجارة الخارجية الجزائرية ، انه تقلصت مساحات الخضر والبقول التي ظلت قائمة لذلك الحين في السهول القريبة من الموانىء التي كان بها نشاط تجاري كثير لا مثل الجزائر وعنابة وارزيو لان تدهور النشاط التجاري اثر على الوضع الزراعي لتلك السهول وجعلها تتقلص تاركة المكان للمراعي والاعشاب وتربية المواشي .

وهكذا تضاءل حجم الصادرات الجزائرية الى اوربا حتى سجل ميزانها التجاري عجزاً خطيراً جعل الاقتصاد الجزائري في موقف تبعية للاقتصاد الاوربي ، وهي تبعية تسبب فيها ، بالاضافة الى العوامل السابقة ، تواطؤ رجال المال اليهود مع الرأسماليين الاروبيين ، واستهوائهم للداي وتحيطه بعروض مغرية لا تقرأ حساباً لمصلحة مجموع الوطن .

* * *

وقد دفعت هذه المكاسب الضخمة التي حققتها الرأسمالية الاوربية على حساب الجزائر — دفعت البلاد الاوربية الى التفكير في تعزيز سيطرتها الاقتصادية على الجزائر بواسطة اضعاف سلطة الداي في الداخل . وقد رأينا كيف حرك الانكليز ثورة ابن الاحرش ، وليس هناك من شك في ان الفرنسيين لعبوا دوراً كبيراً في ترويج الاشاعات والتكهنات التي كانت تنسب للمرابطين ، حول قرب نهاية الحكم التركي وانتصاب سلطة اجنبية ، وهي اشاعات ورائجات سهلت قيام بعض الثورات المحلية .

وقد اثارت هذه المحاولات ردود فعل تقدمية في الجزائر — كنا أشرنا اليها — حاولت ان تقضي على النظام التركي وعلى ما جره من سيطرة اجنبية على الاقتصاد الجزائري . والغريب في الامر ، هو ان كلا من المحاولات الاجنبية وردود الفعل ضدها ادت عملياً الى نتيجة واحدة خدمت التسرب الاجنبي ، وهي اضعاف الدولة من الداخل والقضاء على هيبتها .

وجاء الحصار الفرنسي في ١٨٢٧ ، فوجه تجارة قسنطينة نحو تونس ، وتجارة تلمسان نحو المغرب ، فعمل على مضاعفة تفكيك التجارة الجزائرية ، مما عزز التفكيك الاداري للبلاد .

الامكانيات الزراعية :

كانت احسن الاراضي واكثرها انتاجاً هي البساتين والاحواش المحيطة بالمدن . وقد سجل الفرنسيون عند احتلالهم للجزائر درجة خصب تلك الاراضي ، فكتب احد ضباطهم يقول مبديا اندهاشه الكبير :

« ان هذه الارض التي قيل لنا انها متوحشة وخالية من السكان ، مغطاة بالمساكن الريفية الجميلة ، تحيط بها البساتين ، وكلها مبنية فوق مرتفعات تتناقض حركاتها المتموجة مع شواطىء بروفنس القاحلة (في فرنسا) .

ان البقول موجودة بكثرة ، وفي كل مكان توجد المياه والينابيع التي تخصب الارض والفواكه موجودة بكثرة » .

وامثال هذه الشهادات كثيرة لا يمكن احصاؤها ، وهي لا تتناول ضواحي الجزائر فقط ، بل تتحدث ايضاً عن المدينة وشرشال وتنس وجيجل وميلة ومليانة وندرومة وحامة قسنطينة وتلمسان .

وتبدو اهمية النشاط التجاري المحلي في الاسواق الجهوية التي تنعقد في ايام معينة من الاسبوع ، بحيث يتمكن كل سكان الناحية من الوفود على السوق والاتجار فيه .

والى جانب هذه الاسواق الجهوية كانت هناك اسواق المدن التي تنظم عند مدخل المدن الكبرى ، ويمكن القول بانه كان هناك نوع من الاتصال بين اسواق المدن والاسواق الريفية ، اما مباشرة عن طريق مقدم سكان الريف بانفسهم الى المدينة ، واما بواسطة الوسطاء من التجار الذين ينتقلون بين الاسواق المحلية ليشتروا منتوجات زراعية وغيرها ويبيعوها في اسواق المدن – لكن عدم وجود شبكات مواصلات هامة حال دون تطور العلاقات بين هذه الاسواق الى اقامة وحدات ومراكز تجارية كبرى ومتطورة . فقد

كانت الطرق الموجودة تقتصر على الربط بين اهم المراكز مثلاً بين الجزائر وتلمسان عبر بوفاريك والبليدة ومليانة ووهران ، وبين الجزائر وقسنطينة . ولكن بالرغم من انعدام شبكات مواصلات هامة يمكن القول بان مجموع مناطق الجزائر كانت تشكل في ١٨٣٠ سوقاً مشتركة .

* * *

اما المبادلات التجارية مع الخارج فقد كانت موجودة مع تونس ومع المغرب ، ومع بعض الشواطىء الاروبية مثل اسبانيا على الرغم من الحصار الفرنسي . وتؤكد « لوحة المراكز الفرنسية » ان ميناء ارزيو كان يصدر سنويا بين ١٥٠ و ٣٠٠ حمولة من الحبوب ، وان نفس الميناء صدر في ١٨١٤ اربعين الف رأس من البقر وجهت الى الجيش الانكليزي في اسبانيا .

* * *

وفيما يتعلق بالصناعات اليدوية تؤكد الشهادات الاجنبية ان الجزائر في ذلك العهد كانت تعرف معظم الصناعات التي تعرفها اروبا مثل الدباغة ،وصناعة الاحذية ، والنسيج قطنا كان او حريراً ، ونجارة وحدادة وصناعة سلاح وصياغة . فصانعو الجلود كانوا ينتجون بالاضافة الى الجلود المعدة للتصدير ، لوازم فرسان المخزن ، والاحذية . كما كان صناع النسيج ينتجون الحياك والزرابي والبرانس والقنادر . وبالرغم من ان هذه الصناعات لم تكن مزدهرة تماماً للاسباب السالفة الذكر فانها كانت تقدر بالقسنطينة فقط بعدة مليارات .

وتدل المباني والمنازل الجميلةالتي كانت قائمة بالجزائر قبيل الاحتلال الفرنسي علىازدهار صناعات الخشب والزجاج وفنون البناء وصناعة الآجر . ويؤكد روزي ان صناعة الخزف كانت تستعمل في الجزائر نفس الاسلوب المستعمل في فرنسا . وتدل اساليب وقنوات الري التي كانت كلها تحت الارض على ان الجزائر حافظت على مستوى التقدم الذي احرزت عليه ابان ازدهار الحضارة الاسلامية .

ولا ينبغي ان ننسى الصناعات المرتبطة بالمواد الغذائية مثلا الطواحين التي تسير

بالهواء او بالماء ، ومثل معاصر الزيت الخ ... فاذا اضفنا الى ذلك حظائر الموانىء التي كانت تصنع فيها السفن ، مثل العاصمة وشرشال وجيجل ، ادركنا ان الفارق بين الجزائر وبين بعض البلاد الاروبية مثل ايطاليا والنمسا لم يكن حينذاك كبيراً .

* * *

وخلافاً لما يزعمه بعض المؤرخين المغرضين الذين يذهبون الى الزعم بان التدهور الاجتماعي والاقتصادي بلغ درجة قضت على وجود المدن ، فان الجزائر في العهد التركي كانت تشتمل على عدة مدن هامة .

فبالاضافة الى الجزائر وقسنطينة وتلمسان : كانت هناك معسكر ومليانة والمدية والبليدة ووهران ومسيلة وزمورة وميلة وبوسعادة وتبسة وبسكرة ومازونة والقلعة ، والبرج وندرومة وبجاية وعنابة وشرشال والقل وتنس ومستغانم الخ ...

ولئن كان من خصائص المدن الكبرى هو أن تجمع سكاناً من جهات متنوعة ، فان سكان المدن الجزائرية على الرغم من رابطة المدينة ، كانوا في العهد التركي ينقسمون الى طوائف معينة حسب الاصول والجهات التي ينتمون اليها . فهناك الاتراك الذين كانوا يشكلون الطبقة الحاكمة التي تسند اليها اهم المسؤوليات وتقتطع أحسن الأحواش ، وهناك أهل المخزن من القبائل الحليفة الذين يملكون أراضي خصبة ، وقد يحترفون تجارات مربحة . وهناك القادمون من وادي ميزاب الذين كانوا يشتغلون جزارين كما كانوا يشتغلون بتسيير الحمامات والطواحين . وهناك القادمون من بسكرة الذين كانوا يحترفون الحمالة ونقل الماء . وهناك السود المتحررون الذين كانوا يحترفون الموسيقى وفنون البناء . وهناك القادمون من الجبال القاحلة الذين كانوا يشتغلون عمالاً بالاجرة الخ ...

وقد كانت المدن الكبيرة محور نشاط كبير وحياة اجتماعية هامة ؛ ففي مدينة الجزائر كانت توجد عدة مطاعم وفنادق ومقاهي الـخ ... وكانت تزدهر فيها خاصة صناعة المصوغ. وفي قسنطينة وجد الفرنسيون عند دخولهم ثلاثاً وثلاثين معملاً للدباغة ، وخمساً وسبعين لصناعة السروج . ومائة وسبعة وستين معملاً للاحذية .

وفي تلمسان وجدوا أكثر من خمسمائة معمل للنسيج . ان كل هذا يدل على ازدهار المدن ويسجل درجة نشاطها ، مع ملاحظة ان الوضع الاقتصادي الجزائري كان يجتاز في تلك الفترة أزمة عنيفة . وقد لوحظ ان معظم الفرنسيين الذين دخلوا الى الجزائر مع الاحتلال لم يجدوا كبير فرق بين طرقات مدن الجزائر وهندستها العامة وبين ما تعودوا عليه في فرنسا .

وما دمنا بصدد الحديث عن المدن ، لا بد من رفع التباس ، كثيراً ما اغتنمه المؤرخون المغرضون للدس على الاسلام . فالحياة والرفاهية في المدن لم تكن تختلف باختلاف الدين أو الوضع الاجتماعي ، أي انه لم يكن هنا تمييز ديني أو عرقي . فروزي يسجل مثلاً ان عدداً كبيراً من الزنوج كانوا يعيشون عيشة بورجوازية مترفة . وقد رأينا في الفصول السابقة كيف ان اليهود توصلوا الى احتكار المضاربات التجارية والأسواق الخارجية . أما القذارة التي اشتهرت بها الاحياء التي يقطن بها اليهود في مدينة الجزائر وقسنطينة فلم تكن أمراً فرضه عليهم الحكم ، ولكنه نتيجة لتكدس عدة عائلات في بيت واحد ، وهذا التكدس بدوره كان نتيجة لتهرب اليهود من دفع الضرائب فهم كانوا يفضلون أن يظهروا في ذلك المظهر حتى لا يتهموا بالثروة ولا تفرض عليهم ضرائب تتناسب مع ثروتهم . فاليهود كانوا أحراراً في اتخاذ مساكن فخمة ونظيفة ، كما تدل على ذلك احصائية فرنسية رسمية أكدت أن مدينة ندرومة كانت تشتمل على سبعين داراً يملكها ٣٤٠ يهودياً ، في حين أن ألفين ومائتين من الجزائريين لم يكونوا يملكون في نفس المدينة سوى ١٩٣ منزلاً .

* * *

أما سكان الريف فقد كانوا يمثلون في العهد التركي حوالي تسعين في المائة من السكان . وكانت مواردهم المعاشية تختلف . فسكان الجبال كانوا يعيشون من زراعة قطع صغيرة من الأرض يستثمرونها إلى أقصى حدود الاستثمار ، أو يعيشون من صناعة الفضة مثل بني يني في القبائل ، أو من صناعة البارود مثل بني سنوس بالقرب من تلمسان ، أو من صناعة الخزف أو السلاح أو الزيت أو الصابون أو صبغ الزرابي الخ ...

أما سكان السهول فقد كانوا يشتغلون بالزراعة وتربية المواشي سواء في نطاق استثمار الأراضي العروشية ، أو باكتراء المراعي . وكثيراً ما يكون سكان السهول خاضعين لسلطة شيخ القبيلة الذي يدفعون له ضريبة معينة . وينقسم هذا الصنف من السكان ، حسب وضعهم الاقتصادي الى قسمين . أغنياء يعيشون تحت الخيام الفخمة أو في المنازل الكبيرة ، وفلاحون فقراء يعيشون داخل أكواخ ولا يكادون يستخرجون من عملهم ما يسد تكاليف الملبس والمأكل .

الحياة الثقافية .

كانت الحياة الثقافية التي تتميز بالطابع الاسلامي ، هي التي تربط ربطاً متيناً محكماً بين مختلف اصناف السكان ، وكانت تعمل عملها في صهر السكان حتى يشعروا بانتمائهم لبلد واحد وامة واحدة . وعندما تتحدث عن الطابع الاسلامي للثقافة ، فليس المقصود هو المحتوى الديني لهذه الثقافة فقط ، ولكن المقصود ايضاً هو المحتوى الحضاري بما فيه من تعليم وتنظيم ثقافي وقضائي وعلاقات اجتماعية وفكرية. وقد شهد عدة فرنسيين شاهدوا الجزائر في فترة الاحتلال ، بأن الامية كانت منعدمة تقريباً في الجزائر ، وان « سكان الجزائر قد يكونون اكثر ثقافة من سكان فرنسا ، فكل الناس تقريباً يعرفون القراءة والحساب » كما يقول روزي . وقد اكد هذه الفكرة « والسان ايسر هازي» الذي يرى أن نسبة الامية في الجزائر كانت في ١٨٣٠ أقل منها في فرنسا .

ولعل هذه الشهادة تعتمد على ما شاهده صاحبها في العاصمة وضواحيها فقط أما في الريف فيصعب التسليم بأن التعليم كان منتشراً بنفس هذه النسبة . نعم إنه من الثابت أن المدارس كانت منتشرة في المدن مثل الجزائر وتلمسان والمدية وقسنطينة الخ ... وهي مدارس كانت تعيش من موارد الأوقاف . وهذا عدا الزوايا التي تشرف على تسييرها الطرق الصوفية ، والتي كانت تضمن للطلبة نظاماً داخلياً يعفيهم من تكاليف ونفقات المأوى والملبس . وقد لعبت الزوايا دوراً اساسياً في نشر الثقافة في الأرياف ، فأوجدت بذلك نوعاً من التوازن بين الريف والمدينة ، وحالت دون ان تتطور الثقافة في المدن خاصة دون الريف. لكن ذلك لا يمنع أن يكون التعليم في الأرياف أقل نسبة منه في المدن.

ومهما يكن من شيء فقد أدى نظام الأوقاف الى إيجاد نوع من الوحدة الثقافية، لأنه كان المورد الأساسي للمدارس القرآنية والمعاهد والمساجد والمحاكم .

ولئن كان الطابع الاسلامي هو المميز للحياة الثقافية والاجتماعية ، فان روح التسامح التي اشتهر بها الاسلام هي التي كانت سائدة : فقد كانت كل مجموعة دينية – مثل اليهود – حرة في التحاكم الى قضاتها الخاصين حسب قوانينها الخاصة – وقد كان اليهود إلى ذلك أحراراً في إقامة مدارسهم الخاصة التي يتعلمون فيها العبرية وتعاليم التوراة – وكان المسيحيون بالرغم من أنهم كانوا قلة ، وكانوا أجانب ، يملكون كنائس يمارسون بها عباداتهم .

وإذا لاحظنا ان الأتراك لم يكونوا يعنون بالثقافة ، عنايتهم بالحرب ، أدركنا ان هذا الرقي وهذا الازدهار الثقافي ، حققه الجزائريون بأنفسهم ، مدفوعين لذلك بدافع شعوري منبثق من أعماق الشعب ، كما عرفنا السبب الذي جعل هذه الثقافة تظل سطحية في أغلب الأحيان رغم انتشارها .

***

وهكذا نجد أن الجزائر كانت في ١٨٣٠ ، تشكل مجموعة ترابية واحدة صهرتها قرون عديدة من تطور مشترك، ونجد ان كل المظاهر من اقتصاد وثقافة وتنظيم اجتماعي جعلت من الجزائر وحدة قائمة الذات . ويتبين من التحليل السابق ان الجزائر لها امكانيات زراعية هامة ، رغم عوامل التدهور الاجتماعي التي اثرت على الوضع الاقتصادي ، كما يتبين ان الحكم التركي لم يعرف كيف يستغل تلك الامكانيات استغلالاً مفيداً بالنسبة لمجموع الشعب ومستقبل البلاد .

***

وهذا هو السبب في أن تطور الذي تم في الجزائر كان تطوراً غير منسجم : فهو يتميز من جهة باتجاهات وحركات منبثقة عن الشعب ، كان هدفها ومآلها هو تحقيق الوحدة الوطنية في أقوى وأجلى مظاهرها . ولئن دعم الأتراك هذا الاتجاه نحو تحقيق الوحدة الوطنية بإقامة نظام سياسي يشمل صورياً كل أنحاء الجزائر ، فإنهم من جهة

اخرى ، قد دفعوا – لعوامل شرحناها سابقاً – السكان الجزائريين إلى توجيه حركاتهم التقدمية التي كان مآلها هو تحقيق الوحدة الوطنية على أسس شعبية ، ضد النظام السياسي الذي أقامه الأتراك . أي انه حدث نوع من التدافع بين اتجاهين في داخل الجزائر ، كان منطقهما في الواقع واحداً ، لكن الملابسات الخارجية وأخطاء الحكم التركي جعلت هذين الاتجاهين يتصارعان ، وكانت نتيجة هذا التصارع هي تسهيل مهمة الاحتلال . فلا ينبغي أن ننسى أن أبرز العوامل المعنوية التي شجعت الفرنسيين على تنظيم حملة الاحتلال هي الشهادات المختلفة التي كان يوجهها القناصل والجواسيس الفرنسيون بالجزائر، عن بغض السكان للحكم التركي .

ولو ان الاحتلال الفرنسي لم يتم في الوقت الذي تم فيه ، لأمكن أن يتحقق الذي الحنا اليه في مكان آخر من هذا الكتاب ، والذي كان مآله هو اندماج الأتراك في الجزائر وذوبانهم فيها ، وآنذاك كان مآل الصراع بين الاتجاهين الشعبي والحكومي هو التحالف .

ولو ان القوة العسكرية التركية التي كانت مسؤولة في الدفاع عن البلاد ، كانت من القوة والمناعة ، ولو ان سياسة الداي كانت من التيقظ والدهاء، بحيث ترد محاولة الاحتلال الفرنسي على الاعقاب ، لكان في الإمكان أن يتحقق ذلك التلاقي بين الاتجاهين ، وأن يتم ذلك الاندماج تحت ضغط التهديد الاجنبي .

لكن الظروف الموضوعية التي أحاطت بتكوين القوة العسكرية التركية وتطورها ، جعلت هذه القوة عاجزة عن أداء هذا الدور خاصة في الثلث الأول من القرن التاسع عشر .

فما هي تلك الظروف الموضوعية ؟

انهيار الاسطول الجزائري :

من بين العوامل التي كانت حاسمة في دفع الجزائريين إلى الاستنجاد بالأتراك ضد الاسبان ، هي امتلاك الأتراك لقوة بحرية واسطول هام . فالممالك المتفرقة التي كانت قائمة بالجزائر ، قبيل ظهور عروج وخير الدين ، بالاضافة إلى تشتتها وتنافرها وتطاحنها.

لم تكن تملك قوة بحرية هامة ، في حين ان طبيعة المعركة التي طبعت ذلك العصر تجعل من القوة البحرية القوة العسكرية الأساسية للصمود في وجه الغزوات المسيحية ضد شواطىء المغرب العربي ، ولرد عدوان القراصنة الأوربيين .

فليس من المبالغة في شيء القول بأن امتلاك أسطول بحري قوي هو الذي مكن الأتراك من الاستقرار في الجزائر .

وقد أدت الانتصارات المختلفة التي أحرزها الأتراك في حوض البحر الأبيض المتوسط ، بالنظام التركي في الجزائر ، إلى الاعتماد الكلي على القوة البحرية ، واهمال جانب القوات البرية . وليس يهمنا الآن تحليل العوامل التي أدت بالأتراك إلى إهمال تكوين جيش بري قوي ، لأن ذلك يشكل جزءاً من سياستهم القائمة على الاعتماد على الأحلاف داخل البلاد ، وعلى القوات الأضافية التي يجندونها من بين القبائل الموالية لهم – لكن الذي يهمنا هو تسجيل ملاحظة موضوعية واضحة وهي : الاعتماد أساساً على قوة الأسطول البحري في الدفاع عن الجزائر ضد الاعتداءات ومحاولات الغزو الاجنبية .

فماذا كانت وضعية الأسطول الجزائري عند مقدم قوات الاحتلال الفرنسية ؟

لقد رأينا في فصل سابق كيف ان الانكليز تمكنوا بواسطة خديعة تتنافى مع التقاليد العسكرية المعمول بها في ذلك الحين ، من تحطيم جزء من الاسطول الجزائري في صيف ١٨١٦ م .

بعد هذه الخسارة التي لحقت الاسطول الجزائري ، وجه السلطان العثماني محمود الثاني ، في سنة ١٨٢٠ إلى الجزائر يطلب منها ارسال وحداتها البحرية لتعزيز القوات العثمانية ضد الثوار اليونان وحلفائهم الأوربيين ، فتوجهت من الجزائر ، في أواخر ١٨٢١ عدة بواخر تحمل على متنها أربعة آلاف جندي .

وبعد ذلك بسنوات قليلة في ١٨٢٧ وجهت الجزائر ، بناء على طلب القسطنطينية وحدات اسطولها لتعزيز الاسطول العثماني ضد الجبهة المسيحية المكونة من الانكليز والروس والفرنسيين وقد نشبت معركة بحرية هامة في نافارين أسفرت عن تحطيم معظم وحدات الاسطول التركي ، فلم ينجح إلا نحو الثلاثين باخرة من بينها عشر بواخر جزائرية ،

كما قتل من الجنود الأتراك في هذه المعركة نحو الستة آلاف .

* * *

هذه جملة من العوامل المباشرة التي اضعفت الاسطول الجزائري .

على أن هذه العوامل وحدها غير كافية في تفسير ذلك الانهيار الذي لحق الاسطول الجزائري ، إذا لم نضف اليه عاملاً آخر لا يقل عن العوامل الأخرى أهمية . وفيما يلي تفصيل هذا العامل :

في عام ١٧٩٩ منح الداي مصطفى باشا الى كل من عائلتي بوخريص وبوشناق حق احتكار تجارة الخشب واستثمار الغابات ، التي كانت أخشابها تستعمل في بناء السفن أو البواخر .

وبذلك أصبحت تجارة الخشب في كامل المساحة الممتدة من بجاية إلى القل ، وقفاً على احتكار بوشناق وبوخريص .

وقد كان أعوان بوشناق وبوخريص يتلقون من البحرية الجزائرية أثماناً على الخشب الذي يبيعونه لها ، مضبوطة على أساس التسعيرة التي أقرها الداي حاج مصطفى في عام ١٧٠٢ التي كان العمل بها ما يزال قائماً في ذلك الوقت ، مضافاً اليها نسبة عشرين في المائة تدفع لاحتكار بوشناق وبوخريص لقاء خدمات شركتهما .

لكن بوخريص وبوشناق لم يكتفيا بهذه النسبة من الربح، وأرادا ان يحققا أرباحاً أضخم وأهم ، ففرضوا أثماناً لشراء الخشب من المحتطبين في الغابات أقل من الثمن الذي تعود المحتطبون المذكورون على البيع به . فسخطت القبائل التي كانت تبيع الأخشاب، ومنعت أعوان بوخريص وبوشناق من حمل الاخشاب بذلك الثمن . فظلت كمّيات هامة من الأخشاب مكدسة فوق الشواطىء ، دون ان تأخذ طريقها الى حظائر صناعة السفن .

فأحدث ذلك فجوة في صناعة السفن الجزائرية ، ولذلك لم يكن في الامكان

تعويض البواخر الحربية التي توجهت الى بحر اليونان في عام ١٨٢١ وفي عام ١٨٢٦ .

***

إذن فالقوة العسكرية الوحيدة التي كان يعتمد عليها الأتراك في رد الاعتداءات الأجنبية قد لحقها الضعف للاسباب المذكورة .

ولو ان النظام التركي عمل على تلافي هذا الضعف بوسيلة أو باخرى لأمكن دفع قوات الاحتلال ، أو على الأقل الحيلولة دون اتخاذه شكل الاستعمار المباشر وطابع الحرب الابادية . لكن النظام التركي ، كان قد اصيب منذ بداية انتصابه في الجزائر ، بمركب هو مركب الغرور . فقد تولد مركب الغرور عند الأتراك منذ فشل هجوم شارلكان على الجزائر ، وتعزز بعد فشل الهجوم الاسباني في عهد شارل الثالث ، أي بعد الهجوم الأول بأكثر من قرنين .

وفعلاً فقد ظل الهجوم الاسباني في المرتين الاولى والثانية رادعاً مدة طويلة للدول الاروبية عن التفكير في تنظيم حملة مماثلة .

لكن الفرنسيين كانوا استخلصوا العبرة من ذلك الفشل ، وبنوا خطتهم بالضبط على اساس مركب غرور النظام التركي ، وهذا في الوقت الذي استنام فيه النظام التركي تحت تأثير مركب الغرور . فلم يتفطن الى الخطط التي كانت تحاكي لتنظيم حملة الاحتلال انطلاقاً من سيدي فرج . وقد كان الحديث عن سيدي فرج بوصفه أحسن نقطة لانزال القوات التي تريد الاعتداء على الجزائر ، رائجاً وسط الاندية القنصلية ، وليس هناك من شك في ان الموظفين الجزائريين بالقناصل الاروبية ، نقلوا الى دوائر الحكم التركي بعض ما كان يجري . لكن الأتراك لم يحاولوا ان يحتاطوا للحملة ، متوهمين ان مآلها الفشل مثل الحملة الاسبانية في عهد شارل الثالث ، ناسين ان فشل تلك الحملة يرجع الفضل فيه قبل كل شيء الى الاستعداد المحكم والى التعبئة العامة التي أعلنها محمد عثمان باشا باستقدامه الجنود والقوات الاحتياطية والقوات الشعبية من كامل جهات البلاد .

***

وهكذا تلاقت مجموعة من العوامل المادية والمعنوية على اضعاف الأسطول الجزائري ،

الذي ظل زمناً طويلا هو الدرع القوي الذي تحصنت به الجزائر ضد القوات الاروبية .

استسلام الداي :

اعدت فرنسا للهجوم على الجزائر حملة ضخمة تشتمل على سبعمائة باخرة وباخرة مابين حربية وتجارية ، على متنها ثلاثة وثلاثون الف ومائة وتسعة عشر جندياً .

وكانت البواخر تحمل معها من المؤونة ما يكفي لتموين الجيش مدة شهرين وقد رخصت الحكومة الاسبانية للفرنسيين في شراء المواد التي يحتاجونها من اسبانيا كما رخصت لهم في كراء المحلات بل وحتى في اقامة المستشفيات . وبذلك ضمن الفرنسيون قاعدة خلفية هامة . اما باقي الدول الاروبية فقد كانت تؤيد الحملة الفرنسية باستثناء انكلترا التي استمرت على معارضتها ، لانها كانت تخشى من ان تعمل فرنسا ، بعد احتلالها للجزائر ، على عرقلة المواصلات بين القاعدتين البريطانيتين في مالطا وفي جبل طارق .

دنت البواخر الفرنسية بشاطىء سيدي فرج في مساء الثالث عشر من جوان ١٨٣٠ ، بعد ان كانت تظاهرت بالاتجاه الى الناحية الشرقية . وكان الداي قد اتصل بمعلومات تفيد بان اختيار الفرنسيين وقع على سيدي فرج للنزول فيه وتنظيم المعركة انطلاقاً منه . وبناء على هذه المعلومات ، ركز الداي قواته على الشاطىء الغربي ، واستعد لقطع الطريق على الفرنسيين .

إلا ان تظاهر الفرنسيين في صباح الثالث عشر من جوان بالتوجه الى الشواطىء الشرقية ، صوب مصب نهر الحراش، أوهم الداي ان الفرنسيين لا ينوون النزول في سيدي فرج ، وان اختيارهم الفعلي وقع على مصب نهر الحراش ، أي نفس الميدان الذي اختاره الاسبان قبل ذلك لمهاجمة مدينة الجزائر .

وبناء على هذا الوهم الخاطىء، نقل الداي القسم الأكبر من قواته التي كانت معسكرة في الشواطىء الغربية ، الى الناحية الشرقية ، واستعد لملاقاة الفرنسيين حيث لم ينزلوا . ذلك هو الخطأ الذي مكن الفرنسيين من الاقتراب من ميناء سيدي فرج ، في مساء اليوم نفسه ، دون ان يلقوا مقاومة .

بدأت القوات الفرنسية في النزول الى البر مع الساعات الاولى ليوم ١٤ جوان . وما كاد ينتصف النهار حتى نزلت معظم القوات الفرنسية واصبحت تسيطر على المكان .

وكان الداي قد عهد الى صهره ابراهيم بقيادة المعركة ضد الفرنسيين . فجمع ابراهيم قواته فوق كدية سطاويلي ، في الوقت الذي تحصنت فيه القيادة الفرنسية بشبه جزيرة سيدي فرج ، في انتظار انزال مؤونة وعتاد الجيش الفرنسي . وبدأت مناوشات استمرت الى مساء الثامن عشر من جوان .

وفي صباح يوم ١٩ جوان هجم الآغا ابراهيم بقواته على الفرنسيين وحاول الاحاطة بالميسرة الفرنسية لعزلها عن شبه الجزيرة وقطعها على القوات الاحتياطية .

وكانت مناورة ماهرة من ابراهيم آغا ، لان النجاح الايسر الفرنسي بينه وبين البحر فجوة طولها نحو الخمسمائة متر . وكادت تنجح مناورة الآغا ابراهيم ، اذ تمكن من بث الهلع في صفوف الميسرة الفرنسية ، لكن القوات الاحتياطية الفرنسية بادرت بنجدة الميسرة ، وتمكنت بعد جهد جهيد من دفع هجوم الآغا ابراهيم ، واحتلت الكدية التي كان يحتلها الآغا . وفي نفس الوقت أنشب باي قسنطينة المعركة ضد الميمنة الفرنسية ، كما واجه باي وهران الوسط .

لكن الفرنسيين كانوا قد احكموا خطتهم الحربية من زمان ، ودرسوها على مهل فلم يكن هناك ظل للتردد في تطبيقها ، مما أعطاهم تفوقاً غير منازع فيه على قيادة الآغا ابراهيم .

عزل الداي صهره عن القيادة بعد أن خسر موقعه فوق كدية سطاويلي ، وعين مكانه باي تيطري ، مصطفى بومزراق ، الذي جمع فلول الجزائريين ، وحاول أن ينظم الدفاع عن حصن الامبراطور . وشرع يهاجم المواقع الفرنسية في ٢٤ جوان . وكانت معركة رهيبة تكبد فيها الفرنسيون خسائر بالغة ، لان الجزائريين كانوا يحتلون الأعالي من بداية الميدان الى بوزريعة ، واستمرت المعارك على طول الخط الذي يفصل بين سيدي خلف الى دالي ابراهيم .

لكن حدث في ٢٨ جوان ، ان تمكن الفرنسيون من انزال المدفعية الضخمة والعتاد الحربي الثقيل الذي تأخر في النزول الى حين يضمن الفرنسيون استقرارهم في سيدي فرج. وآنذاك قرر الفرنسيون توجيه هجوم عام يكون هدفه هو الاستيلاء على حصن الامبراطور .

وتمكن الفرنسيون من وضع مدفعيتهم الثقيلة تجاه الحصن في اليوم الرابع من شهر جويلية . وأظهرت الحامية المكلفة بالدفاع عن الحصن، بقيادة الخزناجي استبسالاً شديداً في الدفاع عن الحصن . وعندما رأى الخزناجي انه لا قبل له بالصمود أمام الفرنسيين أمر باضرام النار في الذخيرة الحربية ، ومع ذلك فقد صمدت جدران الحصن ، ولم يتهدم الا البرج .

بعد استيلاء الفرنسيين على الحصن أصبحت مدينة الجزائر واقعة تحت تهديد المدافع الفرنسية .

وأدرك الداي انه لم يعد في امكان مدينة الجزائر ان تصمد ، فوجه مصطفى خوجة للتفاوض مع الفرنسيين .

وكان اول شرط اشترطه الفرنسيون هو تسليم حصن القصبة وما يشتمل عليه من كنوز .

وتم اتفاق الجانبين على :

١ - تسليم حصن القصبة وكل الحصون الاخرى التابعة لمدينة الجزائر الى الفرق الفرنسية في منتصف نهار يوم ٥ جويلية .

٢ - يتعهد القائد الاعلى للجيش الفرنسي بضمان حرية داي الجزائر وعدم المس بثرواته الشخصية .

٣ - الداي حر في أن ينسحب مع عائلته وثرواته الى المكان الذي يختاره .

٤ - تضمن القيادة الفرنسية لأفراد الجيش التركي نفس الضمانات والحمايات .

٥ – حرية ممارسة الديانة الاسلامية ، وحرية كل السكان من كل الطبقات بحيث لا يقع النيل من معتقداتهم أو أملاكهم .

* * *

هكذا انتهت قصة الجزائر في العهد التركي .

وابتدأت فور هذه النهاية قصة اخرى .

قصة طويلة ، كان بطلها باستمرار هو الشعب ..

فإلى اللقاء ، ان شاء الله ، على صفحات القصة القادمة .. »

الجزائر في ٥ ماي ١٩٦٤

المراجع

غزوات عروج وخير الدين

محمد عثمان باشا — تأليف : أحمد توفيق المدني

المغرب في ذكر افريقيا والمغرب — تأليف : البكري

Barberrousse — par **Akram Rachid**

Histoire generale de l'Algerie — par **Henri Garrot**

Histoire d'Alger sous la domination turque — par **H. D. de Grammont**

la berberie musulmane et l'orient au moyen age — par **Georges Marçais**

la politique française et le Maghreb mediterranéen — par **R. Capot-Rey**

Histoire de l'Afrique du nord — par **Ch. Andre Julien**

France et Afrique du nord avant 1830 — par **F. Charles-Rouse**

Relation des preparatifs faits pour surprendre Alger — par **Jerinimo Conestaggio**

le Royame d'Alger sous le dernier Bey — par **L. Rinn**

Les Portugais et l'Afrique du nord sous le règne de Jean III — par **Robert Ricard**

Documents musulmans sur le siège d'Alger en 1541 — par **René Basset**

L'expedition d'Alger — par **Augustin Bernard**

la Domination Espagnole à Oran sous le gouvernement du Comte d'Alcandete 1534 — 1558 — par **Paul Ruff**

Histoire d'un parjure — par **Michel Habart**

l'Algerie Passé et Present — par **Yves Lacoste, André Norchi et André Renant**

Les civilisations de l'Afrique du Nord — par **Victor Piquet**

فهرست الجزء الثالث

تاريخ الجزائر في القديم والحديث

الباب الاول

الاسبان في الجزائر

الباب الثاني

الاتراك في الجزائر

الباب الثالث

حكم الباي لارباي

الباب الرابع

الجزائر في عهد الباي لارباي

الباب الخامس

توحيد الجزائر

الباب السادس

عهد الباشوات الثلاثين

الباب السابع

العصر الذهبي للبحرية الجزائرية

الباب الثامن

حكم الاغوات

الباب التاسع

نظام الدايات

الباب العاشر

تأكد اتجاه الاستقلال عن القسطنطينية

الباب الحادي عشر

ولاية محمد عثمان باشا

الباب الثاني عشر

ثورة وطنية

الباب الثالث عشر

تاريخ محاولات الاحتلال الفرنسي

الباب الرابع عشر

الادارة الجزائرية في العهد التركي

الباب الخامس عشر

سقوط النظام التركي

تم طبع هذا الكتاب سنة ١٩٦٤

على مطابع ا. بدران وشركاه . بيروت – لبنان